

تاريخ مصر الى الفتح لعمر شاماني

مع نبذ في أخبار الأمم التي ارتبطت بمصر الى ذلك العهد

تأليف

عمر الاسكندري و الميچر ا. ج. سقديج



قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها الثانوية



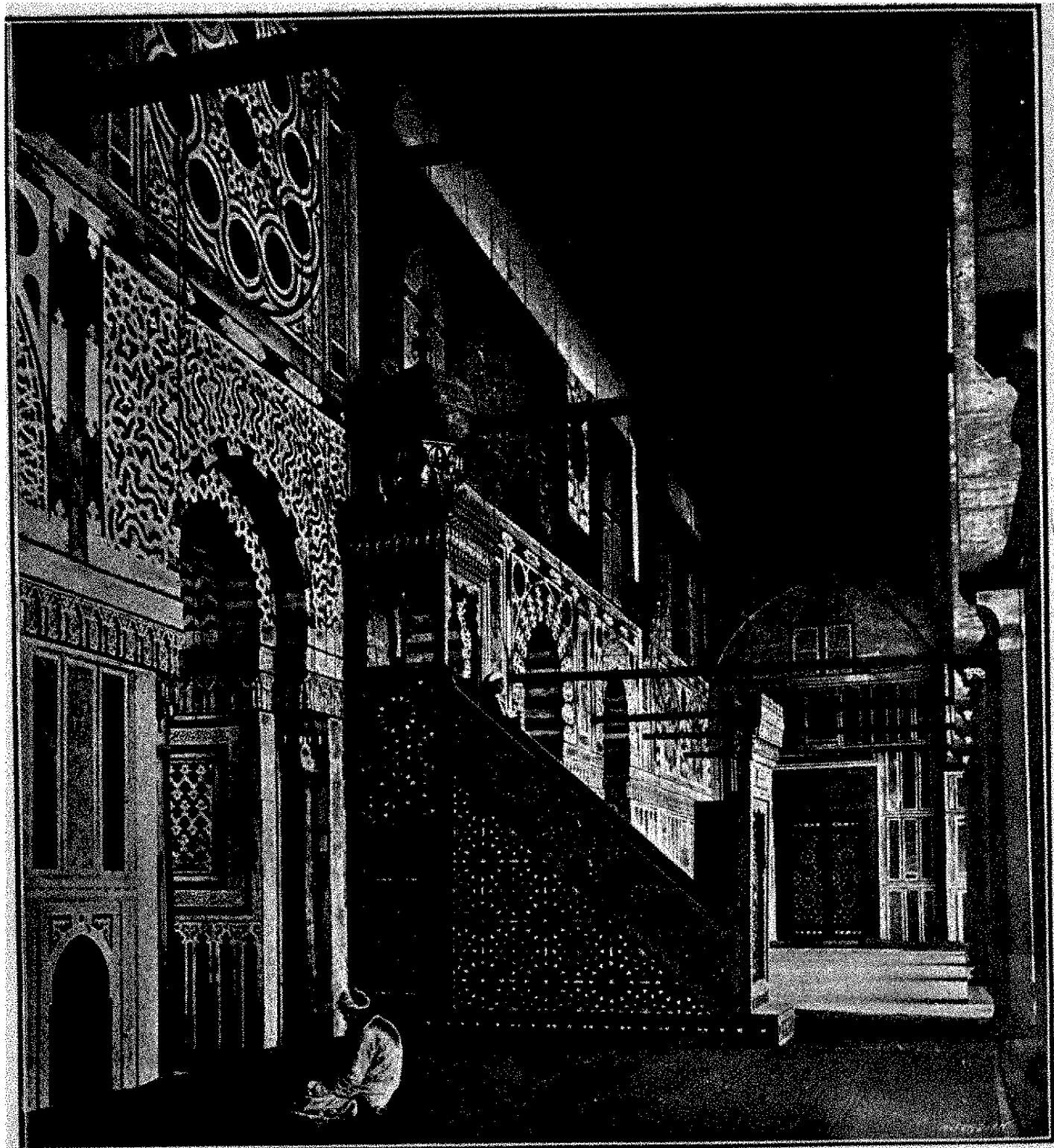
« حقوق الطبع محفوظة للمؤلفين »

(الطبعة الرابعة)



مطبعة المعارف بشابغ انجازه بمصر

١٣٣٨ هـ - ١٩٢٥ م



داخل جامع المويبه
(رسم لكجيان)

فهرست

كتاب تاريخ مصر الى الفتح العثماني

صفحة	الفصل التاسع - الفرس وفتحهم لمصر	صفحة	الباب الأول - قدماء المصريين
٦٢	الفصل التاسع - الفرس وفتحهم لمصر	١	الفصل الاول - مقدمة
٦٥	الاسرة اثامنة والعشرون الى الاسرة الثلاثين	١	مصادر تاريخ قدماء المصريين
٦٩	الفصل العاشر - كلمة في الحضارة المصرية القديمة	٤	تمهيد
٧٧	الفصل الحادى عشر - كلمة في الفينيقيين ملخص أهم الحوادث التاريخية في عهد الفراعنة	٥	الفصل الثانى - مصر قبل الاسرات الملكية
٨١	الفصل الاول - كلمة في الاغريق وحروبهم مع الفرس	٨	الفصل الثالث - تأسيس الاسرات الملكية واتحاد الشمال والجنوب
٨٦	ولايات بلاد الاغريق	١٠	الفصل الرابع - عصر بناء الاهرام
٨٨	علاقة فارس بالولايات الاغريقية (الحروب الفارسية)	٢٢	الفصل الخامس - الدولة الوسطى (العهد الاقطاعى)
٨٩	عصر بركليس	٢٤	مجل حالة مصر في العهد الاقطاعى
٩٢	الاسكندر الاكبر وفتح مصر	٢٦	الاسرة الثانية عشرة
٩٥	الفصل الثانى - البطالسة	٣٠	اضمحلال الدولة الوسطى
١٠٠	اضمحلال البطالسة	٣٣	الفصل السادس - الدولة الحديثة
١٠٥	حالة مصر في زمن البطالسة	٣٣	الاسرة الثامنة عشرة
١٠٩	الفصل الثالث - كلمة في الرومان	٣٦	حروب نحتمس الثالث
١١٠	أطوار تاريخ الرومان - طور الملكية نمو سلطان رومية وامتداده على غيرها من البلدان	٤٤	الاسرة التاسعة عشرة
١١١	النزاع بين رومية وقرطاجنة - الحروب البونية	٤٦	رئيس الثانى وحروبه
١١٣		٥١	الفصل السابع - ابتداء اضمحلال مصر
		٥٤	اشترك الكهنة وامراء تنيس في الملك
		٥٥	حكم اللويين في مصر
		٥٦	اغارة الاتيوبين والاشور بين
		٥٨	الفصل الثامن - النهضة المصرية
		٥٩	استيطان الاغريق الاوائل في مصر

صجيفة	١١٧	فتوح الرومان
١٧١	١١٨	اضمحلال الجمهورية وتأسيس الامبراطورية
١٧١	١٢٠	الفصل الرابع - علاقة الرومان بالبطالسة
١٧٣	١٢٢	كليوباترة
١٧٥	١٢٥	الفصل الخامس - كلمة في الامبراطورية الرومانية
١٧٦	١٢٦	نقل العاصمة الى القسطنطينية
١٧٧	١٢٩	الفصل السادس - مصر في عهد الرومان
١٨٤	١٣٧	استيلاء المصريين في عهد الدولة الرومانية الشرقية
١٨٤	١٣٩	ملخص أهم الحوادث التاريخية من عهد دخول الفرس في مصر الى أن فتحها العرب
١٨٨		﴿ الباب الثالث - عهد الدول الإسلامية ﴾
١٩١	١٤٢	الفصل الاول - العرب وفتوحهم
٢٠٠	١٤٢	(١) العرب قبل الاسلام
٢٠٣	١٤٤	(ب) تأثير بعثة محمد صلى الله عليه وسلم في تأسيس مجد الامة العربية وانتشار الملة الاسلامية
٢٠٤	١٤٤	(ح) حالة الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم
٢٠٩	١٥٣	(د) الفتوح الاسلامية (التحام العرب مع الفرس والروم)
٢٠٩	١٥٦	(١) فتح فارس
٢٠٩	١٥٧	(٢) فتح الشام
٢٠٩	١٥٩	(٣) فتح مصر
٢١٢	١٦١	(هـ) كلمة في الامويين والعباسيين
٢١٩	١٦٥	(١) دولة بني أمية
٢١٩	١٦٥	(٢) الدولة العباسية
٢٢٥	١٦٨	
٢٣١		
٢٣١		
٢٣٧		
٢٣٩		
٢٤٥		
الفصل الثاني - مصر في عهد الخلفاء الراشدين وبني أمية وصدر بني العباس شكل الحكومة الخراج والنفقات القضاء والشرطة والمظالم المقاتلة أهل البلاد أشهر الولاة وأهم الحوادث الفصل الثالث - الطولونيون والاخشيديون (١) الدولة الطولونية (ب) الدولة الاخشيدية الفصل الرابع - الدولة الفاطمية الفصل الخامس - تأسيس الامارات الصليبية بالشام وعلاقتها بمصر حالة الامارات اللاتينية مصر والصلبيديون دخول شركوه مصر وانقراض الدولة الفاطمية مزايا الفاطميين وأسباب سقوطهم الفصل السادس - كلمة في الحضارة العربية بالمشرق الفصل السابع - الدولة الايوبية (١) صلاح الدين (ب) خلفائه من الدولة الايوبية الفصل الثامن - دولتنا المماليك دولة المماليك البحرية فشل الحروب الصليبية ونتائجها دولة المماليك الشراكسة أو المماليك البرجية ملخص أهم حوادث الدولة الاسلامية		

الباب الأول

قدماء المصريين

الفصل الأول

مقدمة

المصريون الأوّلون من أقدم أمم الأرض . وكانت لهم حضارة عظيمة قبل الميلاد المسيحي بألاف من السنين ويحسُن بنا قبل الكلام عليهم أن نبيّن كيف وصلنا الى معرفة تاريخهم ، مع تطاول العصور بعد انقضاء أيامهم ، وتعاقب الدهور على انقراض دُوْلهم

﴿ مصادر تاريخ قدماء المصريين ﴾

تاريخ قدماء المصريين كغيرهم من الأمم القديمة مستمد من مصدرين أصليين : الأول (وهو أوثقهما) آثارهم القديمة وما عليها من الكتابة والنقوش والثاني ما وصل الينا مما كتبه الأقدمون في تاريخهم

(١) الآثار القديمة

كيفية استنباط التاريخ من الآثار القديمة

فمن الأول يتسرانا أن نعرف كثيراً من حظهم من الحضارة ويبلّغهم من العلم مثلاً مبانيهم الهائلة وما عليها من النقوش البديعة ، تدلنا على مقدار نبوغهم في فنّ البناء والتصوير . وحشّ موتاهم المحنطة الحالدة منذ أزمان سحيقة والأصباغ الثابتة الجميلة التي استعملوها في تصاويرهم وتماثيلهم ، تدلنا على براعتهم في علم الكيمياء

العملى . على أنهم لم يقصروا فى تدوين بعض حوادثهم العظيمة ووقائعهم الجسيمة وقصصهم العجيبة وأدعيتهم الغريبة ، مع بيان عصورها وأسماء الملوك الفابضين على أزيمة الملك فى إأنها ، فتراهم كتبوا هذه الحقائق على مبانيهم وآثارهم ، و تراهم أعادوها بعينها على قطع الحزف وأوراق البردى التى وصلت إليها من تلك الأيام الغابرة

وأما تانى المصدرين وهو ما كتبه قدماء المصريين أو معاصروهم فى تاريخ وادى النيل ، فقول بكل أسف : انه لم يصل إليها منه إلا النزر البسير ، واكثره يفتقر إلى إاتبات ، بحيث لا يجمُل بنا الاعتماد على شىء منه ما لم يكن فد أيدته الاستكشافات العديدة ، أو استنبط صحته كبار المؤرخين والأثريين

(٢) ما كتبه
القدماء

وقدم الكتابات التى وصلت إليها من تاريخ مصر هو ما كتبه المؤرخ الإغريق « هيرودوت » فى سنة ٤٥٠ ق . م . ذلك بأنه حصر إلى مصر ، وكتب تاريخاً لها باللغة الإغريقية ، وكان وصمه للبلاد غاية فى بابه حديراً بالثقة به ، غير أن ما كتبه فى التاريخ ذاته ، على ما به من الإمتاع والتشويق ، غير موثوق به ، إذ كان أكثره مستمداً من الأفاصيص السامعة على أنسة العامة فى ذلك العصر

« هيرودوت »
المؤرخ الإغريق

وبعد ذلك نحو مائتى سنة قام كاهن وطى يدعى « مانيثون » تأليف كتاب فى تاريخ مصر كسبه باللغة الإغريقية وكان ذلك فى عصر « بطليموس فيلادلف » حوالى سنة ٢٦٣ ق . م

كتاب
« مانيثون »

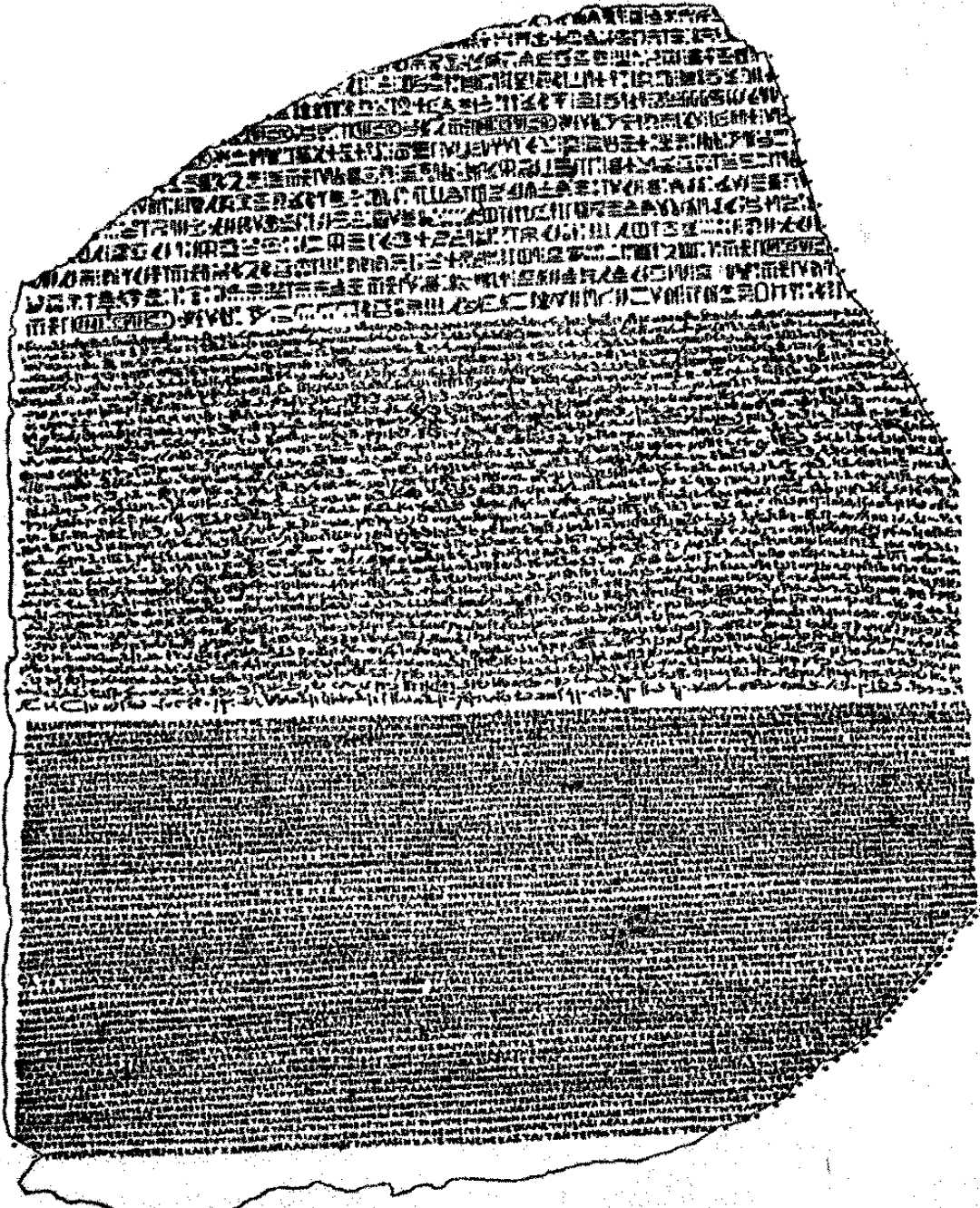
ومما يؤسف له أيضاً أن معظم هذا الكتاب قد ضاع ، ولم يصل إليها منه إلا ما عنى بعله وحفظه مؤرخو المصور الأولى بعد الميلاد . ولا يعتمد المؤرخون على ما جاء بهذا الكتاب إلا فى الوقائع التى أثبتوها من المصادر الأخرى . فأهم ما انتفعوا به منه حصره لملوك مصر . وكان يُشك فى ذلك أيضاً ، لولا أن الاستكشافات الحديثة أثبتت صحته . وعند كلامه على ذلك بدأ بالملك « مينا » ، وقسم الملوك الذين من بعده إلى ٣١ أسرة حكمت مدة ٣٥٥٥ سنة

ثم كتب فى تاريخ مصر فى أوائل ظهور المسيحية « ديودور » و « إسترابون »

الإغريقان ، ولكن كلامهما أيضاً جاء محتاجاً الى برهان

ولو لم يعرف الناس بمدُ قراءة النقوش والرسوم التي على تلك الآثار، لبقيت أبد الدهر قليلة الجدوى في إرشاد المؤرخين الى الحقيقة . فقد كانت الكتابة الهيروغليفية قد نسيت أيما نسيان ، ولم يكن في العالم أجمع من يستطيع فكّ طلاسمها وحلّ

أهمية فك
الحروف
الهيروغليفية



حجر رشيد

رموزها ، الى أن جاء « نابليون بونابرت » الى مصر في غارته المشهورة ، فعثر أحد ضباطه سنة ١٧٩٩ م على الحجر المشهور المسمى بحجر رشيد

حجر رشيد

ويوجد هذا الحجر الآن بين نفائس دار التحف والعاديات بمدينة لندن . ويحتوى على عبارة مكتوبة بثلاث لغات : أولها بالهيروغليفية ، وتحتها ترجمتها بالديموتيقية (وهى اللغة المصرية القديمة الدارجة) ، وتحتها ترجمتها باللغة الإغريقية . فتمكن الباحثون من مقارنة أسماء الأعلام الواقعة في العبارتين الهيروغليفية والديموتيقية بنظائرها في الترجمة الإغريقية . ومن ذلك الحين ابتداءً المؤرخون والأثريون في أوربا يشتغلون بحل رموز الكتابة المصرية القديمة . واستعانوا على ذلك بالآثار الأخرى . وأول من خطا الخطوة الأولى في ذلك هو « تومس ينج » الانجليزى (١٧٧٣ - ١٨٢٩ م) ، ولكن الذى يُنسب اليه التغلبُ النهائى على هذه الصعوبة هو « فرانسوا شمبليون » الفرنسى (١٧٩٠ - ١٨٣٢ م) . ومن ذلك الوقت الى الآن ازدادت معرفة العالم بتاريخ مصر القديم ولاسيما في الخمس والعشرين سنة الأخيرة

* تمهيد *

كانت مصر في أول عهدها تشمل عدة ممالك صغيرة تكوّنت منها بعدد مملكتان عظيمتان : الأولى في الوجه القبلى ، والثانية في الوجه البحرى . ثم ظهر من الوجه القبلى رجل يدعى « مينا » ، ضمّ القطرين بعضهما الى بعض ، وجعلهما مملكة واحدة تحت سلطانه سنة ٣٤٠٠ ق . م . * وهذا هو ابتداء العصر التاريخى لمصر

ملخص تاريخ
مصر القديم

* تواريخ المصور الاولى من تاريخ مصر القديم ليست معروفة يقيناً ، بل يقدرها المؤرخون بمقتضى فروض لهم . وقد قدر كل منهم لسنة تولى « مينا » مثلاً تاريخاً مختلف عما قدره الآخرون . والذى اتبعناه في هذا الكتاب هو رأى الاستاد « برستيد » معلم التاريخ المصرى القديم وتاريخ الشرق بجامعة شيكاغو . وهاك آراء بعض مشاهير المؤرخين الآخرين عن سنة تولى « مينا » : بترى ٥٥٠٠ ق . م - مريت ٤٠٠ ق . م - بروكش ٤٤٥٠ ق . م - ارمان ٣٣٠٠ ق . م . على أن المؤرخين بكادون يتفقون على تواريخ المصور التى تبتدى من الدولة الوسطى

الذي تكاد أكثر أخباره تكون معروفة مستيقنة ، وافتتاح العصور التي تكلم عليها
« مانيتون » في تاريخه

وقد نهج المؤرخون منهج « مانيتون » فقسموا الملوك المصريين الذين أولهم
« مينا » الى ٣٠ أسرة ، وتلك الأسرات الى ثلاث طبقات ، تُعرف بالدولة القديمة
والدولة الوسطى ، والدولة الحديثة

وبعد اضمحلال الدولة الحديثة غزا الفرس مصر ، وابشوا فيها حتى دخلها عليهم
الاسكندر المقدوني . وبعد وفاة ذلك الفاتح العظيم الذي لم يكن له وارث لملكه ، اقتسم
قوادُّهُ أملاكه ، فكانت مصر نصيب أحدهم المدعو « بطايموس الأول » ، وهو
مؤسس دولة البطالسة التي حكمت مصر مدة انتهت باستيلاء الرومان عليها سنة ٣٠ ق . م

الفصل الثاني

مصر قبل الاسرات الملكية

تدل الآثار المصرية ، ولا سيما التي كشفت حديثاً ، على أن الجنس الإنساني قطن
مصر منذ أزمان متوغلة في القدم . وقد عثر الباحثون عن آلات من الطران * دقيقة
الصنع وعلى آنية فخارية مزخرفة وغير مزخرفة وعلى غير ذلك من الآثار القديمة جداً ،
مما يدل على وجود حضارة بمصر قبل الميلاد بنحو ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ سنة . وأرجح
الاراء الحديثة أن مؤسسى تلك الحضارة قوم لوبيو الأصل ، غير أن حضارتهم
ليست هي أساس مدينة المصريين الذين تكوَّنت منهم الأسرات المختلفة التي سنتكلم
عليها ، والذين وصلوا بمصر الى أعظم درجات الرقى ، بل كانت لهم حضارة قديمة
مستقلة بذاتها

* طران وطران جمع ظر وطرر . وهو الحجر الصلب الرقيق الذي حده كحد السكين وقد
استعمله الانسان قديماً للقتال

في أن حضارة الاسرات الملكية أصلها من آسيا

أما الحضارة التي ابتدأ ظهورها بابتداء الأسرات الملكية فيُعزى أصلها الى القوم الفاتحين أجداد « مينا » ذلك الملك الشهير . وقد ثبت أن أصل هؤلاء الفاتحين قوم ساميو الجنس قدموا الى مصر من آسيا . ولا يُعلم بعدُ علمَ اليقين من أين دخلوا البلاد ؛ فمن قائل إنهم جاءوا من برزخ السويس (وهو الأرجح) ، ومن قائل أنهم عبروا البحر الأحمر ، ووفدوا على مصر من جهة بلاد الحبشة . وعلى كل حال نعلم يقيناً أن القوم الذين نشأ من بينهم « مينا » كانوا قبل ظهوره يقطنون الجهة الجنوبية من مصر . ومما يدل على أن الفاتحين أجداد « مينا » من الأجناس السامية أن أقدم ما وصل إلينا من لغتهم مُشاهد فيه العنصر الإفريقي والسامى ، وأن الأخير غالب على الأول

الحضارة في مصر قبل الاسرات الملكية

دخل هؤلاء الفاتحون ومعهم حضارة أرقى من التي كانت بمصر في ذلك الوقت : فهم الذين جاءوا بفن التحنيط وبالكتابة الهيروغليفية . ومنذ دخولهم درجت مصر في طريق الرقى شيئاً فشيئاً ، اذ كان لحضارتهم تأثير في السكان الأصليين ، ونشأت من اتحاد العنصرين في ذلك العصر (أى الذى قبل زمن الأسرات) حضارة لا بأس بها . فكانوا يصنعون آنية جميلة من الفخار ، ثم صنعوها من الأحجار ، فأجادوا فيها كل الإفادة . وفي ذلك العصر ابتدأ فن عمل التماثيل يظهر بينهم ؛ فصنعوا تماثيل من الخشب والماج والحجر متلائمة الصنع ، واتخذوا من الطران قوُساً وحراباً وغيرها من الآلات ، ثم تقدموا فصنعوا أمثالها من النحاس . وفي الجملة كان هذا العصر دور انتقال من العصر الحجري الى عصر المعادن . أما أهم ما اشتغلوا به في ذلك الوقت فكان الزراعة ، التي لفتهم إليها خِصْب وادى النيل . وكان بالبلاد اذ ذاك كثير من الغابات تأوى إليها الفيلة والزرافى وأفراس الماء وغيرها ، وكان من المصريين عدد وافر يشتغل بصيدها وصيد سباع الصحراء التي هي أشد منها بأساً كالأسد والثور البرى ، يرمونها بالسهم والنشاب . أما التماسيح وأفراس الماء ، فكانت تُرمى من القوارب بالحرايب والخطافات . وكان صيد هذه السباع يُعد من المآثر العظيمة التي يتخادونها بالنقش على الصخور

وكانوا يشتغلون في ذلك العصر أيضاً بقايل من التجارة ، واتخذوا لهم سفناً شراعية
اعلمها أعلام مختلفة ، يقول المؤرخون انها رموز للممالك الصغيرة التي كانت تحتوى
الازمنة الفارة الى اقسام عديدة
عليها مصر اذ ذاك ، والتي انتهى أمرها بانضمام بعضها الى بعض وتكوين مملكتين
عظيمتين منها : احدهما في الشمال ، هي مصر السفلى ، والاخرى في الجنوب ، هي
مصر العليا . وتم ذلك الاتحاد في عصر بعيد (أى قبل سنة ٤٠٠٠ ق . م) ؛ ولا
نعرف شيئاً عن الرجال الذين سعوا فيه ، أو الحروب التي نشبت من أجله ، بل
لا نعرف شيئاً كثيراً عن المملكتين اللتين نشأتا من هذا الاتحاد لبعدهما

ومما نعرفه عنهما أن كليهما كانت لها صفات وشارات تميزها عن الأخرى : فمن
مملكتنا الشمال والجنوب ورمز كل منهما
ذلك ان أهل الشمال كانوا يتخذون رمزاً لهم حُرْمة من نبات البردى النبات بكثرة
في مناطق الوجه البحرى . وكان ملكهم يتخذ النحلة رمزاً له ويلبس تاجاً أحمر ذا شكل
خاص . أما أهل الجنوب فكان رمزهم الزنبق ، ورمز ملكهم نبات من نبات الجنوب ،
وشارته تاج طويل أبيض

ولما كانت مصر السفلى عرضة للوبيين القاطنين في غربيها كان يرد عليها العدد
العظيم منهم فيقيمون بها ، حتى أخذ الجزء الغربى منها صبغة لوية بقيت ظاهرة فيه
زمناً طويلاً ، على حين ان مصر العليا كانت مصطبغة بالصبغة المصرية البهجة
ومما يؤسف له أن مصر السفلى طالما غمرها النيل بفيضانه المتكرر على مرّ الدهور
فاندثرت آثار تلك المملكة الشمالية ، مع أن الظاهر أنها أقدم في الحضارة من
أختها الجنوبية

أما عاصمة هذه المملكة الشمالية فكانت مدينة « بوتو »^(١) يقابلها مدينة
« نخب »^(٢) عاصمة المملكة الجنوبية
ولم يصلنا شئ يذكر من أخبار ملوك ذلك العصر ، ولم نعثر بعدُ على قبورهم ، بل

(١) في شمال الدلتا

(٢) مقرها قرية « الكاب » الحالية الواقعة بين اسنا وادفو

لم تقف الأ على أسماء نفر منهم منقوشة على الحجر المعروف بحجر « بلزم »^(١)
وكان الذين خلفوا هؤلاء الملوك يقبونهم « بنصف آلهة » ، ثم قيل عنهم فيما
بعد إنهم آلهة حكموا مصر قبل أن يحكمها الإنسان

فصل الثالث

تأسيس الاسرات الملكية

واتحاد الشمال والجنوب

اتحاد الشمال
والجنوب

بقى كل من إقليمى الشمال والجنوب (مصر السفلى والعليا) مستقلا بذاته الى
أن تولى حكم مصر العليا رجل عظيم يدعى « مينا » جمع بين المهارة الحربية والمقدرة
السياسية ، فقبض على جميع أزمّة الاقليم الجنوبي ، ثم تمكن بذلك من غزو مصر السفلى
وضمها الى ملكه ، فكوّن من الاثنتين مملكة مصرية عظيمة كان هو أول الفراعنة
الذين جلسوا على عرشها . ولما كان منشؤه فى مدينة « طينية »^(٢) لم يرَ أن موقعها
بحيث يسهل جعلها مركزاً لإدارة مملكته الواسعة الجديدة . فحوّل مجرى النيل من
الجبيل الغربى الى مجراه الحالى^(٣) ، وبني عاصمته « منف » (منفيس)^(٤) فى الفضاء
الذى تخلف من ذلك ، ثم سنّ القوانين ونظم البلاد . ومن أعماله أيضاً أنه ردّ أهل
النوبة الى الجنوب بعد أن كانت بلادهم الشمالية واصله الى مقاطعة ادفو

مينا

(١) « حجر بلزم » وُجد ضمن الاثار المصرية . نقش فى أيام الاسرة الخامسة ومكتوب
عليه أسماء ملوك مصر الاوائل ، وبه أسماء ١٣ ملكاً حكموا مصر من عهد الاسرة الاولى الى
عهد الخامسة مع بيان مدة كل منهم . وبه أيضاً بيان ارتفاع النيل فى كل سنة منها . وهذا الحجر
الآن بمدينة « بلزم »

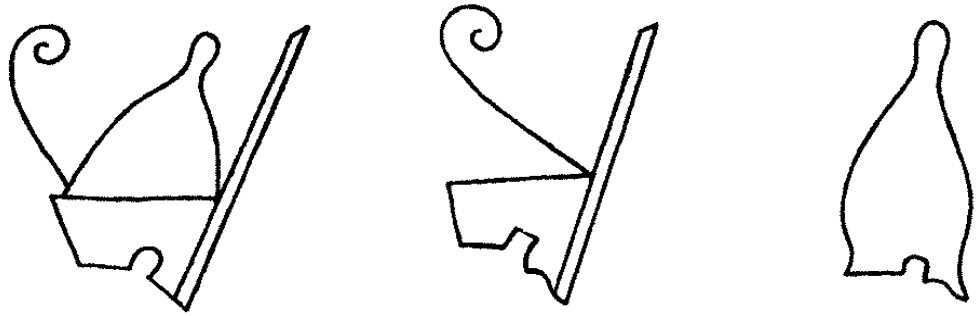
(٢) موقعها الآن « العرابية المدفونة » بالقرب من جرجا

(٣) بعض المؤرخين ينكر هذه الرواية

(٤) موقعها الآن البدرشين ومنية رهينة

ومات بعد أن حكم طويلاً ، ودُفن بالقرب من « طينة » مسقط رأسه
فخلفه ابنه « تيتي » ، وكان مولعاً بالعلوم ، فألف كتاباً في الطب به عدّة أوصاف
لعلاج أنواع شتى من المرض خصوصاً داء البرص . وله كتابان في الفلك وغير ذلك
من العلوم

وبقى الإقليميان من بعده يحكما ملك واحد . وكانت كل شارات الملك ورموزه تدل
على أنه حاكم المصريين ، فكان يسبق اسمه في جميع الكتابات الرسمية بصورة النحلة
رمز الشمال مشفوعة بنبات الجنوب . وكان تارة يلبس تاج الوجه القبلي الأبيض ،
وأخرى يلبس تاج الوجه البحري الأحمر ، وطوراً يلبس تاجاً جمع بين الشكلين ، هكذا:



(تاج الوجه القبلي الابيض) (تاج الوجه البحري الاحمر) تاج الوجهين

فكان ظهوره بهذه الهيئة في أيام الزينة ، كفتح الترع ومواكب النصر وما
شاكل ذلك من الحفلات الرسمية ، عنواناً على انه ملك الوجهين البحري والقبلي ،
غير أن هذه الرموز الرسمية كانت في الحقيقة دليلاً على أن كلاً من الاقليميين شاعر
بوجوده بذاته ، وأنه لم يندمج ويتلاش في الآخر ، وفي الحقيقة كان الاقليميان منفصلاً
أحدهما عن الآخر في الإدارة الداخلية

وكان أصعب عمل أمام ملوك الأسرتين الأولى والثانية هو ارضاء اقليم الشمال
وجعله يندمج تماماً في اقليم الجنوب . وكثيراً ما شق أهل الشمال عصا الطاعة فنشبت
بسبب ذلك حروب أريقت فيها الدماء . وما زلنا نرى تذكارات الانتصارات عليهم
منقوشاً على جدران معبد « هوروس » بجهة « هيراقنبوليس » *

ولا شك أن هذه الحروب أثرت في حالة مصر السفلى ، ولكنها لم تمنع مجموع المملكة من التقدم ، بدليل ان حفر الترع وما شاكله من المنافع العامة كان آخذاً في الازدياد ، وكذلك أخذت طوابع النبوغ تظهر في فن الهندسة ، وارتقى نظام الحكومة وكثر بناء القصور ، وعظم تشييد المقابر والنواويس ، وابتدأت أيضاً التجارة بين مصر وما جاورها من البلاد مثل شبه جزيرة بلاد العرب . ويغلب على الظن أن المصريين ابتدوا منذ ذلك العهد البعيد يتجرون مع سكان جزائر « بحر إيجة » ، بدليل أنه قد وُجِدَت في قبور ملوكهم أوانٍ من الفخار شبيهة جداً بأواني سكان تلك الجزائر

الفصل الرابع

عصر بناء الأهرام

(٢٨٩٠ - ٢٤٧٥ ق . م)

الأسرة الثالثة ٢٩٨٠ - ٢٩٠٠ الأسرة الخامسة ٢٧٥٠ - ٢٦٢٥

» الرابعة ٢٩٠٠ - ٢٧٥٠ » السادسة ٢٦٢٥ - ٢٤٧٥

يطلق هذا الاسم على العصر الممتد من منشأ الأسرة الثالثة الى منتهى الأسرة السادسة ، وذلك لانتشار بناء الأهرام فيه انتشاراً كبيراً أدى الى تلقيبه « بعصر بناء الأهرام » ، وإن كان تشييد الأهرام لم يبطل بته إلا في أواخر أيام الدولة الوسطى . وهذا العصر يمثل طوراً هاماً من الأطوار التي تقلبت فيها مصر . ويلخص وصفه فيما يأتي :

كان ملوك الأسرتين الأولى والثانية على جانب عظيم من القوة وشدة البأس ، فكانت جميع السلطة في قبضة الملك لا ينازعه فيها منازع . وقد يهب جانباً كبيراً

مقدمة

منها لحكام الأقاليم مختاراً ، ولكنه يستأثر بالسيطرة العليا فيعزلهم من مناصبهم اذا هم أساءوا استعمالها أو حادوا عن الخضوع لسلطانه . استمرت هذه الحالة في أيام الأسرة الثالثة ، حتى وصلت قوّة الملك فيها الى منزلة لم يسبق لها مثيل ، يدل على ذلك الآثار الهائلة التي أقيمت في أيام هذه الأسرة وما بعدها . اذ لم يكن يتسنى تشييدها الاّ في عهد ملك قوى قبض على كل السلطة في أنحاء البلاد ، حتى تمكن من إنفاق تلك القناطير المقنطرة من الثروة في بناء هرم هائل لا داعى لإقامته سوى رغبته الخاصة . ويظهر أن قوّة الملك بلغت أقصاها في أوائل أيام الأسرة الرابعة ، أى في الوقت الذى شيّد فيه « خوفو » هرم الجيزة الأكبر

ومن بعد عهده أخذت السلطة تتسرب من يد الملك . ويرجع ذلك الى أمرين : الأول أن حكام الأقاليم استبدّوا بجانب كبير من القوة ، والثانى أن كهنة عين شمس (مقر عبادة « رع ») أخذوا يتدخّلون فى الأمور السياسية حتى صار لهم فيها نفوذ كبير ، فأضعف ذلك ، قوّة الملك من جهة ، وزاد فى شوكة حكام الأقاليم من جهة أخرى . وما زال نفوذ الكهنة يزداد شيئاً فشيئاً حتى قضوا على الأسرة الرابعة ، وأسسوا الأسرة الخامسة . واتهم حكام الأقاليم هذه الفرصة فجعلوا مناصبهم وراثية ، وان لم يحيدوا عن الولاء للملكهم . واستمرت البلاد آخذة فى أسباب التقدم ، فزاد فرعون من نفوذ مصر فى بلاد النوبة ، وأرسل البعثات التجارية الى بلاد « بنت » و « سينا » و « فينيقية » و « بحر إيجة » . ومع كل هذا أفضت مزاحمة الأمراء والولاة للملك الى ارتباك عظيم فى سياسة البلاد وانتشار الفوضى فيها ، وعند وفاة آخر ملوك الأسرة السادسة رجعت مصر الى تلك الفوضى التي أنقذها منها مينا قبل ذلك بنحو ١٠٠٠ سنة

بناء القبور
والاهرام

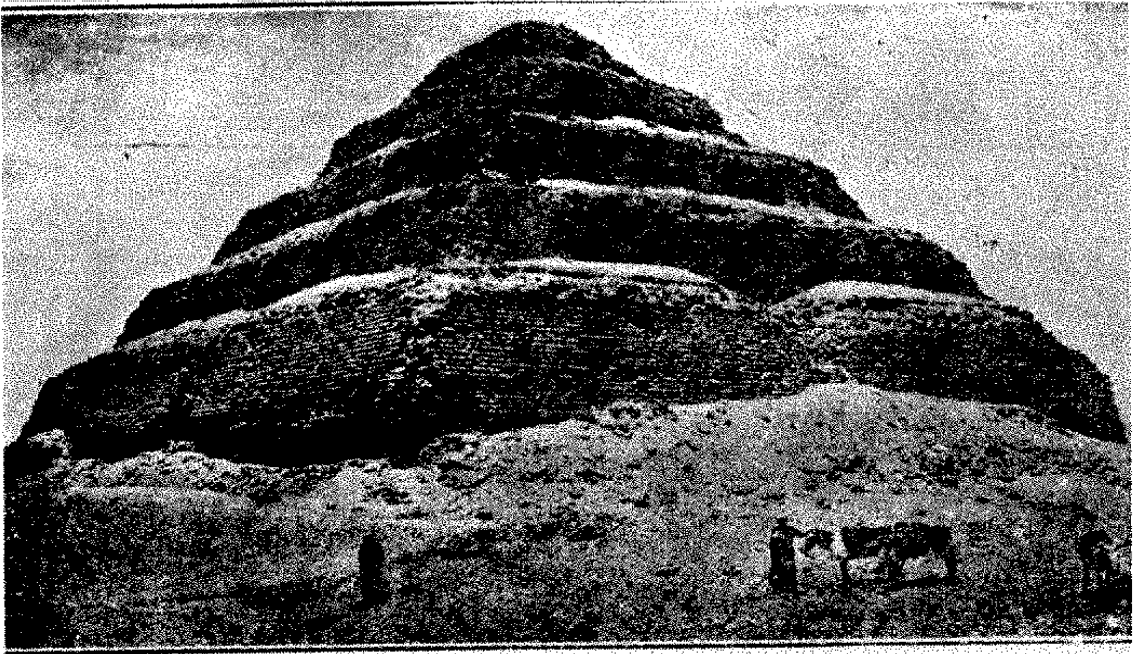
ولكى نفهم الغرض من بناء الأهرام والمقابر عند قدماء المصريين يجب علينا أن نعرف شيئاً من معتقداتهم فيما يختص بالحياة بعد الموت . كان المصريون يعتقدون

أن من عاش عيشة طاهرة في هذه الحياة الدنيا يعيش بعد الموت عيشة رغداً في أرض أخرى يتخيلون موقعها بالإجمال في الجهة الغربية . وكانوا يعتقدون أيضاً أن الإنسان مكوّن من جزأين : الجسم والروح (المسمى عندهم « كا ») . ولكي يبقى الروح متمتعا بالحياة يجب أن يكون الجسم بعد الموت باقياً على صورته ، ولذلك عملوا على تحنيط الموتى وبناء المقابر الحصينة كي يُحفظ الجسم بها من يد العابثين واللصوص . وكانوا يضعون في القبور الطعام والشراب ليتناول الروح منهما ما ينتعش به . وكثيراً ما كانوا ينقشون على جدران المقبرة المناظر التي كان يعيش بينها الميت والخيرات التي كان يتمتع بها ، مثل صورة منزله وحدثه ومزارعه وخدمه على اختلاف أنواعهم ، كلٌّ يشتغل بعمله ، ومثل أشكال الرياضة التي كان يروض نفسه بها وغير ذلك ، زعمانهم أن الروح يستأنس بهذه الصور ، فتذهب عنه الوحشة

وكانت حالة القبور في الأسرتين الأولى والثانية تقرب الى الغضاضة وقلة التائق ، فان الجثة كانت توضع في حجرة تحت الأرض توصل اليها زلاّقة منحدره . وكانت بالمقبرة حجرتان أخريان فوق الأرض : إحداهما توضع فيها العطايا المقدمة للروح ، والأخرى توضع فيها تماثيل الميت (وتسمى الآن عند علماء الآثار سرداباً) . وكان يُصنع في الجدار الغربي من كل مقبرة فجوة غائرة في الحائط تحاكي الباب ، ترد الروح منها على زعمهم لتتناول ما تريد من العطايا . وكانت القبور في أول الأمر تُبنى من اللبن المجفف في الشمس وتشيّد على شكل هرم ناقص أضلاعه قليلة الميل . ولوجود شيء من الشبه بين هذا الشكل وبين المصاطب التي بمدخل منازل القرى في الوقت الحاضر أصبحت كل مقبرة من هذا النوع تسمى « مصطبة » . ثم ارتقت المقابر شيئاً فشيئاً ، فصارتُبنى فوق المصطبة مصطبة أصغر منها وقد يبنى فوق هذه أخرى أصغر منها وهكذا ، فينشأ من ذلك ما يسمى « بالهرم المدرّج » . وأول من شيّد هرماً بهذه الصفة هو « زوسر » مؤسس الأسرة الثالثة ، فانه شيّد «هرم سقارة المدرّج» حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م من خمس مصاطب إحداها فوق الأخرى ، فكان هرمه

هذا أقدم بناء كبير من الحجر عُرف في التاريخ . وقد اتبع هذه الخطة العامة بناء الأهرام من بعده ، غير أنهم زادوا في أهرامهم ما جعلوا به أضلاعها مستوية . وفي المقابر الهرمية كانت توضع الجثة في حجرة خفية داخل الهرم أو تحتها ، وبذلك كان الهرم والحجرة التي به بمثابة الحجرة التي كانت توضع فيها الجثة في العصور الأولى . أما العطايا التي تقدم للروح فكان يبنى لها معبد ملاصق للهرم من الجهة الشرقية يسكنه كهنة قوامة بشؤون هذه العطايا . ولا تزال آثار هذه المعابد ظاهرة بالجيزة وبوصير

وصلت « منف » (منفيس) في أواخر أيام الأسرة الثانية الى درجة من الرقي الاسرة الثالثة كادت تُختفي على عظمة « طينة » التي ينسب اليها ملوك الأسرتين الأولى والثانية . ولما انتهت الأسرة الثانية أسس « زوسر » الأسرة الثالثة ، فكانت أيامه المبدأ الحقيقي زوسر لعظمة منف . وفي عهده استمر استخراج معدن النحاس من شبه جزيرة سيناء وأخضعت قبائل بلاد النوبة الشمالية المجاورة للجنادل الأولى . وقد ساعد « زوسر » على نجاحه العظيم وزيره المدعو « إِمْحَتَب » الذي كان على جانب عظيم من الحكمة



« هرم سقارة المدرج »

وظول الباع في فلسفة الدين والسحر والحكم والأمثال والطب وفن البناء
و « زوسر » هو أول من شيد من الحجر مباني عظيمة كثيرة العدد وأول من
حسن صناعة القبور ، فبنى بجهة « بنى خلاف » بالقرب من « أيدوس » مصطبة
عظيمة من الطوب ، ثم شيد في الصحراء بالقرب من منف تربة من الحجر أعظم من
هذه ، بل أعظم من أى تربة بنيت قبلها : وهي الهرم المدرج المذكور آنفاً المعروف
بهرم سقارة المدرج

وبعد أن توفي « زوسر » بقيت البلاد آخذة في أسباب التقدم الى أن تولى الملك
« اسنفرو » آخر ملوك الأسرة الثالثة ، وكان بصيراً ساهراً على ما فيه الصالح لبلاده ،
فشيد الطرق التجارية وبنى السفن العظيمة . ومن أعماله أنه فتح باب التجارة مع
الممالك الشمالية وأرسل أسطولاً مكوناً من أربعين سفينة الى الشاطئ الفينيقي لإحضار
خشب الأرز من جبال لبنان ، فكان ذلك أول بعثة بحرية أرسلت داخل البحار .
ومن أعماله أيضاً أنه نظم حدود القطر الشرقية وحصنها ، وقاد حملة حربية على بلاد
النوبة الشمالية فعاد ومعه الألف من الأسرى والماشية

اسنفرو

وقد شيد تربتين احدهما بجهة « ميذوم » على شكل هرم مدرج والأخرى
بجهة « دَهشور » على شكل هرم كامل ، وكلا الهرمين بين منف والفيوم
وكانت مصر في أيام « اسنفرو » قد وصلت الى درجة كبيرة من الرقي مهدت
لها طريق السير الى تلك العظمة الهائلة التي بلغت في أيام الأسرة الرابعة وما بعدها ،
وتقوت في أيامه طائفة الأشراف الموظفين في حكومة الملك . وجعلوا يبنون لأنفسهم
المصاطب العظيمة من الحجر المنحوت ، ويختارون مواضعها حول قبر ما يكتم
الذي يخدمونه

وبعد وفاة « اسنفرو » انتهت أيام الأسرة الثالثة ، وتولى الملك « خوفو »
مؤسس الأسرة الرابعة التي يُعدُّ عصرها أزهى عصور الدولة القديمة . وقد ذهب
بعض المؤرخين الى أنه أزهى عصور الحضارة المصرية باجمعها . ولا غرو فإن دقة البناء

خوفو مؤسس
الأسرة الرابعة

وفخامته وجمال التماثيل وروعيتها في تلك الأيام لتكفي لإثبات ما كان المصريون عليه من الحضارة العظيمة في عصر هذه الدولة

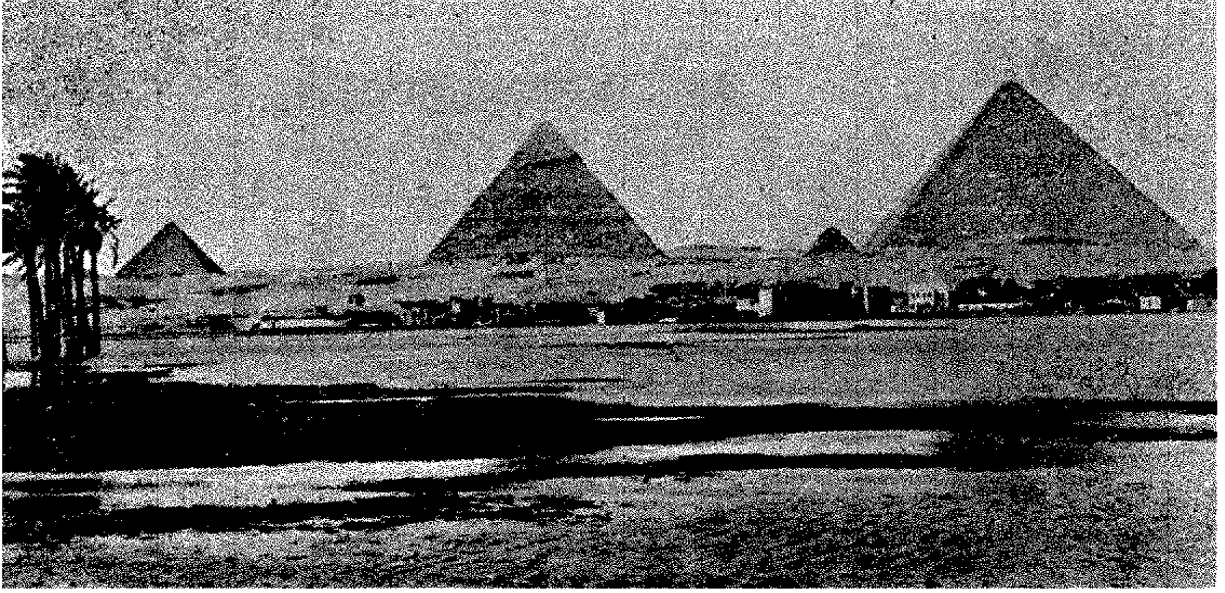
هرم الجيزة
الأكبر

ومؤسس الأسرة الرابعة هو الملك « خوفو » وكان يسميه اليونان (كيئس) . وقد عرّف هذا الملك كيف يتخذ اسمه في التاريخ ، فشيد هرم الجيزة الأكبر الذي لم ير العالم بناء أكبر منه . ولا نريد التعرّض لموضوع فائدة ذلك الهرم أو غيره ، وإنما نؤكد أنه من أجله صار اسم « خوفو » أظهر اسم بين أسماء الملوك الذين حكموا في الشرق الى وقتنا هذا . وان ضخامة هذا البناء الهائل جعلته احدى عجائب الدنيا ، فقد قرّر المؤرخون والمهندسون ان بناءه يشمل نحو ٢,٣٠٠,٠٠٠ حجر ، متوسط وزن الحجر منها طنان ونصف . وقد قال « هيرودوت » المؤرخ اليونانى : انه كان يشتغل في بناء الهرم مائة ألف رجل^(١) يُستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة أشهر وان بناءه استغرق عشرين عاماً . وقد أثبت أعظم المؤرخين المُحدثين أن ذلك تقدير معتدل . وليست غرابة الهرم في حجمه فقط ، بل من حيث دقة صناعته ، كانتخاب الأحجار وجودة نحتها وضبط زواياها وحسن رصفها ورقة المَلَاط الذى بينها ، مما أدهت أعظم مهندسى الوقت الحاضر

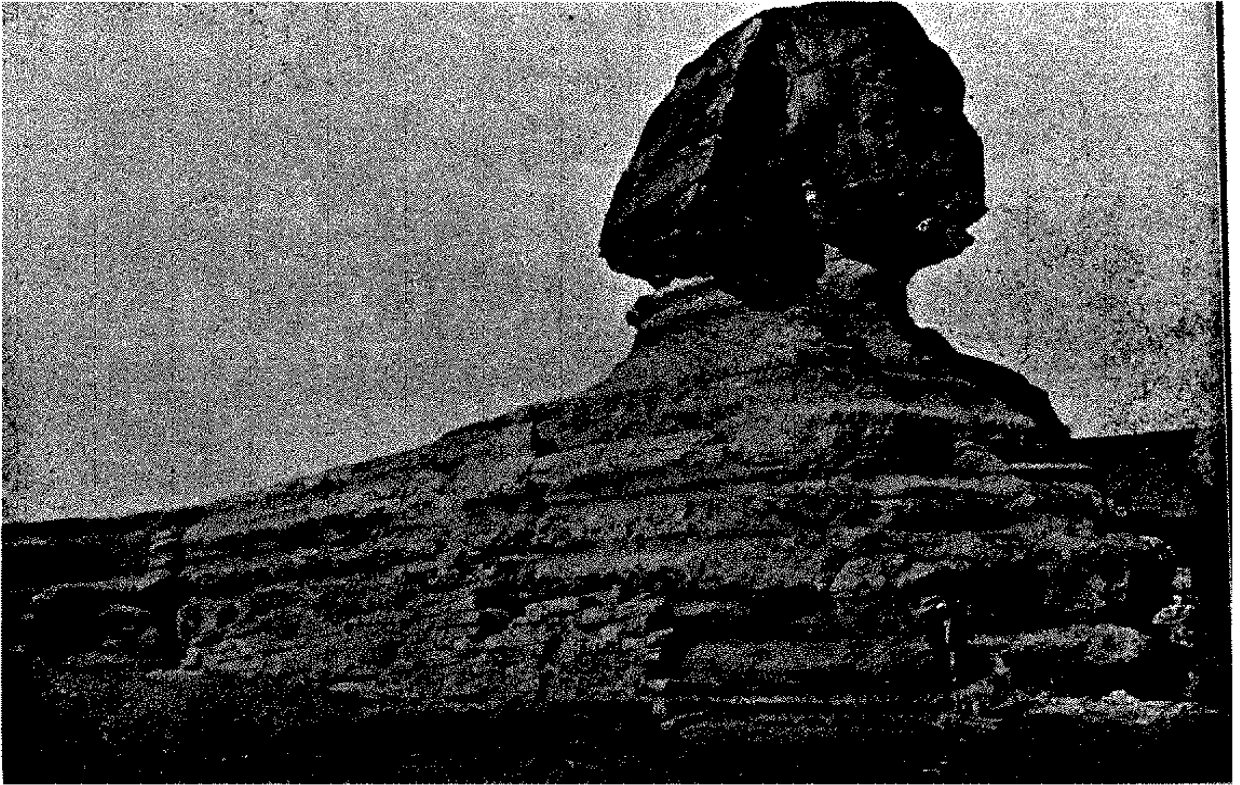
أما ارتفاع الهرم فكان وقت تشييده ١٤٥ متراً ، ثم تناقص بتهدم قمته في السنين الطوال حتى صار ١٣٧ متراً . وأما قاعدته فربعة الشكل وطول كل ضلع من أضلاعها يبلغ الآن ٢٣٣ متراً^(٢) ومسطحها يبلغ ١٢ فدائناً تقريباً

وكان القصد من بناء الاهرام ايجاد مكان حصين خفى يوضع فيه تابوت الملك بعد مماته ، ولذلك شيدوا الهرم وجعلوا فيه أسراباً خفية زلقة صعبة الولوج لضيقها وانخفاض سقفها واملاسها ، حتى لا يتسنى لأحد الوصول الى المخدع الذى به التابوت . ومن أجل ذلك أيضاً سُد مدخل الهرم بحجر هائل متحرك لا يعرف سر تحريكه إلا الكهنة والحرس ، ووُضعت أمثال هذه الأحجار على مسافات متتابعة فى الأسراب

(١) قيل ان معظمهم كان من الاسرى (٢) ألف شبر

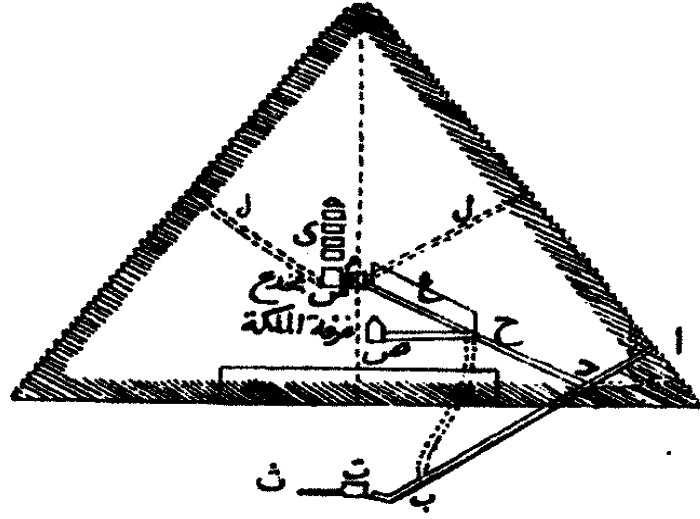


اهرام الجيزة (منظر عام)
(رسم على افدى يوسف)



ابو الهول
(رسم لكجيان)

المذكورة ، وبهذه الطريقة بقي المدخل و منافذ تلك الأسراب مجهولة أجيالاً من الزمان



(بيان الهرم الأكبر من الداخل) .

أ : المدخل - ادب : زلاقة الى أسفل ، منها اد مفرغ في بناء الهرم والباقي مفرغ في الصخر
ت : حجرة تحت الارض - ث سرب افق - د ح س زلاقة صاعدة - ع ابوان مرتفع على
بمين الزلاقة - س : دكة - م : ممر من الدكة الى مخدع الملك - ح ص : سرب افق موصل الى
الحجرة المعروفة الان بفرقة الملك - ل ، ل : ممران لدخول الهواء - ي خمس غرف صغيرة
أفرغت في البناء فوق مخدع الملك لتخفيف الثقل عن سقفه - ح ب : بئر

وجميع هذا الهرم مشيد من الحجر الجيري الصلب ، ما عدا المخدع الأكبر فانه
من الصخر المحبب (الجرانيت) . وكان يحيط بقاعدة الهرم طوار (رصيف) عرضه
يقرب من الثلاثة الأمتار ، وكان الهرم مغطى بطبقة من الصخر المحبب فوقها أخرى
من الحجر الجيري المصقول . ووُضع الملاط بين الأحجار في غاية الدقة حتى كان
الناظر إلى الهرم يكاد يظنه صخرة واحدة . ثم انكشف هذا الغطاء بعد أن كان

ساتراً لمدخل الهرم وهو عند المدمك الثامن عشر في الجانب الشمالى
ومما يلاحظ فيه أن جوانبه مواجهة للجهات الأربع الأصلية بالضبط ، وقد ذهب
بعضهم إلى أنه كان لذلك أهمية فلكية في ذلك العصر

ومع اننا لم يصلنا شيء كثير من أخبار « خوفو » وماكه الزاهر فوق بنائه لهذا
الهرم العظيم ، يسهل علينا أن ندرك مقدار نظام الحكومة ورخاء البلاد في أيامه

بالتأمل في الكيفية التي تم بها بناء الهرم ، إذ أنه ليس من السهل اطعام مائة ألف عامل وإيواؤهم وكلهم عالة على الأمة لا يفيدون ثروة نافعة ، كما أنه من الصعب تنظيم تلك الحركة الهائلة عند مقاطع الأحجار بحيث لا ينشأ عنها عطلة في البناء

وبعد أن توفي خوفو خلفه «خفرع»^{*} فشيّد هرم الجيزة الثاني ، وهو أصغر قليلاً من هرم خوفو وأقل جودة في صناعته . ومما يجدر ذكره هنا انه كان لهذا الهرم كما كان للهرم الأكبر معبد ملتصق بجانبه الشرقي ، وكان يوصل لذلك المعبد طريق مرتفع ،

خفرع والهرم
الذي شيده



(تمثال خفرع)

رسم ف . د بيرز

بدار الاثار المصرية

* معنى « خفرع » (المقتبس من نور رع*) . ولعل هذا دليل على ابتداء ظهور القوة في يد كهنة « رع* » . ويلاحظ مثل هذا الاشتقاق في كثير من أسماء الملوك من بعده في الاسرات الرابعة والخامسة والسادسة

في طرفه الأسفل بناء من المحجب ما زلنا نراه الآن بجوار أبي الهول العظيم ، وقد أطلق عليه « معبد أبي الهول » مع انه لم تثبت بعدُ علاقته بهذا التمثال
« معبد أبي الهول »
أبو الهول
أما أبو الهول ذاته فلم يُعلم صانعه بعدُ يقيناً . وإنما الأرجح انه عمل في زمن الأسرة الرابعة ، وقيل قبلها . وهو تمثال هائل حفر من الصخر الطبيعي ، وجهه وجه انسان وجسمه جسم أسد ، ارتفاعه نحو ٢٠ متراً وطوله نحو ٤٦ متراً . ولم يعلم الغرض الحقيقي من صنعه الى الآن

وبعد أن توفي « خفرع » خلفه « منقرع » مشيد هرم الجيزة الأصغر . وفي أيامه حافظت مصر على عظمتها . غير أن شوكة الملك ابتدأت تضعف قليلاً ، وزادت قوة كهنة « أون » (١) (عين شمس) واكتسبوا جانباً عظيماً من السلطة السياسية



لاحظنا أن كهنة « أون » أخذوا يستبدون بالأمر في أوائل أيام الأسرة الرابعة ، الأسرة الخامسة وبقوا كذلك نحو ١٢٠ سنة وصلوا بعدها الى درجة من القوة مكنتهم من إسقاط تلك الأسرة وتأسيس أسرة جديدة هي الخامسة . ولما كان الفضل في تأسيس هذه الأسرة راجعاً الى الكهنة كان ملوكها أضعف ممن قبلهم ، فاتهمز حكام الأقاليم ورؤساء الحكومة هذه الفرصة ، واكتسبوا لأنفسهم تولى المناصب بالوراثة . فمن ذلك أن منصب « قاضي القضاة وكبير الوزراء » بعد أن كان يُسند الى اكبر أولاد الملك سنًا أصبح حقاً خاصاً لأسرة جديدة هي أسرة « طاحتب الشهيرة » (٢) . وحدث مثل ذلك في الأقاليم أيضاً ، فإن كل حاكم كان يزداد في القوة عن سلفه

على أن هؤلاء الحكام حافظوا بالرغم من ذلك على الولاء للملكهم ، ولم يألوا جهداً في مساعدته بالنفس والنفيس على ما فيه تقدم البلاد ورفقيها . ولا غرو فان مصر في عهد هذه الأسرة حافظت على ينابيع ثروتها ، وقامت بمشروعات تجارية وحريرية

(١) يستون « كهنة اون » أو « كهنة رع »

(٢) لأحد أفرادها مقبرة بسقارة تعرف « بمقبرة طاحتب » وبدل حجمها وضخامتها على

ما كان لصاحبها من العظمة

نافعة زادت من ثروتها وكان لها أثر ظاهر في رفاقتها ونمو حضارتها . فمن ذلك أن « أُسْرَكَاف » أول ملوك هذه الأسرة مد سلطانه الى الجنادل الأولى (حوالى سنة ٢٧٥٠ ق . م) وأن خلفه « سَحُورَع » أرسل حملة بحرية الى الشواطئ الفينيقية ، وأخرى الى بلاد « بُنْت » وشواطئ خليج عدن الجنوبية ، وأخرى برية الى شبه جزيرة سيناء . ومن ذلك أيضاً أن الملك « إسيسى » أرسل حملة حوالى سنة ٢٦٨٠ ق . م لفتح محاجر وادى الحمامات ^(١) وأرسل حملة أخرى الى بلاد « بُنْت » أيضاً . ثم ان الملك « أوناس » آخر ملوك هذه الأسرة أيّد سلطانه فى الجنوب الى الجنادل الأولى حيث وُجد اسمه منقوشاً على الصخور مشفوعاً بقلب « رب البلاد » . وقد تركت هذه الأسرة مقابر عديدة على غاية من الابداع فى النقش ^(٢) بعضها بمنف وبعضها فى جهات شتى فى الوجه القبلى . وآخر أهرامها هرم « أوناس » بسقارة ، وهو منقوش من الداخل بالألوان

الاسرة
السادسة

وحافظت مصر فى أيام الأسرة السادسة أيضاً على حضارتها . غير انه فى عهدها زاد استقلال حكام الأقاليم ، فصاروا يُعرفون بالأمرء « العظام » وأصبح كل منهم يُدفن بموطنه بعد أن كانت قبورهم ملتفة حول قبر مليكهم . ومع هذا لم تنزل للملك الكلمة العليا عليهم ، بل تمكن بمساعدتهم من تنفيذ سياسة خارجية ما كانت تتم إلا بالقوة والبأس الشديد . فمن ذلك أن « ييى الأول » ثالث ملوك هذه الأسرة (٢٥٩٠ - ٢٥٧٠ ق . م) بسط نفوذه فى بلاد النوبة حتى جعلها تمد جيشه بالرجال . وقد أرسل حملة الى فلسطين وفينيقية وعدة حملات أخرى لتأديب قبائل البدو الشمالية الذين تعدوا حدود مصر الشرقية . ثم حذا حذوه ابنه « مَرْنِرَع » فتمكن بمساعدة امرء « إلفنتين » الأشداء من حفر قناة فى حجر الصوان بالقرب

(١) هنا الوادى يمتد بين قنا على النيل وبين القصير على البحر الاحمر

(٢) قارن هذه باهرام الاسرة الرابعة التى لم تتوقف عظمتها على جمال نقشها بل على ضخامة

أحجارها ودقة صنعها

من الجنادل الأولى تسهيلاً لإرسال الحملات الى بلاد النوبة . وكانت فائدة هذه البلاد لمصر قد زادت ، لاستخراج معدن الذهب منها ولكونها الطريق الموصل الى بلاد بنت والسودان ، ولذلك قام « مرزوع » بالاستكشاف عن تلك الجهات بنفسه ، فوفد اليه كثير من رؤسائها لتقديم الطاعة

وفي عهد « بيبي الثاني » (٢٥٦٦ - ٢٤٧٦ ق . م) الذي حكم البلاد نيحاً وتسعين سنة (وهو أطول زمن تولاه ملك في التاريخ) استمر ارسال الحملات الى داخل إفريقية وخصوصاً ما كان منها بقيادة « حَرْخُوف » أمير « الإِثْنَتَيْن » ذلك الذي منحه الملك لقب « حاكم البلاد الأجنبية » . وفي هذا العهد بسطت مصر بعض السيادة على بلاد النوبة ، وكشفت جهات الجنادل العليا ، فكان ذلك تمهيداً لطريق الاستيلاء التام على بلاد النوبة فيما بعد . ولبثت الغزوات تتوالى طول هذا العهد على بلاد « بُنت » وتعود الى مصر بكثير من الخيرات

ولما توفي « بيبي الثاني » تولى الملك من بعده عدة ملوك حكموا مدداً قصيرة ، وتاريخهم غامض . وكانت قوة الملك في أيامهم قد بلغت منزلة من الضعف أصبح فيها عاجزاً عن ضبط ولاته ، ولم تلبث الأسرة السادسة أن انقضت واستقلت الأقاليم المصرية بتدبير شؤونها بنفسها ، فبعد أن كانت البلاد في قبضة ملك واحد أصبح يحكمها عدد من الأمراء يتنازعون الأمر فيما بينهم . ف وقعت مصر في مثل تلك الفوضى التي أنقذها منها « مينا » بعد أن قضت في مجبوحة المجد نحو ألف سنة

وقد كان العصر الأخير من أيام الأسرة السادسة مظلماً جداً ، لم يبلغنا شيء واضح من أخباره . ويفهم مما تقدم أنه كان عصر حروب وفتن داخلية طويلة نشأت من عظم نفوذ الأشراف وانتهت بسقوط الأسرة السادسة التي تُعدّ في الحقيقة آخر الدولة القديمة . ومن ملوك هذه الأسرة الملكة « نيتوكريس » التي أتمت هرم الجيزة الثالث ، وتحكى عنها أقاصيص كثيرة لم يثبتها الاستكشاف بعد . ثم حكمت مصر الأسرة السابعة ثم الثامنة ، ولم يصلنا من أخبارهم سوى أسماء ملوكهم

فصل الخامس

الدولة الوسطى

﴿ العهد الإقطاعي ﴾

(٢١٦٠ - ١٧٨٨ ق م .)

قضت على الدولة القديمة الفتن الداخلية التي ابتدأت في أواخر الأسرة السادسة .
وبقاء الأسرة الثامنة انتهت تلك المدة الطويلة التي كانت فيها منف مقراً للحكومة ،
وذلك أن الأشراف والأمراء الذين كانوا يقيمون في أقاليم مصر المختلفة أخذت
قوتهم في الازدياد ، الى أن أفضى أمر أسرة منهم الى التغلب على ملوك الأسرة
الثامنة الضعفاء ، فنزعوا منهم الملك وجعلوا مقره في « هيرقلوبوليس » جنوبي الفيوم ،
وهي المدينة التي نشئوا فيها . وبذلك ابتدأت « الأسرتان التاسعة والعاشر » .

الاسرتان

التاسعة والعاشر
أما مؤسس هاتين الأسرتين فهو « خيتي الأول » أو (أختويس) ، ولكن ملوكهما
كانوا ضعفاء ولم يتركوا وراءهم أى آثار باقية تخلد ذكرهم . ولبثت سطوة أمراء
النواحي في أيامهم على أسديها . وهم في ذلك فريقان : فريق حانق على الملوك
تدبير العداوة لهم ، وفريق مزداف اليهم مظاهرهم على عدوهم ، ومن هؤلاء امراء
أسيوط ، فانهم كانوا مقرّبين جداً من بيت الملك وكثيراً ما أفادوا الملك بحماية الحدود
الجنوبية ، وقد عين أحدهم قائداً حربياً لمصر الوسطى

وفي ذلك الوقت كانت إحدى الأسرات الأخرى من أمراء الجنوب آخذة في
النهوض ، وهم أمراء « طيبة » بالقرب من مدينة « الاقصر » الحالية ، فما زال يشتد
أزهم حتى أعلنوا استقلالهم ، ثم أسسوا الأسرة « الحادية عشرة » التي أخذت في

الاسرة

الحادية عشرة

توسيع نطاق ملكها زاحفة من الجنوب الى الشمال حتى خضعت لها البلاد بأجمعها
أما ملوك هذه الأسرة فكان بعضهم يسمى باسم (أنتف) وبعضهم يُدعى
« مِتُّوْحْتِب » . ومما يؤثّر عن آخرهم وهو « سِنِخْرَعُ مِتُّوْحْتِب » أنه أرسل حملة
الى بلاد « بُت » عن طريق البحر الأحمر

وانقضت أيام هذه الأسرة حوالي سنة ٢٠٠٠ ق . م ولم يترك ملوكها وراءهم من
الآثار إلا قليلاً ، ومعظمه لم يدم الى زماننا . وأهم ما يُعرف عنها أنها نقلت مقر
الحكومة من شمالى مصر الى جنوبيها (فى طيبة) . ومهدت الطريق لبلوغ مدينة
طيبة تلك الدرجة المشهورة فى الرقى والحضارة مما جعلها الآن أغنى مدينة قديمة
بالآثار فى جميع أنحاء المعمورة

انتقال
مقر الحكومة
الى طيبة

أسس « امنمخمت الأول » * الأسرة الثانية عشرة بعد حروب طويلة . وكان
عند ابتداء حكمه قد بلغ امراء الأقاليم مبالغاً عظيماً من الثروة والسلطان ، وصارت
لهم قوّة يُخشى بأسها لا يمكن للملك قهرها بالشدة والعنف . وأدرك ذلك « امنمخمت »
فخادعهم بالهدايا النفيسة ووعدهم الوعود الجميلة ، وبهذه الوسيلة استخدمهم فى فتح
الفتوح وتنظيم البلاد

وقبل ان ندخل فى الكلام على تاريخ الأسرة الثانية عشرة التى كان عصرها
من أزهى العصور المصرية نذكر شيئاً عن الحالة العامة لمصر فى تلك المدة التى ابتدأت
بظهور شوكة هؤلاء الأمراء وانتهت بانتهاؤها ، وهى ما يسمى بالعهد الإقطاعى

* مجمل حالة مصر فى العهد الإقطاعى *

كانت مصر فى هذه المدة مقسمة الى أقسام أو ولايات صغيرة يحكم كلاً منها
أمير ، وهؤلاء الأمراء لم يتولوا مناصبهم بأمر الملك بل بطريق الوراثة عن آبائهم ،

* ويسمى أيضا « أمنمخات »

فلم يُعتَبَرُوا من أرباب الوظائف في سلطانه بحالة ما . غير أن جميعهم كانوا يشعرون بواجب الولاء لفرعون مصر وعزيزها ، ينصرونه اذا حارب ، ويمدون به بالرجال والمال اذا كان في حاجة اليهما

ولما مضت عليهم الأجيال الطويلة وهم سائرون على هذا النظام قويت شوكتهم وأصبح الواحد منهم في ولايته فرعوناً صغيراً في نفسه ، له من رجال البلاط وأمناء الخرائن وقضاة المحاكم وعملة الدواوين وكتّابها أمثال من لفرعون مصر الأكبر ، وكان كل أمير منهم مسئولاً أمام ضميره عن مصالح قومه ، وقصارى أمره أن يترك بعده الذكر الحسن فيهم

ولم تكن جميع الأراضي التي يحكمها كل أمير من الأمراء ما كماً خالصاً له يرثها عن سلفه ويورثها خلفه ، بل كان منها اجزاء يهبها للملك الأكبر طعممة لهم يحكمونها طول حياتهم . وهذه الأراضي كان يهبها اليهم على هيئة «إقطاعات» تعطى لهم عند وفاة سلفهم ، ولهذا سُمِّي ذلك العصر بعهد الإقطاعات أو «العهد الإقطاعي»

وهذه هي الوسيلة التي بها استطاع الملك أن يكون له بعض النفوذ عليهم وان يكون له في إماراتهم من الوكلاء والسفراء من يوقفونهُ على أحوال أمته حتى يتبها له ضبط ملكه والنظر في مصالح بلاده ، غير أن سلطة هؤلاء الوكلاء والسفراء لم تخرج عن حد المراقبة ، فكان الأمراء هم الذين يرسلون بأنفسهم ما يأخذه الملك من ريع البلاد وخراجها ، وكانت هذه العلاقة بينهم وبين بيت المال أكبر رابطة تربطهم بالملك وتربط أنحاء البلاد بعضها ببعض

ولم يرَ ملوك مصر إزاء هذه الحالة بُدأ من ان يحيطوا أنفسهم بالحرس والأعوان لحمايتهم ولحفظ شوكتهم وتنفيذ رغباتهم ، فكان ذلك مبدأ اعداد الجيوش القائمة في مصر

وكان للأمراء رجال من هذا القبيل يقودونهم الى ساحة القتال فينضمون الى رجال الملك اذا استمدهم في حروبه

مبدأ اعداد
الجيوش القائمة
بمصر

الطبقة الوسطى أما الطبقة الوسطى من الأمة فكانت في هذه العصور رائجة السوق كثيرة العدد لكثرة الحاجة اليهم ، وذلك لنموّ قوّة الأمراء في أنحاء البلاد وازدياد حاجاتهم المكلمة لمعيشة الترف والأبهة . فزاد بذلك عدد النفاّشين والحفّارين والنجّارين وغيرهم من أصحاب الحِرَف الدقيقة ، كما زاد عدد التجّار والموظفين . ومما امتاز به أهل هذه الطبقة على أفراد الطبقة السفلى معرفتهم بالقراءة والكتابة . ومن ابتداء ذلك الوقت نجد للكاتب أهمية كبيرة . فتراه يفتخر بعلمه ويفضل مهنته على غيرها

الطبقة الاخيرة وأما طبقة العامة والدهماء من ألوف الألوف المشتغلين بالحرف الصغيرة وبزراعة الأرض التي هي أساس ثروة البلاد فكانوا أميين محقرين ، والظاهر أنهم كانوا موالى للأمير الحاكم في الإمارة التي يعيشون فيها ، وأن معظم ما يُفقدونه كان لحاجة الأمير وحاشيته ، وانهم لم يتجرؤا بشئ في الأسواق إلاّ القليل

وهذا النظام بما فيه من علاقة طبقات الأمة بعضها ببعض يشبه النظام الذي ساد في أوربا في النرون الوسطى ، ولذلك سمي كل منهما بالنظام الإقطاعي

الشبه بين النظام الإقطاعي في الدولة الوسطى المصرية ومثله في القرون الوسطى بأوربا

الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٧٨٨ ق م)

ان عصر هذه الأسرة هو أزهى عصور الدولة الوسطى ، فكانت فيه البلاد في أعلى درجات الرخاء والسعادة ، وفيه أحييت العلوم والفنون ، واتسعت أملاك مصر في وادى النيل ، وتقدمت الزراعة وتسيدت العمارات . ومؤسس هذه الأسرة هو « أمنمخمت الأول » (٢٠٠٠ - ١٩٧٠ ق م) . وقد تغلب على المصاعب الكبيرة التي لاقاها في اصلاح البلاد وتنظيمها بعد أن عبثت بها يد الفتن والحروب الداخلية . وباستيلائه على عرش مصر نقل مقر حكومته من طيبة الى جهة متوسطة بالقرب من « اللّشت » على بعد ٢٥ ميلاً من جنوبي منف . وقد ترك وراءه من الآثار في جميع أنحاء مصر ما يشهد له بالجدّ والسعي وراء مصلحة بلاده . ومن أعماله

أمنمخمت الاول

استخراج المعادن من المناجم الممتدة في الصحراء الى شبه جزيرة سيناء وقطع الأحجار من المحاجر العديدة ولا سيما ما كان واقعاً منها بجهة « الحمامات » . وأرسل حملة الى بلاد النوبة فأخضعت بلاد « الواوات »^(١) الى كرسكو ، حيث كان يوجد الذهب بكثرة . وبعد أن حكم البلاد وحده عشرين عاماً أشرك ابنه « أسرتسن الأول » في الملك بقصد تدريبه على ادارة شؤون البلاد . ولما طعن أسرتسن الاول امنمحت في السن وشعر بقرب منيته قدم لابنه « اسرتسن » مجموعة نصائح مفيدة أوصاه فيها بالعناية برعيته ، وحذره ممن يلتفون حوله من كافري النعمة ذاكراً له ما جرى له : من أن جماعة من خدم قصره حاولوا قتله لولا أن كشف أمرهم وتوفي امنمحت الأول بعد أن حكم ثلاثين عاماً ، فخلفه ابنه « اسرتسن الأول » (١٩٨٠ - ١٩٣٥ ق . م) بعد أن تدرّب على الملك عشر سنين كان في أثنائها شريكاً عاملاً لأبيه وقاد فيها الجيوش بنفسه لتأديب اللوبيين واخضاع النوبة . واستهر منذ صغره بالشجاعة والقوة . وبعد وفاة والده قام بأمر الملك خير قيام وحفظ عظمة الأسرة أثناء حكمه الطويل الذي دام خمساً وأربعين سنة^(٢) . ومن أشهر آثاره الخلفة مسلة عين شمس التي ما زالت بتلك الجهة الى الآن . وبدأ أيضاً مشروع خزان بحيرة موريس ، وسنشرحه عند الكلام على « امنمحت الثالث » الذي تمّ على يديه . ومن أعماله أيضاً أنه بنى معبداً بجهة وادي حلفا ودوّن على بلاطة فيه انتصاراته على قبائل النوبة . ومن الأمراء المقربين منه « أميني » ذلك الذي له مقبرة جميلة بجهة بني حسن . وقد وجد هرمه وهرم أبيه بجهة « اللّشت »

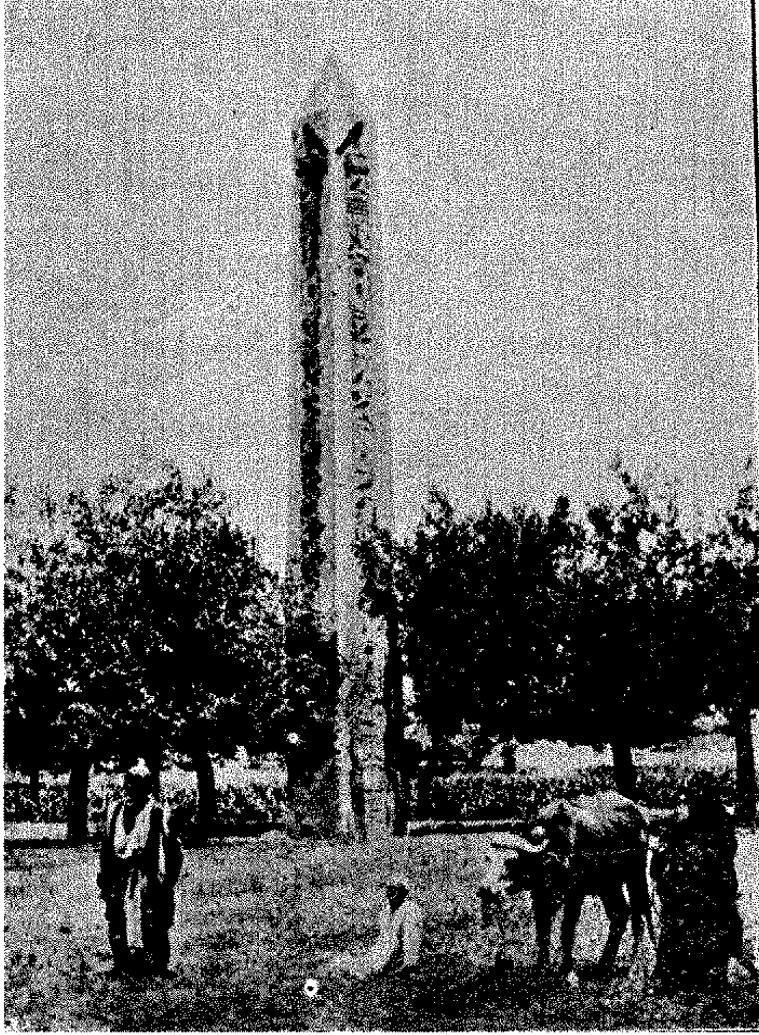
مسلة
عين شمس

ثم تولى الملك « امنمحت الثاني » (١٩٣٥ - ١٩٠٣ ق . م) فبنى ثمار فتوح سلفه وحكم البلاد في هدوء وسكينة ، وعند وفاته دُفن بهرمه بدمشور وتبعه « أسرتسن الثاني » ، وله هرم بجهة اللّاهون « بالفيوم . وقد عُثِر في هذا

(١) شمال النوبة

(٢) في ذلك عشر السنوات التي حكمها مع أبيه

المهرم قريباً على بعض حُلَى من أجل ما وصل اليها من صنع العالم القديم



(مَسَاة عين شمس)

وبعد « أُسرتسن الثاني » تولى « أُسرتسن الثالث » (١٨٨٧ - ١٨٤٩ ق . م) وكان شديد البأس مولعاً بالحروب . غزا بعض جهات سورية ، وأتمَّ الحروب في بلاد النوبة ، فمدَّ الحدود المصرية الى ما وراء الجنادل الثانية وشيّد لحمايتها قلعتين بنقطتي « سَمْنَة » و « فَعْمَة » (خُمَّة) وأمر السودان بالألّا يتجاوزوا ذلك الحد بزراً أو بحراً ما لم يكن ذلك بقصد التجارة ، وفي هذه الحالة كانوا يعاملون بالحسنى . ومن أعماله انه لوقوف الجنادل عقبه في سبيل المِلاحة حفر في صخرها المحجب مجرى تعبّره السفن

الكبيرة ، فتيسر بذلك مجاوزة السفن الى ما وراء الجنادل الأولى . ومن أعماله أيضاً أنه وصل النيل والبحر الأحمر بخليج يُعرف بخليج « سيزُوستريس »^(١) وقد كانت أيامه من أزهى عصور اللغة المصرية القديمة . وفي عهده أخذت شوكة الأشراف في الاضمحلال . أما هرم هذا الملك فبجهة دهشور ، وقد وجدت بالقرب منه حلى بديعة لبعض أميرات أسرته

وبعد أن توفي خلفه « امنمحت الثالث » (١٨٤٩ - ١٨٠١ ق . م) وقد امنمحت الثالث خلفه ذكره في التاريخ بأعماله السلمية المفيدة . وفي أيامه بلغت الدولة الوسطى أقصى درجات مجدها . وكادت تفتى في عهده قوة الأشراف بعد أن أخذت في الاضمحلال في أيام سافه . وقد تمت على يديه عدة مشروعات سلمية زادت كثيراً في ثروة البلاد ، ففي أيامه نُظمت مناجم سينا وصارت ينبوعاً مستمراً للثروة ، وأنشئ بجهة « سيمنة » مقياس للنيل ينبيء عن حال الفيضان فتجبي الضرائب بمقتضاه

أدرك امنمحت الثالث توقف فلاح مصر على جودة ربها ، فقام بمشروع عظيم لخزن مياه الفيضان حتى يُنتفع بها في أوقات هبوط النيل . وذلك أنه لما رأى انخفاض اقليم الفيوم عن سطح النيل وأن مياه الفيضان تغمره كل عام فتقلبه الى بحيرة عظيمة ، أقام حول جزء منه سوراً عظيماً ، فصار هذا الجزء بمثابة خزان كبير ، ترد اليه المياه وقت ارتفاع النيل بواسطة ترعة^(٢) وتخرج منه أيام انخفاضه بترعة أخرى فتروى أراضي الوجه البحري^(٣) . وبهذه الطريقة أيضاً انحسرت مياه النيل عن كثير من البقاع التي كان يغمرها الفيضان في الفيوم كل عام ، فأصبحت صالحة للزراعة . ومن ذلك العهد صارت الفيوم مقراً للملك هذه الأسرة . وقد أدرك بعض من سبقه من

(١) هذا أيضاً من الاسماء التي اطلقت على « أسرتسن » . وقد أطلق أيضاً على رمسيس الأكبر

(٢) هذا الخزان هو المعروف ببخيرة موريس والترعة هي المسماة الآن بحجر يوسف

(٣) دلت الاحصاءات الحديثة على ان المياه التي كانت تخزن بهذه الطريقة تكفي لجمال مياه

النيل في المائة اليوم الاوائل من انخفاضه مثلى ما تكون عليه بدونها

ملوك الأسرة الثانية عشرة ثمرة هذا المشروع ، ولكن الفضل الأكبر في انجازه راجع الى هذا الملك العظيم الذي كان من صغره مولعاً بمراقبة مدّ النيل ورصده

قصر لابرن

وقد شيّد أمنمحت على شاطئ الترعَة التي ترد منها المياه الى الخزان ذلك البناء العجيب المسمى « لابرنْت » الذي اشتهر في قديم الزمان ببداعته ، ولم يبقَ منه الآن إلاّ بعض أحجار بالقرب من هرم اللاهون . على أن « هيرودوت » المؤرخ اليوناني قال عنه : انه يحتوي على ثلاثة آلاف محل ما بين حجرة ورذْهة ، نصفها تحت الأرض والنصف الآخر فوقها ، عدا ثمانى ساحات مسقفة متقابلة الأبواب . والظاهر أنه كان مقرّاً للحكومة تُدار منه جميع البلاد

وفي عهد امنمحت أيضاً نظّمت التجارة ووُضعت وحدة مشتركة لقياس قيمة ما يشرى وما يباع ، وهي عبارة عن وزن خاص من النحاس وكانت تسمى « دِين » . وباختصار كانت أيامه أيام سعادة ورخاء في جميع أنحاء البلاد . وبوفاته دُفن بهرمه بدَهشور ، وكانَ حظ مصر قد دُفن معه

فحكم من بعده « امنمحت الرابع » ثم الملكة « سِبْكَنْفَرُورَع » ولكن مدتهما كانت قصيرة ، وأخذت فيها البلاد تنهقر تنهقرأ سريعاً حتى انتهت أيام الأسرة الثانية عشرة بعد أن استمرّت نحو ٢١٣ سنة

✽ اضمحلال الدولة الوسطى ✽

أتى بعد أيام الأسرة الثانية عشرة عصر مظلم جداً امتدَّ الى ظهور الدولة الحديثة . ومعظم ما نعرفه عن هذا العصر مستمد من القصص الدينية ومن الفروض التي لم تثبت للآن

جلس أوّل ملوك الأسرة الثالثة عشرة على عرش مصر بدون فتن واضطراب ، ولكنه فُصل عن عرشه بعد أن حكم خمس سنوات فقط ، فتبع ذلك عصر شقاق

الاسرة
الثالثة عشرة

وقتن بين أمراء الأقاليم الذين كان يحارب بعضهم بعضاً في التنازع على تولى الملك . وقد يتغلب أحدهم على غيره ويقبض على صولجان الملك فلا يلبث أن يظهر عليه آخر فيغلبه على أمره . نعم قد حكم بعضهم زمناً طويلاً ، ولكن معظمهم لم تزد مدة أحدهم على عام أو عامين ، ومنهم من حكم مدة ثلاثة أيام فقط . ولم يترك ملوك هذا العهد شيئاً من الآثار يُذكر بسبب اشتغالهم بالحروب ، ولذلك لم تقف على كثير من أعمالهم . ولما كانت البلاد على هذه الحال من الشقاق والانتقام كان من السهل أن تقع غنيمة باردة في أيدي الفاتحين من الأجانب ، ففي أواخر أيام الأسرة الثالثة عشرة (حوالي ١٦٧٥ ق . م) ابتدأت اغارة قوم فاتحين من آسيا لم يعلم للآن أصل منشئهم يقيناً ، وهؤلاء الفاتحون هم الذين يُعرفون الآن « بالهيكسوس » أو « ملوك الرعاة » * فارة الرعاة ومما قيل في اطلاق هذا الاسم عليهم ان المصريين لما تغابوا عليهم في آخر الأمر وطردوهم الى بلادهم كانوا يذكرونهم بالاحتقار والازدراء ، فلقبوهم « بالأجناس البربرية » و « بالكفرة » و « بالرعاة » أي الذين يرعون الغنم . وأرجح ما قيل في أصلهم انهم قوم نشثوا من اختلاط العرب بالفينيقيين ، وربما كانوا من قبائل البدو المحالفين للملك قادش (وهؤلاء الملوك هم الذين قاوموا « تُحْتَمَس الثالث » أشد مقاومة عند توسيعه نطاق الأملاك المصرية كما سيأتى بيانه في الكلام على الدولة الحديثة)

وتلخص الأسباب التي سهلت دخول الهكسوس مصر فيما يأتي :

(١) عدم السير على نظام ثابت في الري مما دعا دوام المشاحنة بين الأشراف

(٢) كثرة الضرائب الباهظة (٣) شدة استبداد الأحزاب المختلفة وظلمهم

ولما دخل الهكسوس مصر أسسوا بلدة لهم بالوجه البحري تدعى « أو اريس » (هوارة) لا يُعلم مكانها بعد باليقين ، وجعلوها مقراً لحكمهم ، ولما انقرضت الأسرة الثالثة عشرة وخلفتها الأسرة الرابعة عشرة كان ملوكها مصريين كذلك ، وكان مقر

* وهم الذين يسمون في كتب العرب بالمخالقة . وقيل ان كلمة « هكسوس » لا يقصد بها « رعاة » وأن اطلاق هذا الاسم عليهم من باب الخطأ

حكومتهم مدينة « إكسويس » (سخا) بالوجه البحرى أيضاً . غير أنهم كانوا أشبه بولاية للهكسوس

وما زال نفوذ الهكسوس يزداد عاماً فعاماً حتى أخضعوا جميع البلاد فدفت لهم الجزية

ولما اتقضت الأسرة الرابعة عشرة قبضوا على زمام الملك . ولذلك اعتبرت الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة في تاريخ مصر من هؤلاء الملوك الرعاة وكانوا في أول أمرهم ظالمين كثيرى الاعتداء على المصريين ، ولكنهم عدلوا عن ذلك فيما بعد وتطبعوا بكثير من الطباع المصرية ، وشيدوا كثيراً من المعابد والمباني ، واتخذوا لهم معبوداً جمع بين معبودهم الأصلي وأحد آلهة المصريين

ولو وصلت إلينا الآثار التى تركوها أو النقوش التى عليها عرفنا كثيراً من أخبارهم . ولكن المصريين بعد أن طردوهم من البلاد عبثوا بمعابدهم وعفّوا آثارهم ، وكل أثر لم يحجوه أزالوا منه النقوش والمعالم التى تدل على أنه للهكسوس

ويقال ان قدوم سيدنا يوسف عليه السلام الى مصر وحدث ما حدث له كان فى عهد الأسرة السادسة عشرة

وعلى توالى الأيام أخذ ملوك الهكسوس فى الاضمحلال . وفى زمن الأسرة السابعة عشرة انقسمت مصر الى عدة ولايات صغيرة كانت « طيبة » أهمها . فاتهمز أمراء طيبة هذه الفرصة وشقوا عصا الطاعة على الهكسوس ، وما زال المصريون يجاربونهم حتى طردوهم من مصر ، وبذا تكوّنت الأسرة الثامنة عشرة وهى مبدأ الدولة الحديثة

وقد كان لدخول الهكسوس فى مصر وبقائهم فيها مدة تأثير كبير فى المصريين فلهكسوس هم الذين أدخلوا الخيل فى مصر ، ومنهم تعلم المصريون الفنون الحربية وتعبئة الجيوش الجرارة . فهما نال المصريين من مظالمهم فقد اكتسبوا منهم مزايا لا تحصى

الامرتان
الخامسة عشرة
والسادسة عشرة
من الهكسوس

إفصاح الساذبين

الدولة الحديثة

(١٥٨٠ - ١١٥٠ ق م)

﴿ امتداد سلطة مصر على غيرها من البلدان ﴾

تعميد
تعلم المصريون فن الحرب أثناء مكابحتهم للهكسوس ، قهيات بذلك مصر للدخول في طور حربي عظيم وسعت فيه أملاكها ومدت نفوذها على كثير من الممالك المجاورة لها ، وبلغ هذا المجد أقصاه في عهد « تَحْتَمُس الثالث » و « أَمِنْخَتَب الثالث » من ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، غير أنه في أواخر أيام هذه الأسرة تولى الملك رجل ضعيف السياسة ، تلهى بالمباحث الدينية عن شؤون الدولة فلحقها الضعف من كل جانب ، لولا أن أتاح الله لها رجالاً أتداء في الأسرة التاسعة عشرة أتقذوها من هذا السقوط ، ولكن بعد أيام رمسيس الثاني انقضى ذلك الدور أيضاً ودخلت مصر في دور اضمحلال مستمر ، وقد استفحل هذا الخطب بنهوض الأمم المجاورة لها من جهة ، وحمود الروح الحربية من المصريين من جهة أخرى

﴿ الأسرة الثامنة عشرة ﴾

(١٥٨٠ - ١٣٥٠ ق م)

يظهر أن الأسرة الثامنة عشرة كانت لها قرابة بالسابعة عشرة . وأول غرض رمى إليه ملوكها استئصال شأفة الهكسوس ، فقام « أخميس » (أَحَمَمِيس) مؤسس هذه الأسرة وغزاهم في عاصمتهم أواريس وطردهم منها ، ثم اقتفى أثرهم وغزاهم ثانية تاريخ (٥)

في « شاروهين » بالجنوب الغربي من فلسطين فاقتحتها بعد حصار دام ثلاث سنوات . وقد قام هذا الملك أيضاً بحروب في الشام وأخرى ببلاد النوبة ، ذلك الى الحروب التي انتصر فيها على الأمراء الوطنيين الذين حاولوا أن ينازعوه في السلطة ، والحقيقة أنه أفنى معظمهم فلم يبق منهم إلا أعوانه المخلصون ، مثل أمير «الكاب» . وباستيلائه على الملك صارت جميع الأراضي ملكاً خاصاً للملك

أما الملك الذي خلفه فهو « أمنحَتب الأول » وله غزوات بالشام والنوبة . وفي سنة ١٥٤٠ ق . م خلفه « تحتمس الأول » (طوطميس الأول) . وقد انتصر تحتمس عدة مرات في حروبه التي سنّها على الشام وبلاد النوبة وأرض الجزيرة (ما بين النهرين) . وفي هذا الوقت كان قد مضى على مصر نحو ثلاثين سنة لم يحدث فيها اضطراب أو فتن داخلية ، فصار للحكومة من القوة والثروة ما يؤهلها للدخول في ذلك الطور الحربي العظيم الذي تهيأت لها فيه تلك الفتوح الكبرى الآتى ذكرها بعد . وقد ساعدها على ذلك استقلال الملك بالأمر وإضعافه ما كان للأمر من النفوذ والعظمة في أيام العهد الإقطاعي

تحتمس الاول
وفتوحاته

بدأ « تحتمس » بإخضاع بلاد الكوش (النوبة) فأدخلها في طاعته ؛ وكانت هذه البلاد تمتد من « نباتا » بالقرب من الجنادل الرابعة (الشلال الرابع) جنوباً الى مدينة « الكاب » شمالاً ثم صرف عزمه الى الشام فغزاهها ، وساق جيوشه حتى أوردتها نهر « الفرات » حيث نقش تذكراً لهذا الحادث . ولم يصلنا شيء كثير من أخبار هذه الحروب المكلفة بالظفر ، وإنما الراجح أن نفقاتها لم تكن باهظة ، وأن المصريين كانوا يعودون منها بالأسرى والغنائم الكثيرة ، فيزيدون في ثروة البلاد ووجه « تحتمس » شيئاً من عنايته أيضاً الى المباني ، فزاد كثيراً في معبد « الكرنك » . وعند وفاته دُفن بوادي مقابر الملوك بطيبة الذي يعرف الآن

* ما يسمى الآن « معبد الكرنك » هو عبارة عن بناء هائل بجهة قرية الكرنك شيبت اجزاؤه على عدة دفعات ، وكان المعبد الاصلى في أول الامر صغيراً وأسس بمدينة « طيبة » في عصورها الاولى

« ببيان الملوك » ؛ فكان هو الأول لعدد عظيم من الفراعنة الذين دُفِنوا بهذه البقعة
وفي أواخر أيامه حدث تنازع بشأن العرش ، فجلس عليه ابنه « تحتمس الثاني »
مدة وجيزة لم يكن له فيها أثر يذكر . ثم آل الملك الى بنته (بنت تحتمس الأول)
« حَتَشِبْسُوت » (حاتاسو) بالاشتراك مع « تحتمس الثالث »

الملكة
حتشبسوت

وكانت « حتشبسوت » على جانب كبير من قوّة البأس ، فإلّبت أن استأثرت
بالسلطة وسلبت من « تحتمس الثالث » كل أمر . وساعدها على ذلك صغر سنّه ،
فخضع لها كما خضعت لها مصر بأسرها . وقد أظهرت أثناء حكمها غروراً عظيماً وتبهاً
متناهياً ، وتزيّت بزىّ الرجال

وكان جلّ مقاصد هذه الملكة موجهاً للأعمال السلمية ، فأكثرت من تشييد
المباني ونقشها وتدوين أخبارها ودعاويها العريضة عليها . وأهم ما شيدته معبد
« الدير البحرى » الفاخر بجهة طيبة على الجانب الغربى للنيل ، وزادت جزءاً فى
معبد الكرنك ، وأقامت مسلتين عظيمتين عند مدخله

ومما يؤثر عنها أنها أرسلت بعثة بحرية الى بلاد « بُنت » لإحضار أشجار منها
لغرسها بمعبدها المذكور ، فنجحت البعثة فى الوجه الذى خرجت له وعادت بالأشجار
المطلوبة وغيرها من نفائس تلك البلاد

وبوفاتها قبض تحتمس الثالث على الملك بعد أن مضى عليه منذ تتويجه نحو
اثنين وعشرين سنة خاملأ فيها . وعند ذلك ظهرت مواهبه العظيمة وما عنده من
قوّة البأس والثبات والإقدام والمهارة الحربية التى جماعته فى عداد كبار الفاتحين فى
العالم القديم

﴿ حروب تحتمس الثالث ﴾

(١٤٤٧ - ١٤٧٩)

كان ببلاد الشام في تلك المدة عدة ولايات صغيرة غربي سورية ، وكانت خاضعة لنفوذ المصريين ، ولكن لما مضى على ملوكها زمن طويل لم يروا فيه الجيوش المصرية في بلادهم تكبح جماحهم وتؤديهم على ما كان يقع منهم من التمرد ، شقوا عصا الطاعة جملةً على المصريين بعد وفاة « حتشبسوت » ، وكان ملك « قادش » زعيم هذه الحركة . فخرج « تحتمس » من مصر في أواخر السنة الثانية والعشرين من تتويجه قائداً لجيش عزم نزل به بعد نحو عشرين يوماً على السفح الجنوبي لجبال « الكرمل » . وقد كانت جيوش الأعداء المتحدة قد سارت نحو الجنوب يقودها ملك « قادش » ، حتى عسكرت في « مجدو » ، وهي مدينة منيعة في السفح الشمالي من جبال « الكرمل » . فسارت تحتمس نحو العدو ، وأقسم أن يكون هو في طليعة الجيش ، فحمل به على الأعداء ظاهر المدينة ، فولوا مذعورين اليها تاركين معظم النفائس التي بمعسكر ملك « قادش » غنيمة باردة للمصريين

موقعة مجدو

ثم حاصر تحتمس مدينة « مجدو » المذكورة ، فسلمت اليه بعد بضعة أسابيع . أما الغنائم التي أخذت من المدينة وكانت أغز وأغز من التي أخذت خارجاً . ثم اتجه نحو الشمال ففتح ثلاث مدن في السفح الجنوبي لجبل لبنان وبني حصناً في تلك الجهة ليأمن به شر ملك قادش اذا زحف ثانية نحو الجنوب . ثم بدأ بتنظيم هذا الأقليم الذي فتحه ، فعزل ملوك الأسرات القديمة مخافة أن يعاودوا الخروج عليه ، ونصّب مكانهم آخرين

ثم عاد الى مصر بعد أن غاب عنها أقل من ستة شهور ، فكان لعودته أكبر

(٥) من هذه الغنائم سرادق ملك قادش الفخم و ٩٢٤ مجلة حرية فيها مجلتا ملك قادش وملك مجدو و ٢٢٣٨ حواداً و ٢٠٠ درع فيها درعا هذين الملكين

سرور فيها ، وأقيمت الحفلات العظيمة ، وقُرِّبت القرابين للمعبود أمون * شكراً



له وإتهاجاً بهذا الفتح الباهر . ثم أعاد الكرة على هذه البلاد فقمع ثوارها .

وقد طار صيته وذاع نبأ فتوحه الأولى حتى وصل الى مدينة بابل . وكانت قد

ابتدأت تأخذ في الظهور ، فرأى ملكها ان أحسن سياسة يتبعها أن يتودد

لفرعون ، فأهدى إليه الأحجار الكريمة الفاخرة وأرسل إليه الجياد البابلية

المطهَّمة ، فوصلت إليه وهو في ميدان القتال . ثم رجع تحتمس الى مصر وشرع

في التخطيط اللازم لتوسيع معبد الكرنك ، حتى يصير ملائماً لحال الدولة العظيمة

التي يرغب في تكوينها

. تحتمس الثالث

(بدار الانار المصرية)

رسم ف . د . د . بيريز

وفي السنة الخامسة والعشرين من

غزو أرواد

حكاه غزا بلاد سوريا غزوة ثالثة ، ثم غزاها رابعة . وكانت أهم أعماله فيها تنميم

إخضاع البلاد التي فتحها وتنظيمها . ثم أوغل في الغزوة الخامسة ، ففتح « أرواد »

وغيرها من المدن الفينيقية ، وغنم منها ذخائر كثيرة

فتح قادش

وفي الغزوة السادسة حاصر « قادش » . ولمنعة موقعا لم تسلم له إلا بعد حصار

طويل ، وكان طول مدة الحصار قد غرر بأهل مدينة « أرواد » وما جاورها ،

فظنوا ان قوة فرعون قد اضمحلت ، فشقوا عصا الطاعة . ولكن « تحتمس » ذهب

اليهم في السنة التالية ، وأدبهم وأخذ الجزية من جميع بلاد الشام

(*) راجع ديانة قدماء المصريين

وكان « تحتمس » طول هذه المدة يتأهب لغزو « بلاد النهرين » وماجاورها .
وفي السنة الثالثة والثلاثين من حكمه مرت بجيشه من مدينة « قادش » قاصداً
« قرقيميش » ، فتغلب على كل من اعترضه في طريقه ، ثم عبر نهر « الفرات » ،
وأقام وراءه نصباً بجانب النصب الذي أقامه « تحتمس الأول » دون عليه نبأ
وصوله الى تلك البقعة . ثم اتجه جنوباً وصار متبعاً مجرى النهر حتى وصل الى مدينة
« نينوى » ، وبعد أن فتحها لبث ثمة قليلاً للرياضة يتصيد الفيلة . وفي غضون ذلك
كانت تفتد أمراء بلاد النهرين الى سرادقه يقدمون اليه الجزية اقراراً بخضوعهم له .
وسرى الخوف من بطشه الى أهل الممالك المجاورة لأرض الجزيرة جنوباً وشمالاً ،
فبعث ملك بابل على بعد داره بالتحف والنفائس تزلفاً لفرعون ، وحذا حذوه في
ذلك أهل « خيتا » الذين كانت تمتد أملاكهم الى أواسط آسيا الصغرى
(والأرجح أنهم هم « الحثيون » المذكورون في التوراة)

فتح نينوى

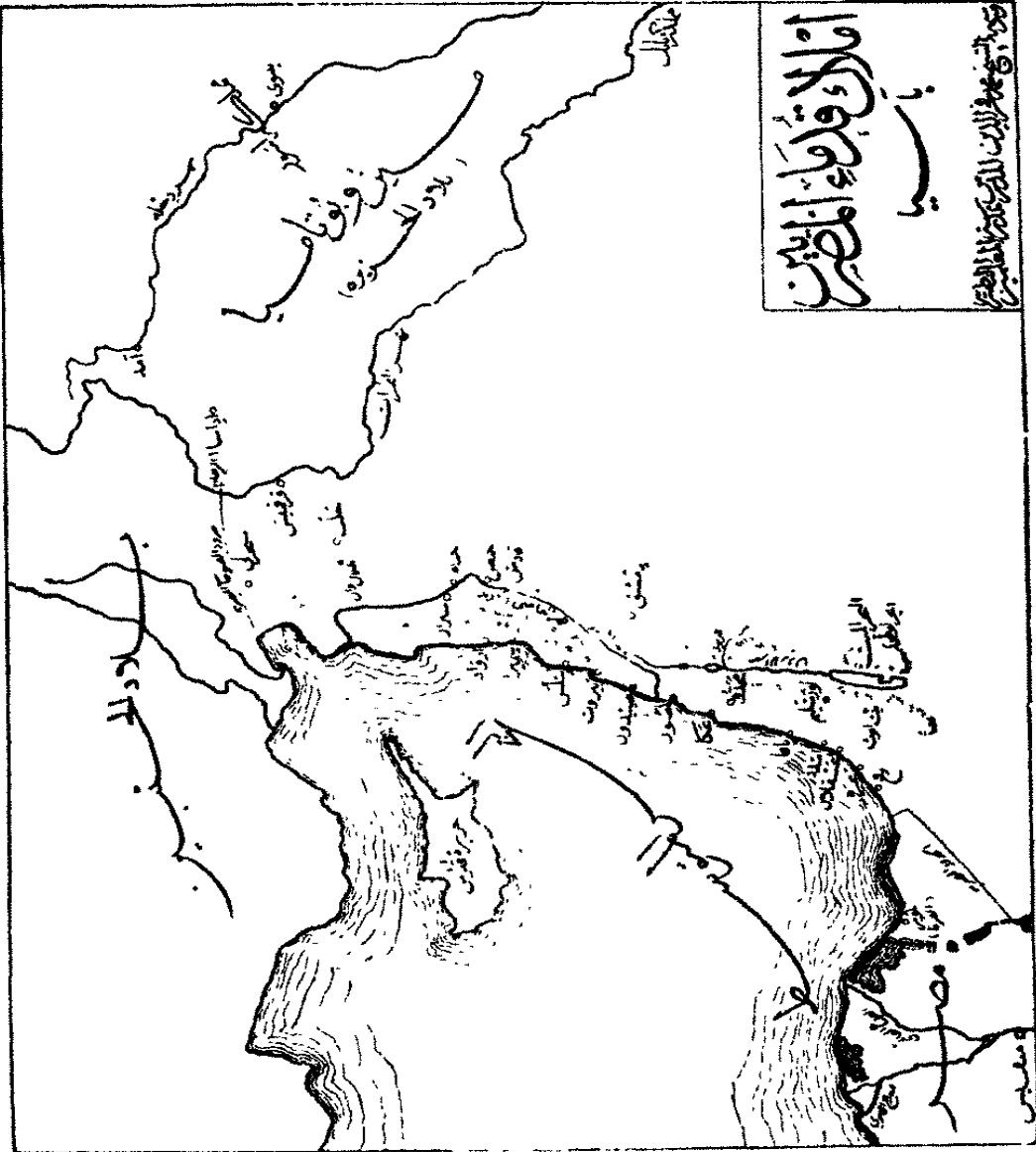
قوة اسطول
تحتمس

وكما قويت سطوة جيوش تحتمس البرية كذلك عظمت مهابة أساطيله البحرية ،
فأصبح ملك « قُبُرس » أتبه بوال له ، وصار الأسطول المصرى يابى الرعب فى
النفوس : فأكسب مصر نفوذاً يمتد من تترقى البحر الأبيض المتوسط الى ما وراء
بحر « إيجه » ، كما كان له فائدة كبرى فى تسهيل فتوح الشام : فانه باستيلائه على
الثغور الفينيقية ضمن لتحتمس عدة مراكز منيعة يهاجم منها « قادش » وغيرها من
البلاد الداخلية . وهذا أقدم مثال فى التاريخ يؤيد مزايا القوة البحرية ، فان تحتمس
استغرق فى غزواته الأولى ٢١ يوماً للوصول برآ من الأراضى المصرية الى « مجدو »
(وذلك يُعتبر سيراً سريعاً جداً) ، مع أنه لم يستغرق فى غزواته التالية أكثر من
بضعة أيام للوصول الى أى ثغر من الثغور السورية

وقد غزا « تحتمس » فى أيامه الأخيرة بعض غزوات فى بلاد النوبة . وتوفى فى
السنة الرابعة والخمسين من حكمه بعد أن ملأ الشرق الأوسط شهرة وعظمة
وكان « تحتمس » ينتهز فرصة فراغه بين حرب وأخرى فيلتفت الى شؤون

تصميم من قبل وزارة المعارف والادب
الاسلامية

أما الإقليم المظن بأشياء



بلاده الداخلية . وقد أظهر في ذلك مقدرة عظيمة في ادارة البلاد وضبطها ، فلم تغفل
عينه لحظة عن أى جزء من أجزاء دولته العظيمة

ومن آثاره مسلتان عظيمتان أقامهما بعين شمس ، ثم نقلتهما « كِلْيُو بَطْرَة » الى
الاسكندرية ، ولذلك اشتهرتا « بمسلى كِلْيُو بَطْرَة » واحداهما الآن بلندن
والأخرى بنيويورك . وما زالت بعدُ جثة «تحتمس الثالث» بدار العاديات المصرية .
وهو أعظم ملوك الدولة الحديثة ، وقد قال بعض المؤرخين : انه أعظم ملك في تاريخ
مصر بأجمعه

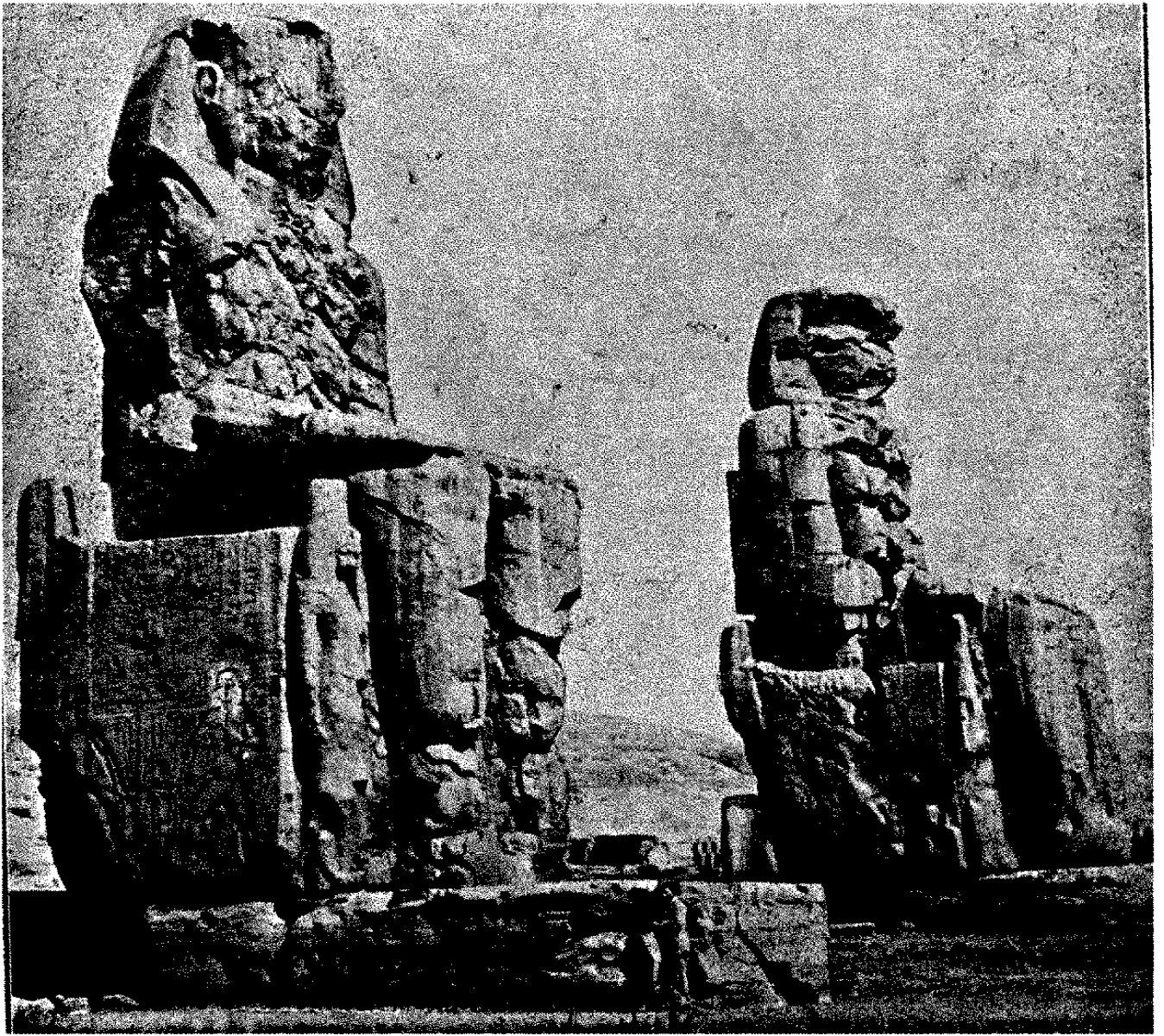
وبعد وفاة تحتمس الثالث تولى الملك ابنه «أمنحُتِب الثاني» (أمينوفيس الثاني)،
وكان أبوه في آخر أيامه قد أشركه معه في الملك . ومن أوائل أعماله أنه قاد جيشاً
إلى سورية لتمرّد أهلها مرة أخرى ، فوصل في سيره الى نهر الفرات ، وعاد الى طيبة
ومعه غنائم كثيرة وسبعة ملوك أسرى ، فذبحهم وعلق جثث ستة منهم على سور
المدينة، وأرسل الجثة السابعة الى « نباتا » حيث نُصبت هنالك لتلقى الرعب في قلوب
الإيتوبيين . وحكم هذا الملك ستة وعشرين سنة ، ثم ترك الملك لابنه
«تحتمس الرابع» . وأشهر ما يعرف من أخباره أنه أزال الرمال من حول أبي الهول .
وله حروب في سورية وبلاد الكوش

أمنحبت الثالث

وفي سنة ١٤٠٠ ق . م تولى بعده ابنه «أمنحبت الثالث» (أمينوفيس الثالث) .
وكان من أعظم مشيدى المباني في أنحاء البلاد ، ولا سيما طيبة ، فمن ذلك أنه أسس
معبد الأقصر ، وزاد في معبد الكرنك ، ووصل ما بينهما بمجدبة جميلة سيّد بها طريقاً
على طول كل جانب من جانبيه صف من أصنام أبي الهول ، جسم كل منها شبيه
بجسم الأسد ورأسه تشبه برأس الكبتس ، ولذلك يُعرف هذا الطريق بطريق
الكباش . ومن أجمل مبانيه بمعبد الأوصر الدهايز ذو الأربعة عشر عموداً ، فان
فخامته لا تزال ظاهرة الى الآن

تقدم التجارة

وشنَّ « أمنحبت » الغارة على اتيوبيا ، فكان نفوذه يمتد من « نباتا » الى نهر



بعض آثار امینوفیسی الثالث { (۱) طریق الکباش (رسم لکجیان)
(۲) عمشالا ممنون



الدھليز ذو الأربعة عشر عموداً

(رسم لكحيان)

الفرات . وكانت ملوك اسور و بابل وقبرس يهابونه ، ويتودّدون اليه . أما ولاته في الشام فكانوا على غاية الخضوع والامثال لأوامره . وبالجملة لم يطرأ من الحوادث في عصره ما يحمله على إثارة ملاحم عظيمة . فتفرغ بكل قواه الى تنظيم المصالح الداخلية ، وارتقت في أيامه التجارة حتى وصلت الى حد لم تصل اليه من قبل ، فكانت تُجَبَى الى مصر ثمرات جميع العالم المعروف إذ ذاك ، وأصبحت القوافل البرية وأساطيل البحر الأحمر تأتي اليها بالأحشاب النفيسة والعطرية وأنواع التوابل والأفاويه وما شاكلها من الشام ومن بلاد الشرق ، كما كانت تأتي اليها من فينيقية بالآلات الحربية والآنية المزخرفة . وكانت السفن الفينيقية في البحر الأبيض المتوسط واسطة في نقل البضائع بين مصر وقبرس وجميع جزائر بحر إيجه

وقد وُجد في بلاد الإغريق وجزائرها بعض الآثار المصرية التي يرجع عهدها
تأثير الحضارة المصرية في غيرها
تاريخ (٦)

الى ذلك العصر . ونتج من معاملة سكان هذه البلاد للمصريين ان أثرت الحضارة المصرية في حضارتهم بعض التأثير ، فظهر ذلك في محاكاتهم للمصريين في الرسم والتصوير

عظمة المباني
في عصر
المنحطب الثالث

وفي زمنه ارتقى فن البناء والنقش والتصوير ، واتسعت مدينة طيبة اتساعاً عظيماً ، وكثرت فيها القصور الكبيرة ، وظهرت في مبانيها هيئة التماثل والوحدة ، ووُجد في عصره عدد عظيم من المهندسين ، منهم المهندس « أَمْنَحْتَب » الذي طار صيته في الآفاق حتى كان الإغريق بعد مماته بنحو ١٢٠٠ سنة يمجّدونه تمجيداً وصل بهم الى أن وضعوه في صف الآلهة

ومن المباني التي شيدها هذا الملك معبد له أقامه في الجهة الغربية من طيبة ، ولم يبق منه الآن سوى تماثيل هائلين له كان موضعهما أمام مدخل المعبد ، يربو علو كل منهما على العشرين متراً ويُعرفان بتمثالي « مِمنون » * . وشيد له في الجهة الغربية قصراً جنوبي المعبد ، حفر بالقرب منه بركة عظيمة لزوجته ، كانت تركب فيها قارباً كلما قصدت النزهة

قضى أمنحطب ذلك الزمن العظيم ، ولم يعكر صفو السلم في بلاده فتن أو حروب . ولكن حدث في أواخر أيامه أن هوجت الشام من جهتين ، فدخلها « الحثيون » من الشمال ، وأغار عليها من الصحراء الشرقية أقوام آخرون ساميون . وعند ذلك انشق ولاية الشام الى فريقين : فريق اتفق مع هؤلاء المغيرين ، وساعدوهم على دخول البلاد ، وفريق بقي على الولاء لفرعون مصر فبادر باخباره بالخطر الذي يهدد دولته . ومات « أمنحطب » في السنة السادسة والثلاثين من حكمه قبل أن يتمكن من صد أعدائه

اغارة الاجناس
لسامية على الشام

وكانت مصر في هذه الأزمة في أشد الحاجة الى رجل حازم قوى يسهر على ما فيه

* كانت تخرج من هديس التماثيل أصوات بديعة في الصباح . ولكن لما حاول الرومان ترميمها أيام حكمهم في مصر بطل خروج تلك الاصوات ولم يعد يسمع منها شيء

اخناتون

صالح الدولة ، ويعمل على تماسك أجزائها ، ولكن الذى خلف « أمنحتب الثالث » هو ابنه « أمنحتب الرابع » المعروف « بإخناتون » (١٣٧٥ - ١٣٥٨ ق . م) ، وكان شديد التغفل فى العقائد الدينية ، كثير التعمق فى الفلسفة الخيالية ، فانقطع لتحقيق مسائلها ، وتوفر على النظر فى أصولها ، فشغله ذلك عن تدير دولته ، وتهاون فى صد الغزاة الذين أغاروا على الشام قبيل توليه الملك . فبقى نفوذه فيها يتقلص شيئاً فشيئاً حتى كاد يذهب بأثره عند وفاته فى سنة ١٣٥٨ ق . م

شغل « اخناتون » طول حياته بالسمى وراء توحيد الديانة المصرية وحمل الأمة على عبادة معبود واحد هو روح الشمس ، فان المصريين عبدوا الى زمن حكمه عدة معبودات كان أعظمها عند توليه العرش هو « أمون » . وكان أجلّ معبد لهذا المعبود بمدينة « طيبة » عاصمة البلاد . فأدرك هذا الملك خطأ تعدد الآلهة ، واعتقد بوجود معبود واحد مسيطر على العالم بأسره ، وقال انه هو روح الشمس التى تتوقف عليها حياة كل شىء ؛ وأطلق عليه اسم « أتون » . ولشدة رغبته فى نشر مذهبه ونسخ ما عداه من المذاهب نقلَ عاصمة البلاد من « طيبة » موطن عبادة « أمون » ، وبني له حاضرة جديدة سماها « أخيتاتون » تقرباً لمعبوده « أتون » ، وموقعها الآن « تل العمارنة »* . ولما رأى أن اسم « امنحتب » مندمج فيه اسم « أمون » غير اسمه وسمى نفسه « إخناتون » ومعناه « روح أتون » . ثم عمل على محو النقوش من جميع الآثار القديمة التى عليها اسم « أمون » حتى التى نُقشَ عاينها اسم والده استغرقت هذه الأمور كل أوقات « إخناتون » ، فلم يدع وقتاً للالتفات لشؤون دولته ، فأخذت فى الانحلال السريع ، فاستولى الحثيون على مدن سوريا الشمالية ، وأغار غيرهم من الأمم السامية على أطرافها الجنوبية . كل ذلك بالطبع جعله مبغضاً

* وُجِدَت هنا الرسائل الاترية الشهيرة المعروفة برسائل « تل العمارنة » وهى رسائل على قطع من الفخار ومحرومة بخط بابل « المسامرى » تبودلت بين امنحتب الثالث والرابع وبين ملوك بابل وقبرس وغيرها ، وهى من أهم الآثار التاريخية

في نفوس الأمة على اختلاف طبقاتها ، فخلق عليه كهنة أمون لما لحقهم من الأذى ، وسخط عليه جنود والده لما رأوا من انحطاط الدولة على يديه ، ونفرت منه العامة لأنهم لا يرضون بغير دينهم بدلاً

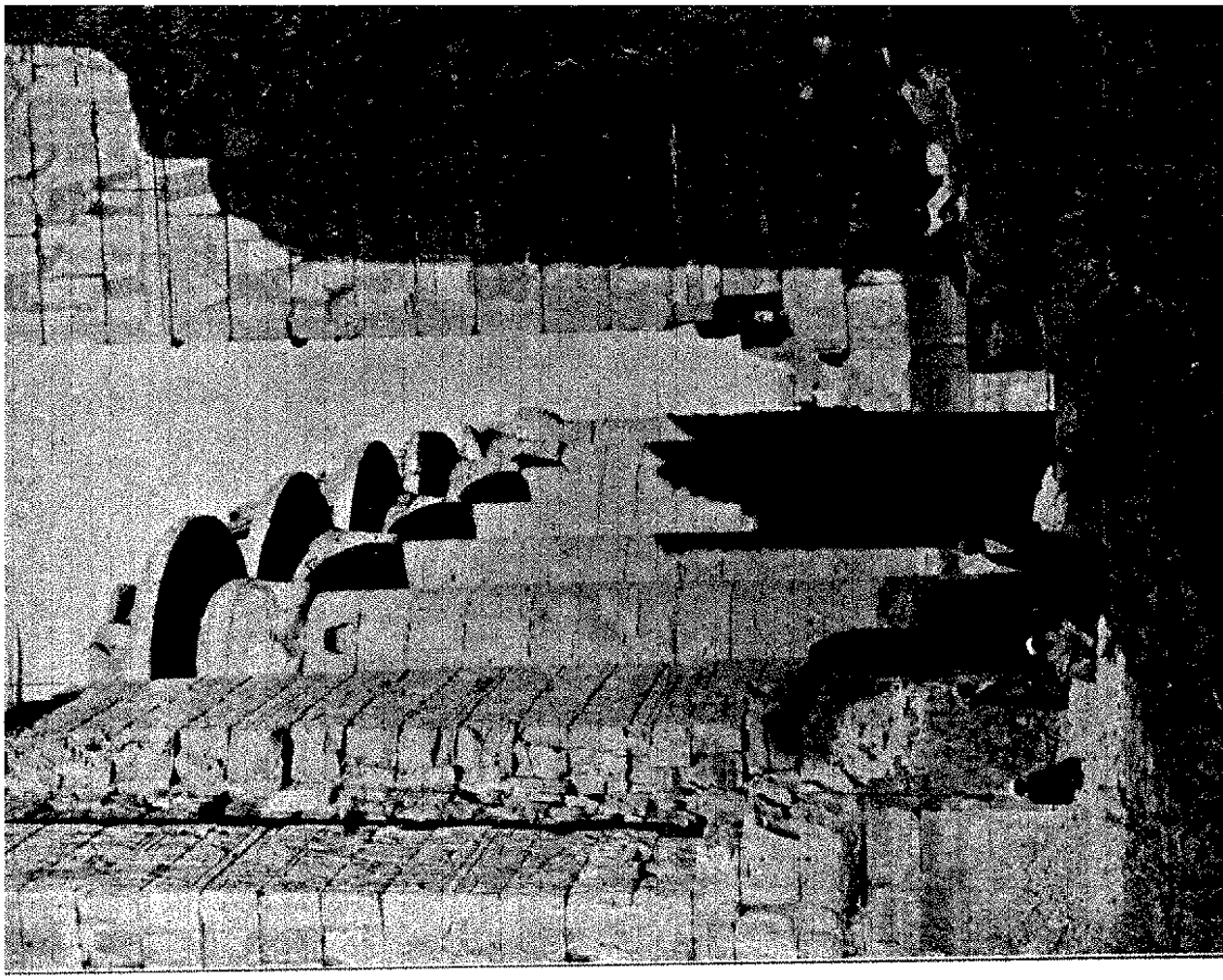
توفي « اخناتون » سنة ١٣٥٨ ق . م خلفه بضعة ملوك من نسله حكموا مدداً قصيرة حاولوا فيها الاستمرار على نشر مذهبه ، ولكنهم لم يفلحوا . وبوفاة آخرهم سنة ١٣٥٠ ق . م أعيدت الديانة القديمة الى أصلها ، وعبد الناس معبوداتهم الأولى . وقد استتدت كراهة القوم لاختناتون من بعده حتى أنهم لقبوه « بمجرم أخيتاتون » وأزالوا النقوش من جميع آثاره ، وأعادوا اسم « أمون » في كل مكان ، فركدت بذلك تلك العاصفة الدينية التي أثارها ، ولم يبق إلا إصلاح شؤون البلاد وجمع ستات الدولة وإعادة مجدها . وهذا ما عمل عليه ملوك الأسرة التاسعة عشرة كما سيأتي بيانه

﴿ الأسرة التاسعة عشرة ﴾

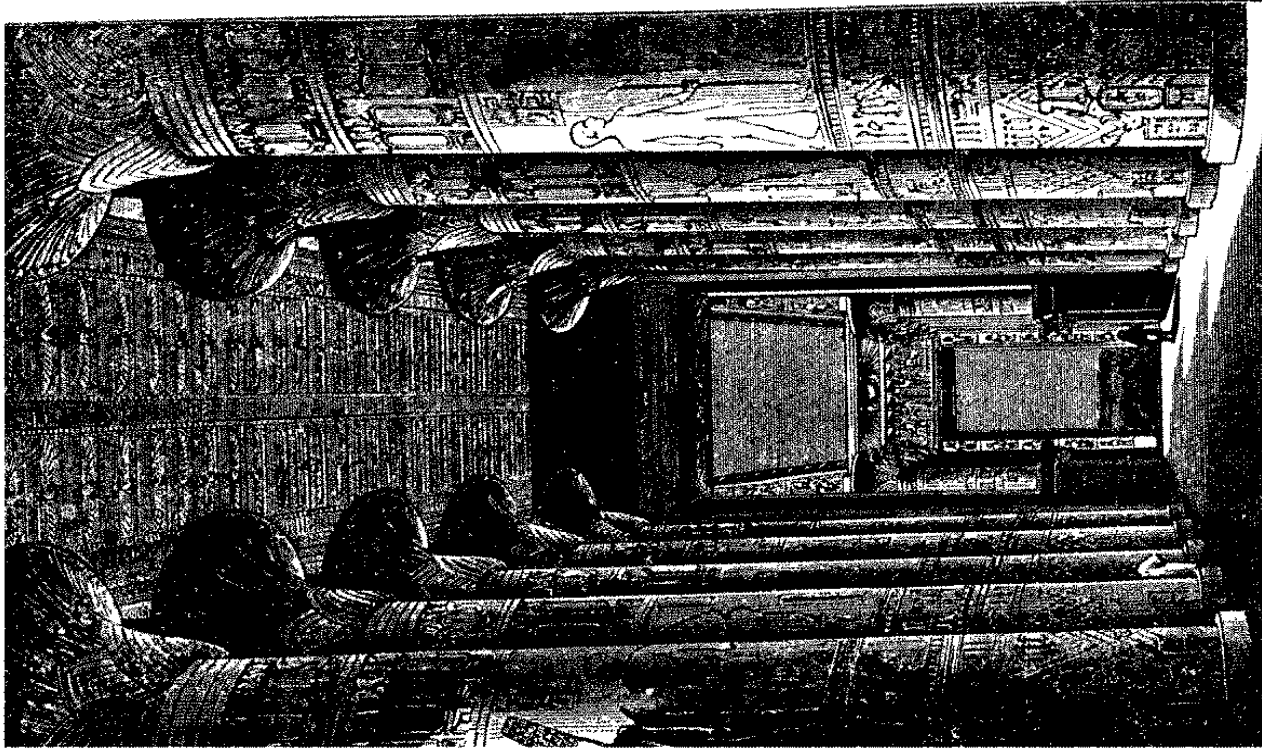
(١٣٥٠ - ١٢٠٥ ق . م)

بعد أن انقرض نسل « اخناتون » قبض على الملك رجل يدعى « حَرَمَحَب »
رمحرب (١٣٥٠ - ١٣١٥ ق . م) وكان في أول أمره قائداً حربيًا . ولما جلس على العرش وجه عنايته لإصلاح ما نتج عن إهمال أسلافه ، فقام بكثير من الإصلاح الداخلي ، وبعث بعدة جيوش الى بعض الممالك المجاورة لمصر . ويعده بعض المؤرخين المؤسس للأسرة التاسعة عشرة

وبوفاته جلس على سرير الملك « رَمْسِيس الأول » (١٣١٥ - ١٣١٤ ق . م)
رمسيس الأول ولم تُعرف علاقته بمرحرب ، بل يحسبه آخرون من المؤرخين المؤسس لهذه الأسرة . وقد تولى الملك وهو طاعن في السن ، ولذلك لم يتمكن في المدة القصيرة التي حكم فيها من القيام بكل ما في نفسه من الآمال الكبيرة . وأهم أعماله انه بدأ تشييد ذلك



الاعمدة العظيم بالكرك (رسم لكبيران)



الاعمدة - في أيام روقه - (من صورة خيالية)

البهو العظيم بمعبد الكرنك المعروف بيهو الأعمدة نسبةً الى العمَد الهائلة المصنوفة به،
وهي التي بعظم حجمها وفخامتها جعلت هذا البهو من أخصر وأجمل الآثار المصرية

وبعد وفاته تولى الملك ابنه « سِيْتِي الأول » ، فبدأ أعماله باخضاع أهل البدو
الذين أغاروا على فلسطين ، ثم استأنف المسير حتى وصل الى لبنان ، فخضع له
الفيثقيون ، وأهدى إليه أمراء الشام شيئاً كثيراً من خشب الأرز . ثم واصل السير
حتى التحم جيشه بالحثيين ، ولكن لثبوت قدمهم في هذه الجهة إذ ذاك عقد محالفة
مع ملكهم وبذلك انتهت حروبه . ولما عاد



الى مصر وجّه عنايته في السنة التاسعة
من حكمه الى الأعمال الداخلية ، فأصلح
الطريق الموصل لمناجم الذهب بصحراء
النوبة الشرقية ، واستتم العمارة التي بدأها
والده بمعبد الكرنك ، وأصلح ما شوّهه
الملك « اخناتون » من المعابد والهياكل ،
وشيد له معبداً في « ايدوس » وناوُساً
في وادي مقابر الملوك ، وكلاهما أجمل شيء
في نوعهما سواء أكان ذلك من جهة

(سِيْتِي الأول)

عن جتته المنطة بدار الآثار المصرية

رسم ف ٠٥٠ بيريز

الهندسة أم الزخرف . ومما يُنسب اليه من الأعمال العظيمة أنه حفر خليجاً يُوصل
البحرين الأبيض والأحمر مستمداً من فرع النيل الشرقي

* رمسيس الثانى وحروبه *

(١٢٩٢ - ١٢٢٥ ق.م)

ادعاء رمسيس خلف « رمسيس الثانى » والده سيقى الأول وهو صغير السن ، ويعرف أيضاً برمسيس الأكبر لما اكتسبه من الشهرة الفاتكة التى جعلت كثيراً من الناس يزعمون أنه أعظم ملوك مصر . والذى كوّن له هذه الشهرة الكبيرة تلك المباني العديدة التى شيدها فى جميع أنحاء البلاد ، ونقش عليها أخبار حروبه وانتصاراته التى ظهر بعدُ أنه بلا شك مغال فيها

ولم يكتفِ « رمسيس » بنقش اسمه على المباني الكثيرة التى شيدها بنفسه ، بل كان يمحو من كثير المباني التى شيدها الملوك السابقون أسماء مشيديها وينقش عليها اسمه ، رغبةً فى الشهرة وطمعاً فى تخليد ذكره

ولما تولى رمسيس الملك وجد أن الدولة العظيمة التى كوّنّها جدّه الأكبر « نحتمس الثالث » محاطة بالأخطار ، وان الحثيين غلبوا على معظم الشام ، فعزم على تجديد مجد مصر واسترداد ما فقدته من أملاكها ، فاتبع فى سياسته الحربية نفس الخطة التى اتبعها نحتمس الثالث ، وهى البدء بالاستيلاء على الشواطئ ليكون له أنزال على البحر تسهّل المواصلة بينه وبين مصر . وفى السنة الرابعة من حكمه نفذ ما فى عزمه فغزا هذه الجهات ؛ ونقش على احدى الصخور المطلة على نهر « الكلب » ما يدل على وصوله الى تلك البقعة

تجديد
مجد الدولة

معاربة الحثيين وفى أثناء ذلك كان ملك الحثيين يشغل بجمع جيش عظيم من جميع أنحاء الشام ليحارب به مصر ، واستمال لذلك جميع ملوك الشام الذين كانوا أعداء لمصر فى قديم الزمان ، فانضمت اليه ملوك « أرواد » و « قادش » و « بلاد النهرين » و « حلب » وغيرها من الولايات السورية ، وضمّ اليه رجالاً من ولاياته التى فى آسيا الصغرى .

ولم يكتفِ بذلك بل استجلب بمال خزائنه الجنود المرتزقة من آسيا الصغرى وجزائر البحر الأبيض . أما رمسيس فلم يألُ جهداً في جمع جيش يضاوى جيش عدوه عدداً وعدداً ، وألحق به الجنود المرتزقة من بلاد النوبة وسردانية ، وقسمه الى أربعة أقسام جعل نفسه قائداً لأحدها . وسار في مقدمة الجيش فاصلاً به من مصر في السنة الخامسة من حكمه أى حوالي سنة ١٢٨٨ ق.م . فأورده بعد شهر نهر « أورنت » (العاصى) ، وسار شمالاً متبعاً مجرى النهر حتى وصل الى التل المشرف على ذلك السهل العظيم الذى فيه « قادش » حيث نصب معسكره . فمكث في واقعة قادش هذا المكان عدة أيام ، وكانت طلائع جيشه تخبره كل يوم أنهم لم يقفوا للعدو على أثر . وعقب ذلك أتى الى المعسكر المصرى اثنان من أهل البدو وقالوا : إنهما شردا من الجيوش الحثية ، وان ملك الحثيين تقهر شمالاً الى حلب . فصدق ذلك رمسيس ،



(رمسيس الثانى فى مركبته الحربية)

وقواه عنده ما أخبره به طلائعه من عدم رؤيتهم شيئاً يدل على أن العدو على مقربة منهم ، فنهض فى الحال ، وأخذ قسم الجيش الذى يقوده بنفسه ، وأسرع نحو قادش بعد أن أمر باقى الجيش أن يلحق به ، وعند ذلك اتضح أن ملك قادش هو الذى أرسل ذينك البدويين ليغررا برمسيس . فلما رأى أن حيلته قد أفلحت

مِهارة رمسيس وشجاعته
غير وجهة سيره ، وفاجأ رمسيس على غير استعداد ، ففصل بينه وبين معظم جيشه .
ولولا شجاعة رمسيس الذاتية التي أدهش بها الأعداء لقصت عليه فِرَق العجلات
الحثية قضاء عاجلاً ، ولكنه تمكن بتلك الشجاعة النادرة من مقاومة الأعداء حتى
تلاحقت به بقية جيوشه فنجا من الخطر المحدق به ، وصد جيوش الأعداء . وبالرغم
من ذلك كانت خسارته بلا شك اكبر من خسارة أعدائه . ولم يكد يفرغ من
صدمهم حتى جمع ما بقي من جيشه وعاد الى مصر

خروج
أملاك مصر عليها
رجع رمسيس الى مصر عقب هذه الواقعة تَوَّأ بدون أن يحاول محاصرة قادش ،
فأثر ذلك في ولاية الشام وفلسطين ونزع من فلوبهم خشية فرعون ، فخرجوا عليه ،
وامتدَّ الخروج جنوباً حتى وصل حدود مصر

ولذلك ابتداءً بعدُ باسترجاع دولته الأسيوية من جديد ، فقفى ثلاث سنوات
في إخضاع فلسطين . وفي السنة الثامنة من حكمه سار بجيش جرار حتى وصل وادي
الأورنت مرة أخرى ، وهناك أوقع بالحثيين . ثمَّ غزا « بلاد النهرين » ففتح جانباً
عظيماً منها ، ونصب بها تمثالا له . ولم يلبث الحثيون ان أثاروا عليه أهل هذه الجهات
مرة أخرى ، فقمعهم جميعاً وخضعت له بلاد النهرين وشمالى سوريا وأرواد وبعض
جهات من وادي الأورنت . ثمَّ استمرَّت الحروب بينه وبين الحثيين حتى كانت
السنة الحادية والعشرون من حكمه . وكان ملك الحثيين قد توفى ، وخلفه أخوه ،
فعمد محالفة مع رمسيس على أن يمسكا عن الحرب ، وأن يكونا صديقين الى الأبد ،
وحدًا في المحالفة حدود أملاكهما

عقد محالفة
مع الحثيين

وفي السنة الرابعة والثلاثين أي في سنة ١٢٥٠ ق . م . حضر ملك الحثيين الى
مصر لمشاهدة عجائبها وزوج احدى بناته لرمسيس

ومن وقتئذٍ لم يخض رمسيس ميدان القتال ، واكتفى في المناوشات الصغيرة التي
نشبت بينه وبين اللوبيين وأهل النوبة بإرسال قوَّاده للقيام بها ، وتفرَّغ هو
للأعمال الداخلية

أما النتيجة النهائية لحروب رمسيس فهي أنه استردَّ معظم أملاك مصر الآسيوية التي فتحها تحتمس الثالث، ولم يفقد شيئاً من ممتلكاته في الجنوب، بل بقيت حدود مصر ممتدة جنوباً الى « نباتا » بالقرب من الجنادل الرابعة ، وزاد في أيامه نفوذ مصر في بلاد النوبة

قلنا ان رمسيس شيد عدداً عظيماً من المباني في جميع أنحاء البلاد . وأهم ما قام أهم المباني التي شيدها رمسيس به من ذلك انه أتم المعبد الذي بدأه والده بطيبة ، وبني لنفسه هناك معبداً جديلاً يعرف « بالرَّمْسِيُوم » ، وأتمَّ البهو ذا الأعمدة الذي بدأه جده رمسيس الأول بمعبد الكرنك

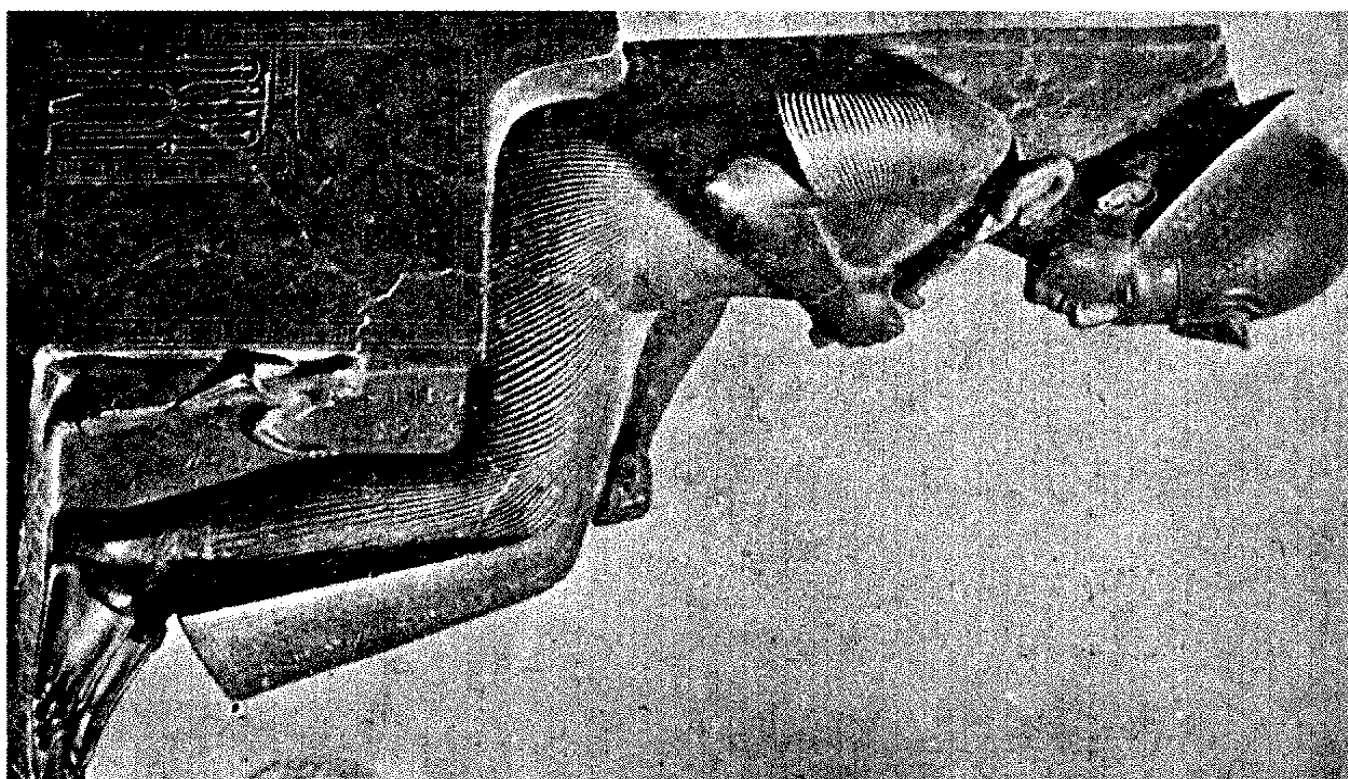
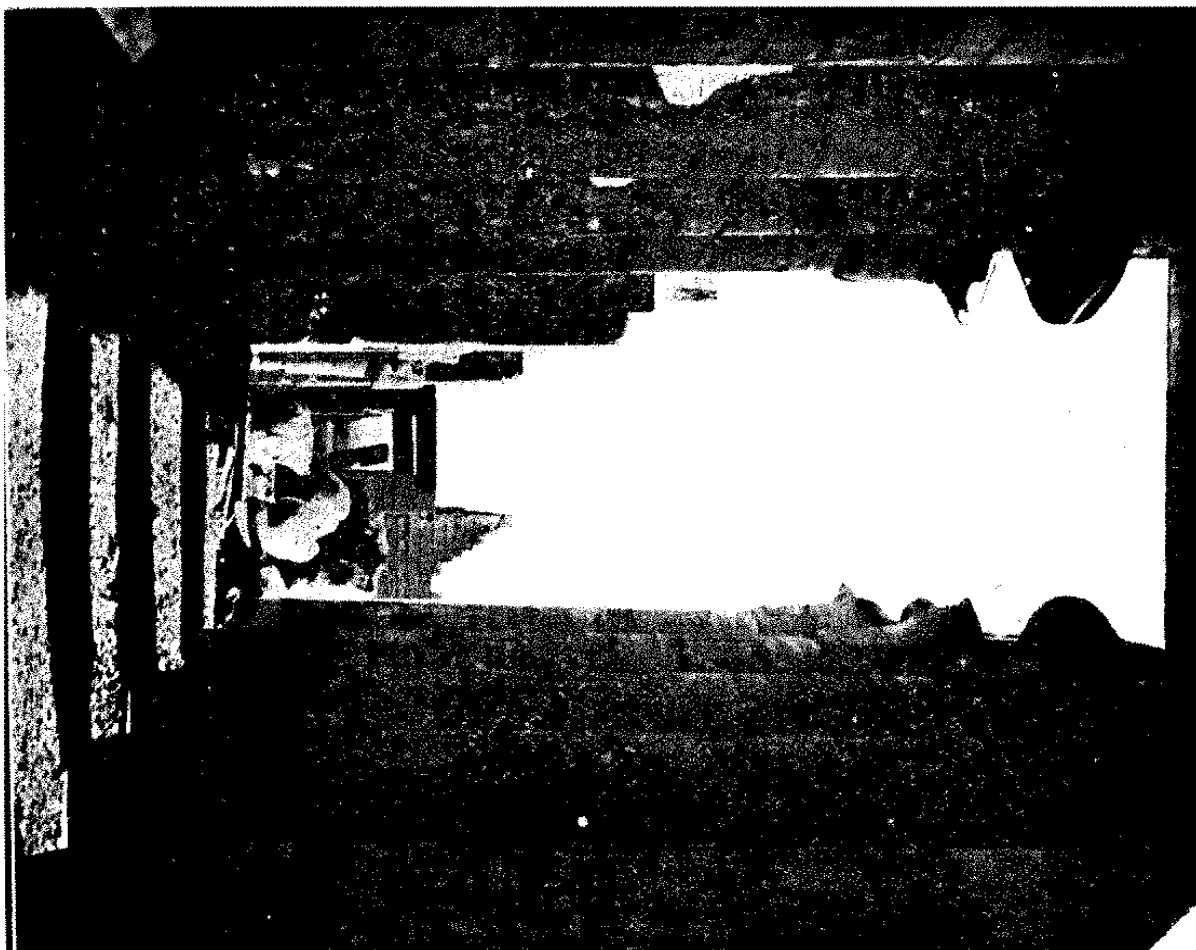


وقد أكثر رمسيس من إقامة المسلات وتزيين مبانيه بالتمائيل ، ولا سيما تماثيله ذوات الحجم الهائل التي من أهمها التمثال الذي أقامه بمدينة « تَنيس » (صان) بالوجه البحرى ، وكان علوه نحو ٢٧ متراً ووزنه ٩٠٠ طن ، والتمثال الذي ما زالت بقاياها بالرمسيوم وكان وزنه نحو ١٠٠٠ طن . وقد عُثِر حديثاً على تمثال له آخر هائل بالبدرشين ، وهو غاية في الجمال . وله تمثال من المحبب بدار عاديات « تورين » بايطاليا لا يزال حافظاً لروقه الى الآن

(رمسيس الثانى)
عن جنته المنحطة بدار الآثار المصرية
رسمه ف . د . د . بيريز

ولما كان هم رمسيس تدير أملاكه الكثيرة في آسيا نقل مقر ملكه الى مصر السفلى . وبقيت « طيبة » العاصمة الدينية للبلاد ، وكثيراً ما كان يذهب اليها . وبانتقاله الى الوجه البحرى أرجع الى كثير من بلاده روتقها القديم ، فصارت « تنيس » مدينة عظيمة زاخرة ، وشيدها معبداً من أخطر المعابد . وشيد رمسيس تاريخ (٧)

ارستوم (رسم گچزاد)



بلداناً جديدة بالوجه البحرى ، منها بلدة فى شمالى عين شمس تعرف آثارها الآن
« بتلّ اليبودية »

ومات بعد أن حكم ٦٧ سنة . وقد بلغ إعجاب خلفه به مبلغاً كبيراً جداً ، حتى
ان عشرة منهم سمو أنفسهم باسمه على التوالى

فصل السابع

ابتداء اضمحلال مصر

تميم

فقد المصريون بالتدريج بعد عصر « رمسيس الثانى » تلك الماكّة الحربية التى
رُبّيت فيهم منذ أيام « تحتمس الثالث » وغيره من مؤسسى الدولة الحديثة . فاضطّر
الملك فى الدفاع عن بلادهم الى استخدام الجنود المرتزقة والأجرا من الأجانب
(وذلك من بوادى الانحلال فى الأمم) ، واقتصروا على خطة الدفاع بعد ان كان
مأرب الذين من قبلهم توسيع نطاق الدولة وبسط نفوذها على غيرها من البلدان .
ويا ليتهم تمكنوا من مجرد المحافظة عليها ، فقد عملت على ضعف نفوذ الملك عدة
عوامل بعضها داخلية وبعضها خارجية أفضت الى وهن الدولة ذاتها . فمن العوامل
الداخلية ان الكهنة أخذوا يبتزون سطرّاً عظيماً من الثروة ، وقبضوا على جانب كبير
من الساطة ، كما قبضت الجنود المرتزقة على جانب آخر . ومن العوامل الخارجية ان
البلاد المجاورة لمصر نمت وازداد عدد سكانها ، فعمدوا الى فتح بلاد جديدة يبتغون
فيها الرزق ، فانهالت الغارات على مصر من كل جانب : فهاجمها اللوبيون من الغرب ،
وزحف عليها سكان جزائر البحر الأبيض من الشمال ومن الشرق أيضاً عن طريق
الشام . وظهر فى هذا العصر ملك قوى يدعى « رمسيس الثالث » قضى حياته فى
رد هؤلاء الأعداء . ولما أن توفى لم يقدر أخلافه من الملوك الضعفاء على صدمهم ،

فهوت الدولة الى حضيض الاضمحلال بعد أن بلغت من المجد درجة لم تبلغها أمة من قبل

منفتح

خلف رمسيس الثاني ابنه « منفتح » فحارب حروباً كثيرة لحماية الملك ، فأطفأ نيران الثورة في فلسطين وسوريا بعد أن صدَّ هجمات اللوبيين الذين اتفقوا مع سكان بعض جزر البحر الأبيض وهاجموا مصر من الغرب ، فردَّهم على أعقابهم ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، وأسر عدداً كبيراً من رجالهم

وكان « منفتح » موعماً بالمباني ، ولم يكتفِ بما أمكنه تشييده ، بل فعل ما فعله أبوه من قبله ، اذ كان يمحو أسماء الملوك من الآثار التي شيدها وينقش اسمه مكانها . وقد فعل ذلك بكثير من آثار والده نفسه ، فكان أباه قد لاقى جزاءه على يد ولده . وقد قيل ان « منفتح » هذا هو فرعون موسى ، وانه الذي خرج في عهده بنو اسرائيل من مصر ، غير ان ذلك ما زال مفتقراً الى اثبات

وحكم بعد منفتح « سبتي الثاني » ، ولم يتم في أيامه شيء عظيم . وحدث بعده نزاع كبير في شأن من يخلفه أفضى الى تقسُّم السلطة بين الأشراف وعمال النواحي ، وكثرت الفوضى والمجاعات ، وجلس على سرير الملك عدة أشخاص حكم أحدهم بعد الآخر مُدداً وجيزة . فاتهمز اللوبيون هذه الفرصة وزحفوا على الوجه البحري مرة أخرى ، الى أن استولى على الملك رجل قوى يدعى « سِنْنِخْت » فاستأصلهم من مصر وأعاد السكينة في البلاد ، غير انه توفي بعد سنة أو سنتين ، فخلفه ابنه « رمسيس الثالث » الذي هو في اعتبار أكثر المؤرخين أول ملوك الأسرة العشرين

تولى « رمسيس الثالث » والدولة تهددها الأخطار من كل جانب ، فتمكن بجده وشدة بأسه من حفظها من الخطر وإعادة جانب كبير من مجدها

رمسيس الثالث
وحروبه

وكان يقطن جزائر البحر الأبيض في ذلك العهد أقوام يسميهم المصريون « سكان البحر » أخذوا يفدون على مصر السفلى من « اقریطش » (كريت) و « صقلية » وغيرها ، ثم تحالفوا مع اللوبيين على غزو الوجه البحري . وكان « رمسيس »

قد نظم الجيش وعززه بالأشداء من الجنود المرتزقة ، فسار اليهم في السنة الخامسة من حكمه ، وهزمهم شرّ هزيمة في البرّ والبحر

وكان قوم آخرون من « سكان البحر » قد زحفوا على الشام بعجلاتهم الحربية ومعهم نساؤهم وأولادهم وبضائعهم وماشيتهم ، كأنهم ينوون الإقامة فيها . ووصلوا في فتوحهم الى نهر الفرات بعد أن اصطلموا الحثيين وخرّبوا بلادهم . ثم همّوا بالزحف على مصر . فقاد رمسيس جيشاً وأسطولاً في السنة الثامنة من حكمه ، وسار لملاقاتهم ، فهزمهم برّاً على نهر « العاصى » وبحراً على الشواطىء الفينيقية ، فخضعوا له ودفَعوا اليه الجزية ، ولم يحاولوا الخروج عليه بعد ذلك قط

وفي السنة الحادية عشرة من حكمه أغار اللوبيون على شمالى مصر من الغرب ، وكان بعض قبائل المغرب قد أجلاهم اليها ، فردّهم « رمسيس » على أعقابهم بعد أن ألحق بهم خسائر كبيرة ، ولم يحاولوا بعد ذلك غزو مصر ، وان كانوا لم يمسكوا عن القدوم اليها طلباً للرزق بالخدمة في الجيش وغير ذلك

وفي السنة الثالثة عشرة من حكمه ذهب « رمسيس » ثانية الى بلاد الشام ليتمّ إخضاع تلك الجهات . تمّ نظم ممالكه الآسيوية وحصّن حدودها^(٥) ، وبذلك عادت السكينة الى بلاد الدولة . ثم استراح بعد هذه الحروب الأربع والتفت الى شؤون بلاده الداخلية

ولم يكن « رمسيس الثالث » حاكماً داهياً بقدر ما كان قائداً حربيّاً محنّكاً ، فقد كان للكهنة نفوذ كبير عليه ، فوهب للمعابد كثيراً من الثروة والأراضى فوق الكثير الذى حازوه بالتدريج من قبله ، حتى أصبحت ممتلكاتهم فى أيامه تقدر بنحو ١٥ ٪ من مجموع الأراضى المصرية ، ولم تقل مواليتهم عن ٢ ٪ من عدد سكان مصر ، وكان لهم ١٦٩ مدينة فى مصر وسورية وبلاد الكوش . وكان أعظم هؤلاء الكهنة ثروة كهنة « أمون » بمدينة « طيبة » ، فقد كان لهم ما لا يقل عن

(٥) الراجع أنها لم تمتد شمالاً وراء نهر العاصى

ثلاثي ما لمجموع الكهنة . وقد ساعدهم ذلك في عهد الملوك الضعفاء الذين خلفوا « رمسيس الثالث » على ابتزاز كثير من السلطة السياسية ، حتى انتهى بهم الأمر الى تكوين أسرة ملكية منهم . وسنأتى على بيان ذلك فيما بعد (*)
وأدى ازدياد قوة الكهنة بالطبع الى اضمحلال قوة الملوك . فاستعانوا على ذلك بالإكثار من الجنود المأجورة . وقد كان هؤلاء الجند والكهنة سبباً في كثير من الحروب التي نشبت بعد في مصر

﴿ اشتراك الكهنة وامراء تنيس في الملك ﴾

(١٠٩٠ - ٩٤٥ ق . م .)

ضعف نفوذ الملك في أيام رمسيس الثاني عشر حتى ان « سميندس » أحد أمراء « تنيس » تمكن من الاستيلاء على جميع مصر الشمالية وجعل نفسه ملكاً عليها ، فكان بذلك مؤسس الأسرة الحادية والعشرين
فلم يسع « رمسيس الثاني عشر » إلا أن يتراجع الى « طيبة » . ولازدياد قوة الكهنة هنالك لم يكن له من الأمر سوى صبغة رسمية . ولما انتهت أيامه خلفه رئيس الكهنة « حِرْحُور » ملكاً على الصعيد . وكان ذلك سنة ١٠٩٠ ق . م . وفي هذه الأيام كانت مصر قد فقدت نفوذها في مستعمراتها سوى بلاد النوبة ، حتى ان « حرحور » عند ما أرسل مندوباً الى بلاد لبنان ليحضر شيئاً من خشب الأرز لم يعامل المندوب معاملة حسنة في الطريق ، ولما قابل أمير الجهة التي أرسل اليها امتنع عن اعطائه الخشب ، ثم قبل اعطائه اياه على شرط أن يأتيه ببعض الهدايا النفيسة من مصر

وكان ملوك « تنيس » في هذه الأيام يعترفون بزعامة رئيس الكهنة بطيبة . وقد تزوج منهم من خلفوا « حرحور » ، فتمكنوا من الحصول على الألقاب الملكية ،

المحافظة
على جيش الملوك

(*) قارن ذلك بحالة كهنة « رع » في الدولة القديمة

وبعضهم تمكن من الاستيلاء على جميع مصر ، وكان من أهم شواغل هذه الأسرة المحافظة على جثث ملوك مصر الأقدمين ، لما رأوه من عبث نباشى القبور بها . ولما أن أعيتهم الحيلة فى تقايم من مقبرة الى أخرى وضعوها فى مكان خفى بالقرب من معبد «الدير البحرى» ، وهناك بقيت نحو ثلاثة آلاف من السنين بدون أن تصل اليها يد السرقة ، حتى جاءت نهضة البحث عن الآثار القديمة فى عصرنا ، فكُشف مكانها وانتهى الأمر بنقلها الى دار العاديات المصرية بالقاهرة حيث هى الآن

✽ حكم اللوبيين فى مصر ✽

(٩٤٥ - ٧٢٢ ق م)

قضى المصريون فى عصر اضمحلالهم زمناً طويلاً وهم يستخدمون فى جيشهم جنود اللوبيين . وكان قادة هؤلاء الجنود من بنى جنسهم فاستوطنوا المدن الكبيرة ، وصبروا لهم مالاً وعتاداً ، فى حين كان الحكام الوطنيون يضعف شأنهم يوماً فيوماً . وما زال اللوبيون يزدادون قوة وهؤلاء ضعفاً حتى قام «شيشنق الأول» (شيشاق) أحد قواد الجند اللوبيين المأجورين ، وقبض على زمام الملك ، فأسس بذلك الأسرة الثانية والعشرين سنة ٩٤٥ ق م . وكان مقرّ حكومته «بُوبَسْطَة» (تل بَسْطَة) بترقى مصر السفلى . وفى أيامه انتعشت مصر بعض الشيء ، وعاد لها بعض نفوذها فى فلسطين ولكن ملوك هذه الأسرة لم يستطيعوا ادخال القواد الآخرين فى طاعتهم ، فان هؤلاء كوّنوا لهم عصبية فى اكبر بلاد الشمال . وآل الأمر بالتدرج الى وجود ولايات عديدة بمصر يجارب بعضها بعضاً على الدوام . وما زالت الأمة على هذه الحالة ، تئن تحت عبء الحلال والفوضى وغلبة المغيرين من النوبة وغيرهم حتى انتهى العهد اللوبى ، وانقضت أيام الأسرة الثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين

﴿ إغارة الأتيوبيين والأشوريين ﴾

(٧٢٢ - ٦٦١ ق م .)

تم للمصريين في أيام الدولة الحديثة غزو بلاد النوبة الشمالية غزواً كاملاً ، حتى أن سكان تلك الجهات تمصّروا ، بل وُجد بينهم كثير من السلائل المصرية . وما زالوا يرتقون ويتنورون حتى شعروا بمحقوقهم ، وأحسوا بأنهم مسلوبون خيرات بلادهم العظيمة وذهبها الكثير . فبقوا يتدرّجون في مراقي الرقي الى أن استقلوا بالملك ، وكونوا لأنفسهم مملكة قائمة بذاتها ، مقرّها « نباتا » بالقرب من الجنادل الرابعة . وعند ذلك ظهر ملكهم بجميع مظاهر الفراعنة المصريين ، وشيد المباني ونقش النقوش على الطراز المصري ، ثم استفحل أمرهم واستطار فخرهم ، فتمكن في سنة ٧٢١ ق م . « بعنخي » أحد ملوكهم من الاستيلاء على الصعيد الى هرقلوقوبوليس بجنوبي الفيوم . وفي أثناء ذلك كان ملوك الأسرة الثالثة والعشرين يزدادون في الضعف ، فلم يبق للملك « أسركون الثالث » سوى منطقة « بسطة » . وكان في كل مدينة كبيرة من مدن الوجه البحري أمير ينازعه في السلطة . فظهر من بين هؤلاء الأمراء رجل قوى يدعى « تونخت » ، وهو أمير « سايس » (صا الحجر)^(١) . فأخضع جميع الأمراء المجاورين له في الجزء الغربي من مصر السفلى ، ثم أغار على الصعيد حتى استولى على مدينة « هرقموبوليس »^(٢) . وعند ذلك أرسل اليه « بعنخي » جيشاً أرجمه الى أرضه . ثم شرع بعنخي في الزحف على الشمال ، فنزل على منف واستولى عليها بعد عناء كبير في البر والبحر . وعند ذلك جاء اليه ملوك المقاطعات المختلفة ، وأظهروا له الطاعة ، ومن بينهم « أسركون الثالث » المنتمي الى الأسرة الثالثة والعشرين والذي لم تزد مكاتته إذ ذاك على مكانة غيره من الأمراء . أما « تونخت » فامتنع أولاً عن تقديم

ارتقاء
الاتيوبيين
على يد المصريين

استيلاء النوبيين
على مصر

(١) بين طنطا وكفر الزيات (٢) بالقرب من مدينة المنية الحالية

الطاعة ، ولكنه قبل ذلك أخيراً وأصبح الحاكم على جميع مصر فرعوناً نوياً . وبعد أن جلا « بعنخي » بجيوشه عن مصر وعاد الى نباتا عاصمة دولته ثار « بَنُحُورِيس » ابن تونخت أمير صا الحجر ، فجمع السلطة في يده نازعاً ما بقي من الرمق في الأسرة الثالثة والعشرين . واستولى على سرير ملك مصر السفلى حوالي سنة ٧١٨ ق . م . وقد اعتُبر « بنحوريس » مؤسساً للأسرة الرابعة والعشرين ، وان لم يُعلم لها ملك غيره . وبعد جلاء بعنخي عن مصر بنحو عشر سنين ظهرت سلطة النوبة في الشمال مرة ثانية ، إذ قام « سَبَّاكون » أخو بعنخي وخليفته ، وثبت قدم النوبيين في مصر . فبدأ بذلك عصرًا حكم فيه الملوك النوبيون بدون انقطاع ، وبهذا اعتُبر مؤسساً للأسرة الإتيوية أو الأسرة الخامسة والعشرين

﴿ إغارة الآشوريين ﴾ *

كان الآشوريون في هذه المدة قد قويت شوكتهم ، وامتدت فتوحهم ، فاستولوا دولة الآشوريين على الشام وفلسطين ، وأصبحت حدود مصر مهددة باغارتهم . فلما أدرك « سَبَّاكون » هذا الخطر أوعز الى ملوك الشام بالخروج عن طاعة الآشوريين ، فتمكن « سَرَجُون » ملك « آشور » في ذلك الوقت من اخاد الثورة في الشام وبابل والجزء الشمالي من دولته . وتوفي بعد أن ترك لابنه « سَنَحَارِيب » في سنة ٧٠٥ ق . م . دولة من اكبر الدول السامية التي ظهرت في التاريخ

استيلاء
الاشوريين
على مصر

ومن ذلك الوقت حدثت عدة معارك بين المصريين والآشوريين بسبب مساعدة مصر لثوار الشام ، الى ان كانت سنة ٦٧٠ ق . م . فدخل مصر « آشور آخي الدين » ملك آشور بجيش قوى منظم ساقه حتى أناخ به على منف واستولى عليها . ففرَّ « طَهْرَاقَة » الملك الأتيوبي في ذلك الوقت وتمَّ استيلاء الآشوريين على مصر . ونصَّب « آشور آخي الدين » ولاةً وطنيين على أقاليم مصر المختلفة ، أعظمهم « نِجَاو »

(٥) ويقال لهم « الانوريون » أيضاً

وهو من نسل تونخت ، وجعل فوقهم والياً آشورياً وعاد الى بلاده فلم يلبث « طهراقة » ان رجع من الجنوب وجمع حوله جيشاً عظيماً أباد به الحامية الآشورية . فأعد الآشوريون حملة أخرى دخلت مصر في أيام ملكهم « آشور بانيبال » ، ففرّ « طهراقة » الى طيبة ، واكتفى بتولى حكم الصعيد . ثم خلفه بعد وفاته ابن أخيه « تَنَدَمَان » ، فقبول بترحاب في أعلى الصعيد ، ثم استولى كذلك على « منف » الى أن أخرجه حوالي سنة ٦٦٠ ق . م . آشور بانيبال من مصر السفلى وتبعه الى الصعيد حتى مدينة طيبة فدمرها . فكانت هذه آخر قوة كبيرة أرسلها الآشوريون الى مصر

الفصل الثامن

النهضة المصرية

(٦٦٠ - ٥٢٥ ق . م .)

لما توفي « نحاو » أمير صا الحجر ومنف خلفه ابنه « إبسمتيك الأول » (٦٦٣ - ٦٠٩ ق . م) والياً على أملاك والده تحت إشراف الآشوريين . فلما رأى أن دولة آشور مشغولة بإخماد الثورات وتذليل البلاد المجاورة الخارجة عليها ، مثل « بابل » و « عيلام » ، وبلاد العرب ، وأنها آخذة في الاضمحلال ، شرع في تقوية سلطانه ، واستعان بملك « ليديا » (بأسيا الصغرى) على التخلص من حكم الآشوريين . ثم تغلب على باقي الأمراء المصريين ، فكان بذلك مؤسس الأسرة السادسة والعشرين

الاميرة السادسة
والعشرون

ويعتبر « ابسمتيك » من أقوى فراعنة مصر وأعظمهم ، ففي أيامه نهضت مصر من سباتها ، وتخلصت من الضعف الذي لحقها من الفتن الداخلية والغارات الآشورية .

ابسمتيك الاول

إلا أنها لم تكن في أيام هذه النهضة كما كانت في النهضة السالفة ، إذ أصبحت الأمة في ذلك الوقت عديمة الميل للاشتغال بالأمر الحربية . ولم تولد فيها الغزوات الأخيرة حباً للحرب كما ولدت ذلك فيها غزوة الرعاة . ولذلك أدرك إيسميتك أن الضرورة التي دعت إلى استخدام الجنود المرتزقة ، فكون جيوشاً من الأشداء ، معظمهم من بلاد الإغريق القديمة وجزر البحر الأبيض . وما فتئ يستعين بهم حتى أمن إغارة الأشوريين واستولى على بعض جهات فلسطين

أراد إيسميتك أن يعيد للبلاد مجدها ، غير أنه لم يقتصر على إحياء الحضارة القديمة بأنواعها ، بل عمل على الانتفاع بحضارة الأمم التي أخذت في الظهور وأربت على المصريين في الابتكار والابتداع . فظهرت في الفنون والصنائع دقة لم تُعرف من قبل ، وزال من الرسم والتصوير تلك الرموز والقيود الرسمية التي كانت تذهب في الأزمنة الأولى بكثير من رونق الصور وروعها

* استيطان الإغريق الأوائل في مصر *

رأى إيسميتك ضرورة الاختلاط بالأمم البحرية النازلة على شواطئ البحر الأبيض من ارتقت حضارتهم ، واتسعت تجارتهم ، وراجت صناعتهم : ولذلك جعل مقره مدينة « سايس » (صا الحجر) بشمالى مصر ، وسهل لهم التجارة في بلاده ، فأصبح الوجه البحرى مورداً ترد إليه التجار من البلاد الفينيقية والسورية وخاصة الإغريقية وقد ذكرنا فيما تقدم أن (سكان البحر) الذين منهم الإغريق كانوا يردون إلى وروود الإغريق مصر منذ القرن الثامن ق . م ، ولكن مجيئهم إذ ذاك لم يكن بهذه الكثرة ، ولم يقابل بذلك الترحاب الذى قوبل به فى عصر إيسميتك

وفى هذا الوقت كان الإغريق آخذين فى الانتشار والاستعمار . فبعد أن ملكوا شبه الجزيرة الإغريقية وجزر الأرخيبيل نزلوا فى عدة أماكن على شواطئ البحر

الأبيض . وكانوا كلما حلوا بجهة أوجدوا بها حركة تجارية وشيدوا المعامل الصناعية .
فرأى إسمتيك أن يجيئهم الى بلاده واستيطانهم بها مما يفيد البلاد ، فرحب بهم
ومنحهم أراضى يقيمون بها بالقرب من « بسطة » ، وكان لهم أيضاً بمنف حتى خاص
بهم ، فاستوطنوا مصر ونشروا فيها تجارتهم وشيدوا مصانعهم . فهذا العدد العظيم ،
مضافاً اليه جند الإغريق المأجورون بالجيش ، لم يخلُ أمرهم من التأثير في حالة
البلاد . غير أن تأثيرهم الأكبر كان في الملوك لا في الأمة ذاتها ، وذلك لشدة
تعصبها وتمدحها بمجد أجدادها السالفين . وقد بلغت شوكة الإغريق في مصر
درجة كادت تُضعف سلطان الملك . على أن المصريين أنفسهم كان لهم تأثير
محسوس في الإغريق ، فقد نقل هؤلاء عنهم شيئاً كبيراً من أصول التصوير وعمل
التماثيل ، كما نقلوا كثيراً من علمهم وفلسفتهم ولا سيما ما يختص بالإلهيات

تأثير الإغريق
في مصر

ازدياد شوكة
الإغريق
في مصر

تأثير مصر
في الحضارة
الإغريقية

بعد أن توفى إسمتيك خلفه ابنه « نِخاو » (٦٠٩ - ٥٩٣ ق . م) فتبع خطة
أبيه في السعى وراء استرجاع مجد مصر لاسترداد الممالك التي كانت لها في أيام
تحتمس الثالث ورمسيس الثاني ، فاستمر في ادخال الإغريق في مصر وترقية الفنون
والصنائع ، وزاد كثيراً في عدد الجيش ، وبني أسطولاً حربياً للبحر الأبيض ، وآخر
للبحر الأحمر . وفي أول سنة من توليته شرع في استرداد ممتلكات مصر في سورية
ولما كانت دولة الأشوريين اذ ذاك في أقصى درجات الضعف والاضمحلال تمكن
من غزو جميع سورية واسترداد جميع الأملاك الآسيوية التي امتلكها أجداده من
قبل . ولكن من سوء الحظ لم تبقى هذه البلاد في يده طويلاً ، وفي أقل من سنتين
تمكن البابليون والميديون * من التغلب على دولة اشور واقتسام أملاكها ، فكانت
سورية من نصيب « نَبُوْبُؤَصَّار » ملك البابليين ووالد « نَبُوْخَذ نَصْر » (بُوْخْتَنْصَر)
المشهور ، فأرسل ابنه بجيش لمحاربة نِخاو ، فهزم المصريين بجهة « قرقيش » (٦٠٥ ق م)
ولولا رجوع « بُوْخْتَنْصَر » قائد الجيوش البابلية الى بلاده بسبب وفاة والده لدخل

النهضة المصرية
في عهد
الاسرة السادسة
والعشرين

محاولة البابليين
الاستيلاء
على مصر

البابليون الديار المصرية . ومن بعد هذه الواقعة لم يحاول « نحاو » استرداد الأراضي
الآسيوية وتفرغ للإصلاحات الداخلية

ومن أعماله أنه شرع في كرى الخليج الموصل بين البحرين الأبيض والأحمر عن
طريق فرع النيل الشرقى ، وهو الذى أنشأه سيقى الأول ورمسيس الثانى ، ولكنه
لم يتمكن من اتمام عمله

ومن أعماله أيضاً أنه أرسل عدداً من الملاحين الفينيقين للطواف حول إفريقيا،
فأتموا السباحة في ثلاث سنوات

وبعد وفاته خلفه « ايسميتك الثانى » ، ولا يُعلم عن أيامه شيء هام سوى انه
غزا بلاد النوبة حتى بلغ الجنادل الثانية ، ولم يكن لذلك نتيجة باقية

ثم خلفه « أبريس » (وهو فرعون المعروف على الآثار باسم حفراع) . وهذا
الملك ورث عن أجداده الشجاعة وعلو الهمة وحب الفنون الجميلة ، وقد شيد بمدينة
« سايس » معبداً من أجل المعابد ونصب أمامه عدداً من التماثيل الضخمة وأصنام
أبى الهول . وفى أول حكمه استترك فى غارة على البابليين لم يجن من ورائها ثمرة سوى
الاستيلاء على بعض المدن الفينيقية ، وفى أواخر أيامه أرسل قوة لمساعدة اللوبيين
على الإغريق المستعمرين لمقاطعة « قيرينيقيا » بشمالى إفريقيا (برقة) ، ولم يرسل
طبعاً فى هذه الحملة أحداً من الإغريق المأجورين ، فانهمزمت الجنود الوطنية شر
هزيمة واختاروا « أحسيس الثانى » (أمسيس) ملكاً للبلاد بالرغم من مقاومة جند
« ابريس » اليونانيين . ولما تولى « أحسيس الثانى » سنة ٥٦٩ ق . م . لم يحنق على

استيطان
الإغريق بمدينة
نقراطيس

الجند اليونانية بل تقاهم الى منف وجعاهم حرساً له . ثم عضد الحركة التجارية وأباح
لتجار الإغريق الاستيطان بمدينة « نُقراطيس » (نُقراش) ، فكانت بمثابة مستعمرة
لهم ، ومنها انتشروا فى جميع أنحاء مصر واتجروا مع المدن التى على شواطئ البحر الأبيض
وكان فى أول أيامه على خلاف مع البابليين ، فأصلح ما بينه وبينهم ، واتفق
معهم ومع الليديين وغيرهم من الأمم الغربية (٥٤٧ ق . م .) على مقاومة دولة

« فارس » التي ابتدأت فتوحها إذ ذاك تمتد شرقاً وغرباً، ولكن اتفاقهم لم يفلح، فأسقط « كوريش » (ملك الفرس) دولة بابل، وغلب الميديون على أمرهم. ولولا أن أحس لحقته المنية في سنة ٥٢٥ ق.م. لرأى بعينه الجيوش الفارسية تفرع أبواب بلاده

مصر
احس الثاني

وكان أحس من أحزم ملوك مصر وأكثرهم نشاطاً، وفي أيامه استولى المصريون على جزيرة قبرس فدفعت لهم الجزية، وكانت البلاد في عهده في رقي ونعيم، حتى قال هيرودوت انه كان بمصر وقتئذ ٢٠,٥٠٠ مدينة ومن أعماله أنه تفح القوانين المصرية، ولما حضر « صولون » المشرع الإغريقي الى مصر في تلك الأيام اختار بعض تلك القوانين وعمل بقنضاها في « أثينا »

الفصل التاسع

الفرس وفتحهم لمصر

﴿ تمهيد ﴾

مبدأ الفرس
الفرس أمة شرقية ذات حضارة قديمة استوطنت « إيران » وأنشأت بها دولاً في زمن غير معروف، وأول ما عُرِف من أمرهم يقيناً أنهم كانوا خاضعين لسلطان « الميديين »، وهم أمة قريبة منهم جداً في الجنسية كانت تمتد بلادهم شمالي بلاد الفرس وغربها، ويحدها من الشمال الشاطئ الجنوبي لبحر « قزوين ». غير أنه في أواسط القرن السادس قبل الميلاد (٥٥٠ ق.م.) قام من بين الفرس رجل يدعى « كوريش » تغلب على ملك الميديين وأسس دولة الفرس المعلومة التاريخ. والميديون
ومن يوم انتصاره انتقلت العظمة والسلطان من الميديين الى الفرس

وبعد ان استولى « كورش » على « ميديا » أخذ في بسط سلطانه على ما جاوزه
من البلاد ، وما زال كذلك حتى وصلت فتوحه الى أبواب بلاد « اللّيديين » .
والليديون هم أمة كانت تشغل جزءا كبيرا من آسيا الصغرى ، وكانوا على جانب عظيم
من الحضارة والتقدم ، ولهم شهرة فائقة في الصنائع والموسيقى والتنعيم والبذخ ، ولملكهم
« كريسوس » (قارون) صيت هائل في الفنى ، حتى ليضرب به المثل في ذلك .
فلاقى كورش صعوبة كبيرة في التغلب عليهم ، ولكنه تمكن بعد من ذلك بفضل قوته
ومهارته الحربية ، فانضمت ليديا أيضا الى بلاد الدولة الفارسية سنة ٥٤٦ ق . م .
وفي سنة ٥٣٨ ق . م . تغلب على البابليين وضم بلادهم الى دوائه ؛ وما زال
يوسع نطاق هذه الدولة العظيمة حتى صارت تمتد من شواطئ « البسفور » غربا
الى نهر « السند » شرقا . ولقد أقب كورش « بالأكبر » و « بمؤسس الدولة
الفارسية العظيمة » لهذه الأعمال العظيمة التي قام بها
وتولى الملك بعده ابنه « قمبيز » ، ومن بعده « دارا الأول » ، وكان أيضا ملكا
عظيما ، فقام بتتيمم مبادئ « كورش » ، فوطد السكينة في البلاد واستولى على « البنجاب »
في الهند وعلى بعض البلاد التي في شمالي بلاد الإغريق
ثم تولى بعده « إجزرسييس » (أرْتَخْشِيشَا) ومن بعده بفترة قصيرة
« أرْتَجْزِرْسِيس الأول » (أرْتَخْشِيارش) ، ثم « دارا الثاني » ثم « أرْتَجْزِرْسِيس
الثاني » ثم « أرْتَجْزِرْسِيس الثالث » ثم « دارا الثالث » وهو آخر ملوك الدولة
الفارسية القديمة . وفي أيامه استولى الاسكندر على فارس سنة ٣٣٠ ق . م . كما
سيأتى بعد *

ولنرجع الآن الى علاقة مصر بفارس فنقول :

* وبعد ذلك بقيت فارس مدة من الزمن تابعة لغيرها أو مجزأة تحت حكم ملوك الطوائف
حتى سنة ٢٢٧ بعد الميلاد حيث عاد لها استقلالها أيام لدولة الساسانية وأخذت في توسيع نطاق
ملكها فصارت دولة عظيمة . ثم أخذت في أسباب الضعف بعد أيام « كرسى أنوشروان » أى
من أواخر القرن السادس بعد الميلاد . وما زالت كذلك حتى استولى عليها العرب في القرن السابع

استيلاء
الاسكندر
على فارس

✽ اغارة الفرس على مصر ✽

عند وفاة احس خلفه ابنه « ابسمتيك الثالث » ، وفي أيام هذا الملك شرع الفرس في غزو مصر بعد أن أعدوا لذلك المعدات الكبيرة ، فجاء ملكهم « قَمبِيز » بجيش جرّار لفتح البلاد التي طالما تاقت نفس سلفه الى اخضاعها . وكانت مصر اذ ذاك منيعة التحصين ، ويقول مؤرخو الإغريق أنفسهم ان أحد الجنود اليونانية خان المصريين ودلّ الفرس على أسهل الطرق التي يمكنهم منها أن يدخلوا البلاد ، فهوجمت مدينة « بلُوز » (الفرما) بجرأ ، وزحفت الجيوش الفارسية على مصر برأ ، وبعد مقاومة شديدة بجهتي بلوز ومنف سقطت البلاد ، وأخذ « قمبيز » ابسمتيك أسيراً ، فاتمته بذلك أيام الأسرة السادسة والعشرين

استيلاء قمبيز على مصر

وبعد أن استولى قمبيز على مصر في سنة ٥٢٥ ق . م أعد ثلاثة جيوش تقصد ثلاث جهات مختلفة : الأولى « قرطاجنة » والثانية واحة أمون (سيوة) والثالثة بلاد النوبة . فلم تفلح الأولى بسبب امتناع الفينيقيين عن العمل مع أنهم كانوا أهم رجال سفن الجيش الفارسي . وكانت الثانية طامة كبرى على قمبيز ، اذ أن الجيش الذي أرسله فيها وقدره ٥٠٠,٠٠٠ مقاتل هلك في الصحراء ولم يُسمع عنه شيء . أما الثالثة فتمكنت من غزو بلاد النوبة ، إلا أنها عند عودتها صادفتها عاصفة رملية بالقرب من الجنادل الأولى كادت تقضى على جميع رجالها

وكان « قمبيز » في أول أمره سالماً مسلماً حسناً في معاملة المصريين ، يحترم دينهم وعاداتهم ، ولكنه لما لحقته كل هذه الخسائر ، ورأى شماتة المصريين به أخذ منه الغضب كل مأخذ ، فحنق على البلاد ومن فيها ، وغير معاملته لهم بالمرّة ، فبدت منه القسوة بجميع ضروبها ، وكرّ على المعابد والهياكل فهدمها ، وقتل بيده العجل أيس أثناء أحد الاحتفالات الكبيرة . وعند عودته الى فارس مات في الطريق سنة ٥٢١ ق . م .

ولما تولى ملك فارس « دارا الأول » زار مصر وأراد أن يصلح ما أفسده قمبيز ، دارا الاول فأبدي احتراماً كبيراً لديانة المصريين ومعبوداتهم وشيّد هيكلاً عظيماً للمعبود أمون بواحة سيوة الكبرى . وعضد التجارة وشيد كثيراً من المدارس وفتح الخليج السالف الذكر الموصل بين النيل والبحر الأحمر ، وأصلح الطريق بين « قفط » وشاطئ البحر الأحمر المار بوادي الحمامات . وكانت الضرائب التي ضربها على المصريين ثقيلاً ، إلاّ أنها كانت تُجبي بسهولة لتوافر الخيرات بالبلاد

ورأى المصريون في آخر أيامه ما لحته من الخسائر في واقعة « مرتون » في طرد الفرس حربه مع الإغريق* فخرجوا عن طاعته ، وطرّدوا الفرس من البلاد بقيادة أحد الأمراء الوطنيين سنة ٤٨٦ ق . م

ولما تولى « إجزرسيس » ملك فارس غزا مصر من جديد ، فأصر المصريون على الثورة مرة أخرى ، وفي أيام خلفه « ارتجزرسيس » ثاروا على الفرس بمساعدة ملك « لوبيا » واسطول إغريقي ، فأخذوا ثورتهم بعد قتال طويل

وبعد ذلك بقيت البلاد هادئة في زمن « اجزرسيس الثاني » ومعظم أيام « دارا الثاني » الى أن هلك ، فتمكن المصريون بمساعدة الإغريق من التخلص من حكم الفرس ، وكان ذلك سنة ٤٠٥ ق . م . ويعرف ولاية الفرس هؤلاء بالأسرة السابعة والعشرين

﴿ الأسرة الثامنة والعشرون الى الأسرة الثلاثين ﴾

طرّد « أمرتوس » (أمروت) الفرس من مصر واستولى على سرير الملك خروج الفرس ست سنين . ولم يخلفه احد من نسله ، بل آل الملك بعده الى ملوك الأسرة التاسعة والعشرين ومن بعدهم الى الأسرة الثلاثين التي أسسها « نختنبو الأول » (نقتانِب) . ولم تكن مصر على جانب عظيم من القوة في الفترة التي بين خروج الفرس وبين أيام

* راجع حروب الفرس مع الاغريق

هذا الملك، ولكنها نهضت في عصره من رقادها نهضة لم تكن إلا بمثابة صحوة الموت،
اذ أنه في أيام آخر ملوك هذه الأسرة المدعو «نختنبو الثاني» تمكن الفرس سنة ٣٤٠ ق.
م من دخول مصر مرة أخرى بعد أن غابوا عنها ٦٥ عاماً. وبذلك انتهت أيام
الفراعنة بعد أن حكموا في وادي النيل نحو ٤٠٠٠ سنة، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة
فكأن مصر قد علمت العالم سياسة الملك ونشر الحضارة، فأظهرت فيه أمماً
قوية عديدة، ولكنها هزمت بعد، وأصبحت غير قادرة على الجولان في ذلك المضمار
الذي يتسابق فيه أبناؤها بما لهم من قوة الشباب وجديد الهمة. وهكذا حال الأمم،
تصعد ثم تنخفض: «فما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع»

غزوة الفرس
مرة ثالثة

انتهاء
دولة الفراعنة

الفصل العاشر

كلمة في الحضارة المصرية القديمة

ان الآثار الكثيرة المنبثقة في جميع أنحاء الدنيا تُفصح بأجلى بيان أن قدماء المصريين
بلغوا في الحضارة درجة لم تسبقهم اليها أمة من الأمم القديمة. وهي وإن كانت
لا توازي حضارة العصور الحاضرة المشيدة على دعائم العلم وتذليل قوى الطبيعة،
تعتبر بلا شك عظيمة جداً بالنظر لوجودها في تلك الأزمنة الغابرة. ولم تكن قاصرة
على ما يكون الغلب فيه للقوة والسلطة والصبر والمثابرة، كتشيد الصروح الشاهقة
وشق الأنهار واقامة السدود (الجزانات) بل أضافوا الى ذلك أنواع الحضارة الأخرى
من مظاهر التعم والرفاهية والتأنق وإيثار السرور، وحب العلم، والميل الى الفنون
والأشياء الجميلة. ونفصل هذه الأمور بعض التفصيل فنقول:

﴿ الزراعة وتربية الحيوان ﴾

عند قدماء المصريين

كانت الزراعة ، ولا تزال ، هي الوسيلة الطبيعية لمعيشة المصريين وسعادتهم . موافقة البلاد
للزراعة ولذلك كان أشرافهم يُشرفون بأنفسهم على الزُّرَّاع ويعملون بأيديهم كل ما يؤدي
الى طيب الزرع وخصب التربة

لم تكن طرق الزراعة تختلف كثيراً عما هي عليه الآن ، وكان أهم ما يزرعون حاصلات
مصر القديمة القمح ثم الكتَّان والذرة وحبوب أخرى . وكانوا يُعْتَوِّن بالحدائق والبساتين ، وكان
لها عندهم نظام دقيق تكثر به الفواكه وتفرُّه ، وكان العنب والتمر اكرم الثمار التي
اشتهرت بها مصر في تلك الأزمان الحالية

أما رىّ الأرض فكانوا يستعملون فيه طريقة الأحواض في الأرض التي يعلوها
النيل ، وطريقة الدلو والدالية (الشادوف) في غيرها

وكان لهم عناية عظيمة بتربية الحيوان ، ويقتنون من قُطعان البقر والغنم والمعز اشهر حيوانها
ما لا يزيد عليه إلا الإوزُ والدجاج ، وكانت الحمير من دوابهم المشهورة ، يسخرونها
في كثير من الأعمال . أما الخيل فلم يُعرف أنهم استعملوها قبل عهد الرعاة . وقد
ظهر الآن لعلماء أوربا أن مهارة المصريين في التفريخ الصناعي لبيض الدجاج ليست
قاصرة على اختراعهم فقط ، بل أن طريقتهم لا تزال أفضل الطرق مع ما بلغتْه الأمم
الحديثة من التقدم في العلوم الطبيعية

﴿ الصناعات ﴾

كان قدماء المصريين يُحسِنون كثيراً من الصناعات ، مثل صناعة نسيج الكتَّان نسيج الكتان
الرقيق والصفيق ، وصناعة الأنسجة وصناعة الخزف والزجاج وسبك المعادن من
النحاس والشَّبه (البرنز) والفضة والذهب . ولم يرد للحديد ذكر في آثارهم

صناعة الحلى
وكان لهم مهارة غريبة في صناعة الحلى . وفي دار المعاديات بالقاهرة بعض حلى
أمراء الأسرة الثانية عشرة في حالة من الإتقان لا تمتاز عنها الحلى التي تصنع في
العصر الحاضر

النجارة
وكذلك كانت صناعة النجارة ، فلم يكفد ينقصهم شيء من الآلات المستعملة
فيها الآن ، فيتخذون المصنوعات الكبيرة الحجم من خشب الجُمبُز ونحوه ، والأثاث
النفيس من الأخشاب الفاخرة المجلوبة من الممالك المجاورة ، كأبنوس السودان
وأرز لبنان وغيرها*



(كرسى مصرى قديم)

بدار الآثار المصرية رسم ف . د . د . بيريز
(مثال من دقة فن التجارة عند قدماء المصريين)

صناعة الجلود
وكانوا يحسنون صناعة دُبغ الجلود ويدخلونها في كثير من أثاث المنازل ، فيتخذون
منها المساور والمخدّات ومقاعد الكراسي والأرائك ، ويصنعون منها سيوراً لربط

* وقد عُثر بين آثارهم على صورة جميلة بها طائفة من النجارين يشتغل كل منهم في العمل
المتخصص به ، ويرى الناظر فيهم شخصاً مشتغلاً بقدر على نار يظهر أنها قدر اذابة الغراء

الجثث المحنطة منقوشة نقشاً جميلاً، ويزينون بالجلد الملون كثيراً من الآلات كالقيثار وغير ذلك مما لا ينقص عما تُستعمل فيه الجلود الآن

ومن أهم الصناعات التي أجادها المصريون صناعة الورق المتخذ من نبات البردى . صناعة الورق فكانوا يشقون سوقه شرائح يوضع بعضها بجانب بعض ، ثم يوضع كذلك فوقها طبقة أخرى شرائحها . قاطعة للأولى ، وتُلصق الطبقتان بالغراء وتُكَبَّسان وتُصَقَّلان . وبقيت هذه الطريقة مستعملة الى أوائل القرن الثالث من الهجرة ، وكان ورقها يسمى « القرطاس المصرى »

وقد برع المصريون فوق ذلك فى صناعات كثيرة ، مثل بناء السفن والقوارب ، استعمال النقود لقلة طرق المواصلة عندهم غير النيل ، ومثل عمل التماثيل والأصنام من الخشب والحجر والطين والجص ، وصناعة الآلات الموسيقية والآنية المتخذة من المعادن وحجر المرمر والرخام ، وصنع الآلات الحربية وغير ذلك مما أثبت بلا شك عظم تأثير مصنوعاتهم فى تقدم الفنون الجميلة الإغريقية

﴿ التجارة ﴾

تعوّد المصريون التجارة من أقدم أزمانهم ، فكان النيل والترع خاصة بالقوارب التي تحمل الحاصلات المختلفة ، ويجتمعون فى أسواق لا يقل ازدحامها عن ازدحام أسواق الوقت الحاضر . غير أنهم لم يعرفوا استعمال النقود فى بادئ الأمر ، بل كانوا يستبدلون بعض السلع ببعض ، ثم اتخذوا من الذهب والفضة حلَقاً وسبائك وقضباناً يتعاملون بها فى تبادل الأشياء الكبيرة ، فكانت على ما نعلم أول نوع استعمله الانسان من النقود

وما زالت تجارتهم فى نموّ حتى سلكوا البحار ، ونظموا سير القوافل ، ووصلوا جول البحار النيل بالبحر الأحمر ، وبعثوا بالبعوث البحرية للكشف عن البلاد المجهولة ، حتى صارت سفنهم تسلك البحار من المحيط الهندى الى بحر إيجة

المواد التي
أُتجروا فيها

وكانوا يجلبون من الثوبة والسودان الذهب وريش النعام والآبنوس والعاج والجلود ، ومن بلاد « بنت » وما وراءها المرّ وأنواع الصمغ العطرية والأخشاب ذات الرائحة الذكية ، ومن الشام خشب الأرز ، ومن طور سيناء المعادن وبعض الأحجار الكريمة

ويحملون الى الممالك المجاورة لهم مصنوعاتهم: من خزف وزجاج وكثان وورق ، وقد وُجدت آثارها في جزيرتي قبرس ورودس . وارتقوا في التجارة الى استنباط طرق مسك الدفاتر ، وضبط المحاسبات ، وكتابة العقود والمشارطات والوصول والصكوك ، والنظرة بها الى آجال مختلفة ، وغير ذلك من ضروريات التجارة الراقية

✽ العلوم والمعارف ✽

لا يزال الباحثون يزيدوننا كل يوم علماً جديداً بعظم مبلغ المصريين من العلوم والمعارف ، وستدوم الحال على ذلك دهرًا طويلاً . فتلک آثارهم ومبانيهم الضخمة ، وتقوشهم البديعة ، وكتابتهم العجيبة في الصوّان من غير أن يستعملوا الحديد والفولاذ أو يعرفوا الآلات الرافعة التي تُستعمل الآن ، تدلنا على درجة نبوغهم في كثير من العلوم والفنون

الفلك

ولصفاء جو مصر كان المصريون من أقدم الأمم التي اشتغلت بعلم الفلك ، وإن لم يتفق كثير من آرائهم فيه مع العلم الحديث . وقد أجمع مؤرخو اليونان أن أمّتهم لم تأخذ هذا العلم إلاّ عن المصريين ، وانهم كانوا يشتغلون به في وقت لم ينافسهم فيه إلاّ الكلدانيون . وقد عُثِر في بعض المقابر على آلات للرصد ومصوّرات عجيبة لشكل السماء ومواقع نجومها ، كما عُثِر لهم على بعض حسابات دقيقة تدل على نبغهم في علم الميقات والتقويمات . فهم أول من حسب طول السنة بالتقريب ، وكان ذلك سنة ٤٢٤١ ق . م وهو أول تاريخ مدوّن معروف . ويقال إن الهرم الأكبر كان له عندهم فائدة كبرى في حساب حركات الكواكب

أما العلوم الرياضية فالظاهر أنهم لم يبلغوا مبلغاً عظيماً في النظرى منها ، سواء العلوم الرياضية
وفن الهندسة
أكان في علم الحساب أم الهندسة النظرية ، ولكنهم ضربوا بسهم وافر في الفنون
العملية المتعلقة بها كفن الهندسة والعمارة . وحسبنا دليلاً على ذلك أن « مينا »
تمكّن في ذلك العهد البعيد (٣٤٠٠ ق . م) من بناء سدّ عظيم حوّل به مجرى
النيل ، وأن « مرترع » و « أسرتسن الثالث » حفر كل منهما قناة في صحر الصوّان ،
الأول سنة ٢٥٧٠ ق . م والثاني سنة ١٨٨٧ ق . م . وأن « امنمحت الثالث »
شيّد ذلك الخزان العظيم الذي ادّخر به جزءاً كبيراً من مياه الفيضان وأجيا بلاداً
شاسعة في إقليم الفيوم

وأما علم الكيمياء وخلط المعادن فقد كان لهم فيه قدم راسخة : يدل على ذلك
التخاذم من الشّبّه (البرنز) آلات صلبة تيسر لهم بها قطع أحجار الصوان ، وكذلك
تخنيط الموتى تخنيطاً أبقي أجسادهم أوفياً من الأحقاب ، ثم تركيب الأصباغ الثابتة
التي لا تتألف إلا بعد دراية عظيمة بخواص الحموض والأملاح والأصداء والمضويات
وساعدتهم علمهم بالكيمياء في صناعة الطب والجراحة ، فلم يفضلهم فيهما من الأمم
الطبيب
القديمة إلا اليونان بعد عصور طويلة ، وإن كانت دياتهم قد عاقتهم عن فهم تركيب
الإنسان فهماً صحيحاً بتحريمها التشریح

وهم كانوا مصدر العلوم الفلسفية والقوانين الإدارية ، وعندهم أخذتها الأمم المجاورة
الفلسفة
والقوانين
لهم ، وقد وقد اليهم من واضعى القوانين « ليكرغ » و « صولون » ، ومن الفلاسفة
« فيثاغورس » و « أفلاطون » و « إقليدس »

ومما يؤسف له أن معظم علم المصريين لم يُحفظ حتى يصل إلينا ، لأن أكثر
علمهم كان عملياً يتوارثه الولد عن والده بدون تدوين إلا ما ندر ، لقلّة الجامعات
والمدارس المفتحة الأبواب للخاصة والعامة بالنظام المعروف الآن . نعم ان « منف »
و « طيبة » و « عين شمس » كانت مهداً للعلوم والمعارف ، ولكنها كانت مقصورة على
أولاد الملوك والأمراء وأبناء بطالتهم ، أو على الكهنة وتلاميذهم

﴿ المباني ﴾

من أهم ما اشتهر به المصريون مبانيهم العظيمة الدالة على عظيم سلطانهم ، وسعة حضارتهم ، ورفيع رتبهم في العلوم عامة ، وفن العمارة خاصة ولم تكن مبانيهم بالطبع في مبدأ عصورهم بهذه الفخامة والعظمة، بل كانت تُبنى باللبن والآجر . ثم اقتلعوا الأحجار العظيمة فحُصِّوا بها بناء أهرامهم ومعابدهم ونحتوا منها مسلاتهم، وضنُّوا بها على بناء مساكنهم فلم يبق منها إلا بقايا متخربة. ومما تمتاز به مبانيهم ان قواعدها غالباً مستطيلة أو مربعة وأعلاها أضيق من أسفلها ، ولم يحاولوا زُخْرُفها بتدوير زواياها أو إقامة القباب والمنائر والأبراج عليها . وبالرغم من كل ذلك تمتاز مبانيهم بأن منظرها مُشعر بعظم القوة ، وضخامة السلطان ، وسعة العلم ، ودقة الصنعة

مميزات المباني
المصرية

﴿ التصوير وصناعة التماثيل ﴾

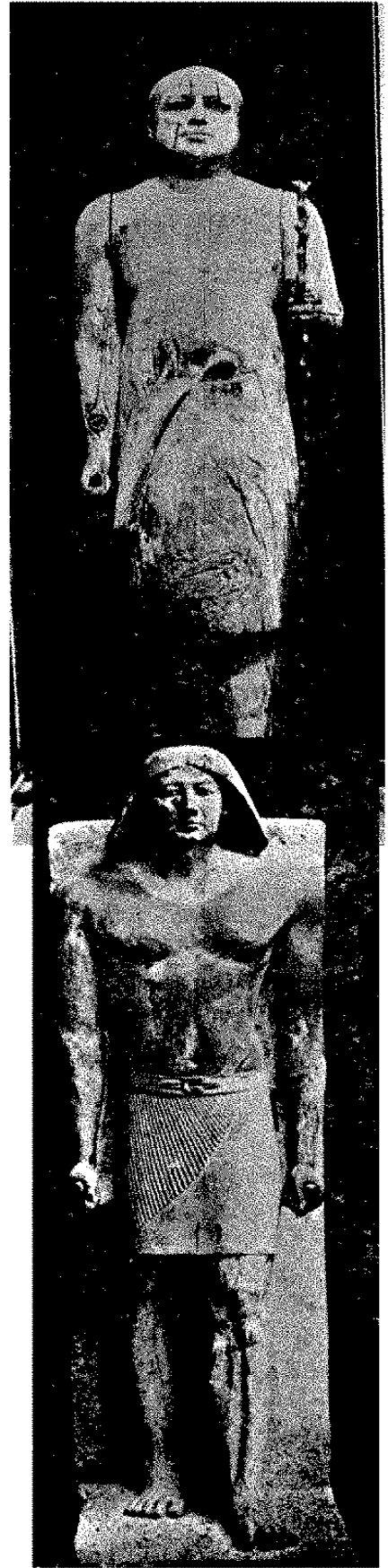
كان للمصريين ولع عظيم بالرسم والتصوير ، وميل الى استعمال الأصباغ الزاهية التي يتألف من اجتماعها منظر أنيق لا يُكَلِّ البصر ولا يُفرِّقه . وكان لهم ذوق سليم في رسم النبات والحيوان ، وكانت صور الأناسيِّ وتماثيلهم غاية في الاتقان وملائمة الطبيعة ، غير انه طرأ عليها بعد عهد الأسرة الخامسة شيء من الاصطلاح والرمز أضع بعض روعتها وتناسبها وإن لم يذهب باتقانها . ومن أبداع التماثيل التي وصلت إلينا من تلك المصنوعة البعيدة علاوة على تماثيل الملوك الذين تكلمنا عليهم :

- (١) التمثال الخشبي المعروف بشيخ البلد . (٢) تمثال (رَع نِفِر) أحد كهنة منف .
- (٣) الأميرة المصرية القديمة (نِفِرْت) وزوجها . (٤) تمثال الكاتب . وجميعها من عهد الدولة القديمة ومحفوظ الآن بدار الآثار المصرية

طوره الرمز
والاصطلاح
في التصوير



(٢)



(٣)

(٤)

(١) شيخ البلد (رسم على الهندى يوسف) . و (٢) الكاتب .
 و(٣) الاميرة نفرت وزوجها . و (٤) رع نفر (رسم ف. د. بيرز)

نماذج من التماثيل المصرية

﴿ الكتابة واللغة ﴾

لا يكاد يوجد شك في أن الكتابة المصرية أقدم كتابة في العالم . والأرجح أن الفينيقيين أخذوها عن المصريين ببعض تغيير ، وعن الفينيقيين أخذت الأمم . فكانت أساساً لكتابة جميع الأمم المتعدنة في العصر الحاضر

تدرج الكتابة
الهيروغليفية

وتشتهر الكتابة المصرية باسم « الكتابة الهيروغليفية » ، وكانت في أول أمرها مكوّنة من صور الحيوان والنبات والأشياء المتداولة : كل صورة منها رمز لمعنى أو معنيين أو أكثر . ثم دخل عليها بعض تنقيح واختصار ، فنشأت منها الكتابة « الهيراطيقية » ، ثم هذبت هذه أيضاً ونشأت الكتابة « الديموتيقية » ، غير أنهما لم تنسخا الأولى ، وبقيت تُستعمل في النقش على المباني والآثار الدينية . وقُصرت الحديثان على المكاتبات التجارية والتأليف وكل ما ينبغي فيه السرعة

اللغة المصرية
وآدابها

أما اللغة المصرية فقد تقلّبت في أطوار عديدة انتهت باللغة القبطية الأخيرة التي بقيت الى حوالي القرن الرابع عشر بعد الميلاد . وبالرغم من اختلاف تلك اللغات كان لهم لغة رسمية تحاكي في كل عصر من عصورهم في معظم كتاباتهم الأثرية . ويظهر من ألوف أوراق البردى التي عُثِرَ عليها ومن نقوش هياكلهم أنه كان لهم لغة ذات آداب راقية وشعر رقيق نظموا به كثيراً من القصص والأغاني ، وكتبوا كتباً شتى ، غير أن معظم ما وصل منها الينا ليس إلا قطعاً مشتتة لا يتأني تأليف كتاب واحد منها . وأهم مجموعة وصلت الينا هو « كتاب الموتى » المشتمل على معتقداتهم وأخبار آلهتهم ومواعظهم وزواجهم

﴿ العادات والأخلاق ﴾

وصل الينا كثير من عادات قدماء المصريين من أشهرها :

انهم كانوا يتوارثون الحِرَف والصناعات ، ويتناولون ما ينقى المعدة كل شهر ،

تاريخ (١٠)

ويتزوجون بالاخت ، ويجمعون بين التمتع بطيب العيش والتخشن فيه ، وينهون
عن الانهماك في الترف

حب الموسيقى

ومن عاداتهم صنيع الولاثم في المواسم والأعياد ونحوها في وقت الظهر ، فيحضرها
الرجال والنساء ، فيأكلون ويشربون على سماع الموسيقى وغناء الرجال والنساء ، ثم
يدخل الراقصون والراقصات فتعزف الموسيقى ويصحبها تصفيق الأيدي حتى
ينتهي الرقص

المعيشة المنزلية

وكان المصريون في حياتهم المنزلية يميلون الى التمتع بالطعام الجيد ، والى فرش
مازلهم بالأمته الثمينة وترتيبها على أحسن نظام . وكان أكثر المصريين يخلقون
لحاهم وشواربهم ، وربما أبقى الملك أو العظيم عشوناً في ذقنه . وكانت الملوك والأشراف
يتزينون بالشعور المستعارة ويعنون بترجيلها وتجميدها . ومن العامة من يحلق رأسه
ويلبس قلنسوة ، ومن يرسل شعره على كتفيه

افضل الاخلاق
في نظر المصريين

أما أخلاقهم فيستدل من كلماتهم الماثورة « أن أحسن الرجال في نظرهم من كان
قوى الجأش والإرادة ، مستقيماً ، محترماً لنفسه ، محتجباً أخلاًء السوء ، نشيطاً ، صادقاً
لا يعرف الغش ولا التمويه ، حازماً ، متبصراً حافظاً لكرامة نفسه بلا تكبر ولا تعاضم .
وكانوا يميلون الى الثقة بأنفسهم ، وحب أعاضم الرجال وتقليدهم ، ويمقتون الحسد
بوجه خاص

﴿ التربية والتعليم ﴾

كانت الأمهات يقمن بأمر تربية الأطفال ، فاذا شبوا أرسلوا الى الأساتذة ليتعلموا
ما اختير لهم من صناعة أو علم . ومما أثر عنهم قولهم للصبي : « انصرف الى العلم
وأجبه كما تحب أمك ، إذ لا شيء أئمن من العلم . ولا تصرف يوماً في اللهو والكسل

بعض نصائح
للأطفال

وإلا ضربت بالسوط . وقولهم : « لا تنسَ احترام من هم أسنُّ منك أو أكبر منزلة ، ولا تجلس وهم واقفون »

وكان أبناء الملوك والأمراء والأشراف يُعلَّمون في مدارس تُنشأ في منازلهم، ويضم إليهم من في سنهم من أبناء خواصهم وكان للمرأة من العناية والتعليم والحقوق ما للرجل تقريباً؛ بدليل ان منهن من شغلن المناصب العامة وتولين الملك*

وكان المصريون لا يهملون أمر الرياضة البدنية . فكانت الكرة يلعبها الصغار الالاب الرياضية والكبار، وكان للصغار ألعاب أخرى منتظمة، كما كان الكبار يحبون الصيد والقنص والمصارعة، التي نرى منها نموذجاً بديعاً على مقابر بنى حسن

✽ الحكومة وحالة السكان ✽

كانت الحكومة المصرية القديمة في جميع أطوارها ملكية غير دستورية . وكان الملك فيها ممجّداً محبوباً، تعقد الأمة أنه الواسطة بينها وبين الآلهة . وهو القابض على كل شيء : فهو الذى بيده التشريع والقضاء، وهو الذى يضرب الضرائب فيفرض منها ما شاء (وذلك مخالف بالمرّة لشكل الحكومة عند الإغريق والرومان) . وكان يتخبر له من بين رجاله وزيراً يكل إليه الإشراف على جميع مصالحه ودواوينه وقد تحلّت تلك الآلاف من السنين فتراتٌ كاد الأمراء والأشراف فيها يسلبون الملك بعض سلطته، كما رأينا عند الكلام على العهد الإقطاعى، ولكن انتهى الأمر باسترداد الملك سلطته، فصار كما كان : المليك المُمَلِّك

أما سكان البلاد فكانوا على عدة طبقات : الأولى طبقة الأشراف، وهم الذين طبقات السكان كان يقلدهم الملك مناصب الحكومة، وكانوا يعيشون في سعة وبَدَخ، ولبعضهم من * من ذلك أن « نيتوكريس » و « حنشبوت » جلسا على سرير الملك وان امرأة أخرى تقلدت منصب رئاسة كهنة « أمون » في أيام النهضة المصرية

القصور والخدم والحاشية ما يضارع به الملك . وأما الطبقة الوسطى فكانت في العصور الأولى مكوّنة من الصناع ، كالمصاغة والزجاجين وغيرهم . وفي عهد الدولتين الوسطى والحديثة زاد عدد هذه الطبقة وكثرت ثروتها ودخلت فيها طائفة الكتبة . وأما الطبقة الدنيا فكانت أشبه بالموالي في البلاد ، مع أنهم هم الموالدون فعلاً لثروة الأمة والبناء الحقيقيون لأهرامها . على أنه لم يكن هناك فاصل مانع بين هذه الطبقات ، فكثيراً ما كانت تدرّج الأفراد من طبقة الى أخرى ، وقد حدث أن رجلاً من غير حملة الألقاب تدرّج حتى تولى عرش الملك . وفي عهد الدولة الحديثة دخل عدد كبير من الطبقة الوسطى في الجيش ، فاكسبوا لأنفسهم مالاً وجاهاً عظيمين ، وكوّنوا منهم أسرات شريفة

﴿ الديانة ﴾

تنوّعت ديانة قدماء المصريين على طول السنين ، فكانوا في أول أمرهم يعتقدون بوجود إله واحد عظيم حتى بقي ، ورمزت له كل قبيلة برمز خاص ، ثم رمزوا لصفات هذا الإله الواحد برموز صارت بعدئذٍ معبودات . ثم عبدوا الكائنات الطبيعية التي لها تأثير في حياتهم ، كالشمس والقمر والأرض والنيل ، ورمزوا لصفات كل منها بأشكال خاصة صارت معبودات أيضاً، حتى نسوا التوحيد وصاروا قاصراً على الكهنة . ثم اعتقدوا بجلول الآلهة في أجساد الحيوان . فعبد كل قوم ما رأوا أن روح الإله حلت فيه كالتقط والكلب والتمساح ونوع من العجول يسمى « أيس » وهو أهم معبوداتهم الحيوانية*

وكان لكل من هذه المعبودات منزلة أكبر في بعض الجهات منها في غيرها .

* العجل أيس هو في اعتقادهم الحيوان الذي تمثل فيه المبود « قتاح » وكانوا يختارونه من بين مولودات البقر باجتماع عدة أوصاف فيه كسواد جلده ووجود شامة بيضاء مثلثة الشكل على جبهته . وكان يوم الاهتداء اليه يوم سرور عام ، كما كان يوم موته ابتداء حزن عام يستمر الى العشر على عجل آخر فيه جميع الصفات المطلوبة . وكانوا يحتفلون بدفنه احتفالاً عظيماً ، ولهذا العجل مقبرة هائلة ما زالت تشاهد بسقارة الى الان

وكثيراً ما حدثت قتن ومشاحنات بين سكان الجهات بسبب تفضيل بعض هذه المعبودات على بعض . واكبر المعبودات في الجملة ما كان مقره حاضرة الملك وكانوا يصورون هذه الآلهة بصور مختلفة . منها ذات الرؤوس البشرية ، ومنها ما رأسه رأس بهيمة ، وما رأسه رأس طير ، ويلقبونها بأسماء مختلفة ، منها « فتاح » للإله الأعظم ، و « رع » و « أمون » لإله الشمس و « أوزيريس » للشمس عند الظلام . وجعلوا لكل منها معابد وأوثاناً خاصة . وكان أهم معبد لرع بمدينة « أون » (عين شمس) ، كما كانت « طيبة » . مقر عبادة « أمون » ، و « منف » مقر عبادة « فتاح » . وكان تشييد هذه المعابد وتدوين الحوادث عليها من أكبر مطامع الفراعنة ومفاخرهم . وكان قدماء المصريين شديدي التمسك بدينهم : يعتقدون بيعث الأجسام بعينها ، ولذلك بالغوا في تحنيط أجساد موتاهم وحفظها في مقابر منيعة . ويرجون الثواب ، ويخشون العقاب في اليوم الآخر ، فكان للدين تأثير شديد في عاداتهم وأخلاقهم وعلمهم ومبانيهم وصناعاتهم . ومن اهتمامهم العظيم بالدين وأمر الآخرة أن صار أكبر رغبة لأي شخص منهم أن يُحتفل بدفنه احتفالاً عظيماً

الفصل الحادي عشر

كلمة في الفينيقيين

الفينيقيون أمة سامية قديمة كانت تنزل ساحل الشام من سفح لبنان الى البحر الأبيض المتوسط . وقد ابتدأ ظهور مدينتهم في عهد الدولة الوسطى من قدماء المصريين ولما كانت بلادهم وسطاً بين الشرق والغرب وشواطئها كثيرة الفرض والمرافئ الصالحة لرُسوف السفن وانشاء الموانئ التجارية ، اتفع الفينيقيون بهذه المزايا ، فتقدموا في التجارة والملاحة حتى فاقوا غيرهم فيهما . ولما ضاقت بلادهم بهم اضطروا الى

مواقفة البلاد
الفيليقية للتجارة

غيرها ، فانشئوا لهم مستعمرات عديدة في الممالك التي يعاملونها ، غير ناظرين إلى امتلاكها السياسى والحربى ، بل ينزلونها بالاتفاق مع أهلها مسلمة ، فكانت أشبه بأسواق ومحطات تجارية منها بملكات خارجية . ولشدة عنايتهم بالتجارة لم يهتموا بحالتهم الحربية أو السياسية ، فخضعوا لحكم المصريين ، ثم الأشوريين والبابليين ، ثم الفرس ، ومن بعدهم اليونان ، ثم الرومان

ولم تكن « فينيقية » مع صغر حجمها خاضعة لحكومة واحدة ، بل كانت كل مدينة بضواحيها وقراها حكومة صغيرة قائمة بذاتها . وكثيراً ما كانت تلك المدن تعترف بالزعامة لأقواها . وقد تولى هذه الزعامة بالتناوب مدينتان عظيمتان : « صيدا » ، ثم « صور » . وبذلك كان تاريخ عظمتهم يرجع الى عهدين : العهد الصيداوى (٢٢٠٠ - ١٢٠٠ ق . م .) وفيه احتكروا تجارة المشرق برّاً وبحراً الى سنة ١٥٠٠ ق . م . ، ثم نافسهم اليونان في بحر الأرخيل وأجلوهم عن جزائره وكثير من مستعمراتهم الشرقية ، فانتهاز الفلستينيون فرصة ضعفهم فاستولوا على مدينتهم « صيدا » وخرّبوها ؛ والعهد الصورى (١٢٠٠ - ٥٧٤ ق . م .) وفيه خلفت « صور » صيدا ، إلا أنهم حولوا وجهتهم التجارية إلى الغرب حتى جزائر برطانية الى أن أخضعهم الأشوريون ثم البابليون تحت قيادة بُحْتَنْصَر ، ثم الفرس ثم الاسكندر ثم البطالسة ، وعلى أيدي هؤلاء انتهى تاريخهم من سوريا وتجدد في إفريقية

وجود عدة
حكومات صغيرة
بفنيقية

أهم المدن
الفنيقية

﴿ الفينيقيون والتجارة ﴾

كان الفينيقيون يسلكون مشارق الأرض ومغاربها برًا وبحرًا إلى جميع الأمكنة التي يمكنهم أن يتجروا فيها . فكانت قوافلهم تصل الى آشور وإلى بلاد العرب ومصر ، وسقنهم لا ينافسها في التجول في البحار سوى سفن « قَرطاجنة » التي هي احدى مستعمراتهم المستقلة بذاتها . فكانوا يتاجرون شرقًا مع الهند ، وغربًا مع اسبانيا وبرطانية ، بل مع بعض الجهات التي على شواطئ البحر البَلطى . وقد سبق في الكلام على مصر ذكر طوافهم بأسطولهم حول سواحل افريقية ، فهم بذلك أقدم أمم الأرض البحرية التجارية . وكانوا يتجرون بحاصلات بلادهم وحاصلات جميع البلاد التي يذهبون اليها . فكانوا يجلبون إلى فينيقية التوابل والأفاويه والصمغ من بلاد العرب ، والعاج والآبنوس والمنسوجات من الهند ، وخيوط الكتان والفلال من مصر ، والصوف والخمر من دمشق ، والأقمشة المطرزة من بابل وبنينوى، والفخار من بلاد اليونان ، والخيل والمعجلات من أرمينية ، والنحاس من شواطئ البحر الأسود ، والرصاص من اسبانيا والقصدير من جنوبي برطانية ، ثم يرسلونها الى البلاد التي تطلبها مع ما اشتهرت به فينيقية ذاتها من الحاصلات ، وخصوصاً الأصباغ وخشب الأرز والزجاج

اتجار الفينيقيين
في حاصلاتهم
وحاصلات غيرهم

وهذه التجارة الواسعة دعت الفينيقيين كما قدّمنا الى اتخاذ أنزال عديدة لهم في جهات مختلفة ، كقبرس وروُدس وجزائر بحر الأرخيل وصِقْلِيَّة وجزائر البليار وكيليكيا (في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى) وبعض جهات اسبانيا ، وأهم ذلك جميعاً « قَرطاجنة » التي أسسوها في شمالي افريقية على مقربة من تونس الحالية في القرن التاسع ق . م

المستعمرات
الفيبقية

ولقد تقدمت هذه المدينة تقدماً عظيماً فيما بعد وصارت حاضرة لمملكة عظيمة ، نافست الرومان زمناً طويلاً . وسيأتي ذكرها عند الكلام على الرومان

﴿ الفينيقيون والمدنية ﴾

كان الفينيقيون على جانب عظيم من الإقدام والنشاط ، ف ضربوا بسهم وافر في التجارة والملاحة ، وقد سبق الكلام عليهما . وكانت لهم أيضاً شهرة ذائعة في بعض الصناعات كالتعدين والصبغة والحياكة والتطريز وتركيب الأصباغ وعمل الزجاج وبناء السفن . غير أنهم لم يكن لهم باع طويل في استنباط قواعد العلوم والمعارف ، وإن كانوا قد خدموا الحضارة بنقلهم آراء بعض الأمم وعلومها الى بعض وأعظم خدمة خدمها الفينيقيون للعلم والمدنية نشرهم الحروف الهجائية بين الأمم . ولم يُعرف بعدُ بالجزم عن نقلوا تلك الحروف ، ورأى بعض المؤرخين أنهم نقلوها عن المصريين . على أنهم استخدموا في حُسبانهم حروفاً علّموها للإغريق ، ومن هؤلاء انتشرت في الأمم الأوربية الأخرى مع تعديل قليل

نشر الفينيقيين
للحروف
الهجائية



ملخص

أهم الحوادث التاريخية في عهد الفراعنة

التاريخ ق م	مصر	البلاد الأجنبية
٤٢٤١	ابتداء استعمال التقويم (أول تاريخ معروف في تاريخ العالم)	
٤٠٠٠	العهد الذي لا شك في وجود حضارة فيه بمصر السفلى والعليا	
٣٤٠٠	ابتداء حكم « مينا » وتوحيد مملكتي الشمال والجنوب	
٢٩٨٠ - ٣٤٠٠	الاسرتان الاولى والثانية — مدة حكمهما ٤٢٠ سنة ومقر ملكهما « طينة » — مقابرهما بجهة ايدوس — استخراج المعادن من شبه جزيرة سيناء	
٢٩٠٠ - ٢٩٨٠	الاسرة الثالثة — مدة حكمها ٨٠ سنة ومقر ملكها « منف » — « بني زوسر » هرم سقارة المدرج — أرسل « اسنفرو » أسطولاً الى لبنان	
٢٧٥٠ - ٢٩٠٠	الاسرة الرابعة — مدة حكمها ١٥٠ سنة ومقر ملكها « منف » على الاربع — آثارها : أهرام الجيزة وأبي رواش	
٢٨٧٧ - ٢٩٠٠	أهم ملوكها : خوفو باني الهرم الاكبر بالجيزة	
٢٧٧٤ - ٢٨٦٩	خفرع « الثاني » منقرع « الصغير »	
٢٦٢٥ - ٢٧٥٠	ازدياد نفوذ كهنة « رع » بين شمس الاسرة الخامسة — مدة حكمها ١٢٥ سنة ومقر ملكها « منف » — آثارها : اهرام بوسير وسقارة	
٢٧٤٣ - ٢٧٥٠	أهم ملوكها : أوسركاف — وصوله الى الجنادل الاولى	
٢٧٢١ - ٢٧٤٣	سحورع — أول حملة الى بلاد « بنت »	
٢٦٢٥ - ٢٦٥٥	أوناس	
٢٤٧٥ - ٢٦٢٥	الاسرة السادسة — مدة حكمها ١٥٠ سنة ومقرها « منف » آثارها : أهرام بسقارة	
٢٥٧٠ - ٢٥٩٠	أهم ملوكها : يبي الاول (خمس بنتات الى سيناء وبعثة الى فلسطين — بسط نفوذه في شمالي النوبة)	
٢٥٦٦ - ٢٥٧٠	مرنرع الاول (قناة في الجنادل الاولى — خضوع أمراء النوبة)	
٢٤٧٦ - ٢٥٦٦	يبي الثاني (أطول حكم في التاريخ — غزوة في شمالي النوبة — علاقات تجارية مع السودان وبلاد بنت ولبنان وجزائر بحر ابيج)	

البلاد الأجنبية	التاريخ ق م	مصر
	٢٤٧٥ — ٢١٦٠	الاسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشره — اضطراب واضمحلال في عهد ملوك ضعفاء — ابتداء نحو « طيبة »
قيام دولة آشور ظهور أول أسرة من ملوك بابل	٢١٦٠ — ٢٠٠٠	الاسرة الحادية عشرة — مدة حكمها ١٦٠ سنة ومقرها « طيبة » . استولت على القوة شيئاً فشيئاً خصوصاً في عهد « سنخرع منتوحتب » وهو آخر ملوكها
ارتقاء دولة بابل وجود ميناء فيلبقى عظيم	٢٠٠٠ — ١٧٨٨	الاسرة الثانية عشرة — مدة حكمهما ٢١٣ سنة ومقرها « لشت » ومدينة بالفيوم
	١٩٧٠ — ٢٠٠٠	أهم ملوكها : (١) امنمحتت الاول (بلوغ نظام الاقطاع أكمل الدرجات — هرم بجمة لشت)
« حمورابي » ملك بابل (١٩٠٠)	١٩٣٥ — ١٩٨٠	(٢) أسرتسن الاول (غزو بلاد الكوش — هرم بجمة لشت)
	١٩٣٨ — ١٩٠٣	(٣) امنمحتت الثاني (هرم بجمة دهشور) تقدمت البلاد
	١٩٠٦ — ١٨٨٧	(٤) أسرتسن الثاني (هرم بجمة / تقدماً عظيماً اللاهون)
	١٨٨٧ — ١٨٤٩	(٥) أسرتسن الثالث (قناة جديدة في الجنادل الاولى — اخضاع بلاد النوبة الى الجنادل الثانية — غرورة في الشام — اضمحلال قوة أمراء الاقاليم — أقدم شيء وصل اليها من الادبيات المصرية . كتاب الموني — (هرم بجمة دهشور)
	١٨٤٩ — ١٨٠١	(٦) امنمحتت الثالث (نمو كبير في موارد الثروة — تنظيم النيل — قصر لابرنث — انشاء أراض بالفيوم — هرم بجمة دهشور)
محاربة الحثيين ملك بابل وغزوهم بلادهم	١٧٩٢ — ١٨٠١	(٧) امنمحتت الرابع (اضمحلال الدولة
	١٧٨٨ — ١٧٩٢	(٨) الملكة سيكتنفروع (الوسطى وسقوطها
	١٧٨٨ — ١٥٨٠	من الاسرة الثالثة عشرة الى السابعة عشرة — مدتها ٢٠٨ سنوات — اضطراب كبير وحروب داخلية — مدة حكم الهكسوس (١٦٧٥ — ١٥٨٠ ق م تقريباً)
اضمحلال دولتي آشور وبابل	١٥٨٠ — ١٣٥٠	الاسرة الثامنة عشرة — مدة حكمها ٢٢٠ سنة ومقرها « طيبة »

• وضع هذه العلامة قبل اسم الملك يدل على أن جثته الآن بدار الآثار المصرية

مصعتر	التاريخ ق م	البلاد الأجنبية
أهم ملوكها: • أحس الاول (طرد الهكسوس حوالى ١٥٨٠ واستتصال شأفة الملك من الامراء وارجاع الاراضى الى الملك — أول جيش قائم — غزوة بالشام)	١٥٨٠ — ١٥٥٧	خضوع غربى سورية لمصر
• أمنحتب الاول (غزوة بالشام) • تحتمس الاول (غزو بلاد الكوش والشام الى وادى الفرات)	١٥٥٧ — ١٥٠١	
تحتمس الثالث وحتشبسوت (تشييد مبان عظيمة — أرسلت الملكة بعثة الى بلاد بنت)	١٥٠١ — ١٤٤٧	تحالف الحثيين
تحتمس الثالث وحده (١٧ غزوة بآسيا من ١٤٧٩ الى ١٤٥٩ ق م — قهر ملك قادش ومد أملاك الدولة من وادى الفرات الى الجنادل الرابعة — نمو الاسطول المصرى — انشاء مبان عظيمة بالكرنك — ازدياد عظيم فى تزوة البلاد)	١٤٤٧ — ١٤٢٠	الحثيون والاشوريون والبابليون يعتنون ولاهم لتحتمس الثالث — زهاء الموانى الفينيقية
أمنحتب الثانى (حفظ كيان الدولة)	١٤٢٠ — ١٤١١	
• تحتمس الرابع (« « «)	١٤١١ — ١٣٧٥	
• أمنحتب الثالث (أزهى عصور الدولة الحديثة — بلوغ « طيبة » أعظم مبلغ من الفخامة — انشاء معابد هائلة — خطابات تل العمارنة — ابتداء هجرة الاحناس السامية الى الشام وفلسطين — اغارة الحثيين على شمالى الشام)	١٣٧٥ — ١٣٥٨	
اخناتون (انقلاب دينى ونشر مذهب التوحيد — هجر « طيبة » وانشاء « اخناتون » — تل العمارنة) — خطابات تل العمارنة — غزوا الاجناس السامية لمعظم الشام وفلسطين — انحلال أملاك الدولة فى آسيا — خلل عام وسقوط الاسرة الثامنة عشرة	١٣٥٨ — ١٣٠٥	
الاسرة التاسعة عشرة — مدة حكمها ١٤٥ سنة ومقرها « مدينة رمسيس »	١٣٠٥ — ١٣١٥	
أهم ملوكها: • حرمح (الرجوع الى الديانة القديمة وعبادة	١٣١٥ — ١٣٠٥	

البلاد الأجنبية	التاريخ ق م	مصر
		« أمون » — إعادة تنظيم الحكومة (رمسيس الاول (بده البهو العظيم بالكرنك)
ازدياد نفوذ الحثيين في الشام	١٣١٥ — ١٣١٤ ١٢٩٢ — ١٢٩٣	« سبتى الاول (استرجاع فلسطين — استمرار في تشييد البهو العظيم — استخراج الذهب من مناجم النوبة
	١٢٩٢ — ١٢٢٥	« رمسيس الثاني (حروب في آسيا خصوصاً مع الحثيين من ١٢٨٨ الى ١٢٧١ — اتمام البهو العظيم بالكرنك — مبان هائلة في جميع انحاء البلاد)
تأهب اللوبيين للزحف على شمالي مصر	١٢٢٥ — ١٢١٥ ١٢١٥ — ١٢٠٩ ١٢٠٠ — ١٠٩٠	« منفتاح (غزوة في الشام — قهر اللوبيين) « سبتى الثاني (اخراج بنى اسرائيل من مصر؟) الاسرة العشرون — مدة حكمها ١١٠ سنة ومقرها « مدينة رمسيس »
زحف « سكان البحر » على الشام وقهرهم الحثيين	١١٦٧ — ١١٩٨	« رمسيس الثالث (٤ حروب مع اللوبيين وسكان البحر في سنة ٥ و ٨ و ١١ و ١٣ من حكمه — ازدياد نفوذ الكهنة)
استمرار زحف اللوبيين شرقاً	١٠٩٠ — ٩٤٥	الاسرة الحادية والعشرون — مدة حكمها ١٤٥ سنة ومقرها « تنيس » — اشترك الكهنة وأمراء تنيس في الحكم
	٩٤٥ — ٧٢٢	<u>عهد اللوبيين</u>
	٧٤٥ — ٩٤٥	الاسرة الثانية والعشرون — مدة حكمها ٢٠٠ سنة ومقرها « بوبسطة » — قيام دولة مستقلة بالنوبة في آخر هذا العهد
اتساع نطاق مملكة آشور غرباً حتى وصلت الى البحر الابيض المتوسط — حكم اشور آحي الدين	٧١٨ — ٧٤٥ ٦٦١ — ٧٢٢	الاسرة الثالثة والعشرون — مدة حكمها ٢٧ سنة ومقرها « بوبسطة »
(٦٦٨ — ٦٨١) واتساع دولة اشور اتساعاً سريعاً	٧٢١	<u>عهد الاتيويين والاشوريين</u>
	٧١٢ — ٧١٨	استيلاء « بنخى » الاتيويين على الوجه القبلي — اضدهلال أمير بوبسطة وظهور أمير « سايس » (صا الحجر) — خضوع الجميع للاتيويين
	٧١٢ — ٦٦٣	الاسرة الرابعة والعشرون — اسمها أمير « صا الحجر » بعد انجلاء الاتيويين — تولى ملكها ملك واحد ٦ سنوات بمدينة صا الحجر ثم عاد الاتيويون وابدوها
	٦٦٣ — ٧١٢	الاسرة الخامسة والعشرون (اتيوية) — مدة حكمها ٥٠ سنة

البلاد الأجنبية	التاريخ ق م	مصر
حكم اشور بانيبال ملك اشور (٦٦٨ - ٦٢٦)		ومقرها « نباتا » - دخول « اشور آحي الدين » (ملك أشور) مصر (٦٧٠) - رجوع الاتيويين وانادتهم الحامية الاشورية (٦٦٣) - استيلاء الاشوريين على البلاد ثاية وطردهم الاتيويين نهائياً (٦٦١ - ٦٥٤)
حكم « نيبوإصار » ملك بابل (٦٢٦ - ٦٠٥)	٦٦٠ - ٥٢٥	<u>النهضة المصرية</u>
سقوط دولة آشور (٦٠٨ - ٦٠٦)	٦٦٠ - ٥٢٥	الاسرة السادسة والعشرون - مدة حكمها ١٣٨ سنة ومقرها « سايس »
استقلال دولة بابل ٦٠٦	٦٦٣ - ٦٠٩	اهم ملوكها : (١) ابستيك الاول (اقام مدة تحت حماية الاشوريين - عهد نهضة عظيمة ورقي - استيطان الاغريق بمصر)
حكم بختنصر ملك بابل (٦٠٥ - ٥٦٢) - تأسيس كورش لدولة الفرس (٥٥٠ ق م)	٦٠٩ - ٥٩٣	(٢) نحاو (محاولة البابليين الاستيلاء على مصر وقهر « بختنصر » نحاو بمجة قرقيش (٦٠٥) - ضياع الشام من يد المصريين - الطواف حول افريقية)
حضور صولون المشرع الاغريقي الى مصر	٥٦٩ - ٥٢٥	(٣) احسن (عصر زهاء وورقي - ازدياد استيطان الاغريق بمصر - تنقيح القوانين المصرية)
	٥٢٥	(٤) ابستيك الثالث - حكم بضعة أشهر ثم دخل الفرس مصر

الباب الثاني

عهد الاغريق والرومان

الفصل الاول

كلمة في الاغريق

وحروبهم مع الفرس

أمة الإغريق أقدم أمم أوروبا حضارة ؛ ومن حضارتهم أخذت أوروبا كثيراً من أصول مدينتها الحاضرة . وأقدم ما يُعرف من تاريخها مقتبس من أشعار «هوميروس» الشاعر الإغريقي القديم . ولا نعرف يقيناً العصر الذي وُجد فيه ذلك الشاعر الكبير ، وإنما الأرجح أن العصر الذي وصفه في أشعاره ، والذي عاش لا محالة زمنًا منه ، يمتد من سنة ١٠٠٠ الى سنة ٨٠٠ ق . م . ولا ريب أن أكثر الحوادث التي دوّنها في شعره خرافية ، لكنها مع ذلك توقفنا على حقائق جمة من أحوال الإغريق في تلك الأيام ، فمنها أن البلاد كانت يحكمها ملوك يساعدهم مجلس من الأعيان ويعرضون أحكامهم الهامة على هيئة مختارة من جميع الأمة ، وأن الرجال كانوا يحترمون النساء (وإن كانوا لم يمنحوهن الحرية التامة) ، وأنه كان بالبلاد عدد عظيم من العبيد يُسخرون في أشتق الأعمال ، وأنه كان للإغريق معبودات عدّة تمثل القوة الطبيعية . وكان القوم في تلك الأيام يُعجبون بالحرية والجمال وأصالة الرأي

هوميروس
الشاعر الاغريقي
القديم

التاريخ المستمد
من شعر
هوميروس

وبعد أن اتقضى عصر « هوميروس » جاء عصر مظلم لا نعرف عنه شيئاً ولا نسمع فيه لبلاد الإغريق ذكراً في التاريخ حتى سنة ٦٠٠ ق م . وفي هذا العهد الجديد نراها مغايرة في كثير من الوجوه لما كانت عليه في العهد الهوميروى . فتأخرت حالة المدن العظيمة وأصبحت قرى صغيرة ، ودخلت البلاد شعوب جديدة ، وقبى جانب كبير من فروسية تلك الأيام الأولى . ونذكر الآن شيئاً من حالة بلاد الإغريق منذ ابتداء التاريخ الصحيح فنقول :

كانت بلاد الإغريق في أول الأمر عبارة عن ولايات عديدة منفصل بعضها
عن بعض بلا علاقة سياسية تربطها . ولما كانت البلاد جبلية ، تقسمها الجبال الشاهقة
الى وديان كثيرة ، تكونت فيها بالطبع عدة ولايات بقيت بسبب هذه الجبال
وصعوبة المواصلات متقاطعة مدة طويلة . ولم يكن ما يسمى ببلاد الإغريق قاصراً
على شبه جزيرة اليونان ، بل كانت تشمل أيضاً على نواح كبيرة من ايطاليا وجزيرة
صقلية وآسيا الصغرى . فكلما حل الإغريق بأرض جال بفكرهم أنها جزء من بلادهم
وأينما ذهبوا كوّنوا لهم ولاية مستقلة حول كل مدينة كبيرة أو صغيرة . وكانت لتلك
المدن حكومات وجيوش قائمة بذاتها ، وكثيراً ما كانت تضرب كل ولاية تقوداً لها
مغايرة لتقود الأخرى

أما نظام الحكومة في هذا العهد الجديد فقد تغير نوعاً ما عن نظيره في عصر
هوميروس ، فأصبحت « إسبرطة » وحدها تقريباً هي الولاية التي بقيت فيها
الحكومة الملكية ، وكان فيها دائماً حاكماً . وأما الولايات الأخرى فبعضها كان
يحكمها عدد من الأعيان وبعضها كانت القوة فيها للأمة . ولم تتغير الحالة الاجتماعية
كثيراً عن عهد « هوميروس » ، فلم يزل مركز المرأة مستقلاً ، والرق مباحاً ، حتى
أنه في بعض المدن الكبيرة مثل « أثينا » و « كورنثة » كان عدد الأرقاء أكثر
من عدد الأحرار

وبقيت المعبودات كما هي منذ أيام هوميروس . وكان للإغريق عدة أماكن

معبودات
الإغريق

يؤمنونها من جميع الولايات لمناجاة الآلهة واستفتائها ، وأهمها معبد « أبولون » بجهة
دلفي « على سفح جبل « برناسيس » ، فكان اجتماعهم هذا بمثابة رابطة تربط
جميع الإغريق ، ولذا سمّوه بالجامعة الهلانية نسبة الى الهلانيين « أو « الإغريق »
والاعلام الاولية ومن الروابط الأخرى التي كانت تربطهم « الألعاب الأولمبية » ، وهي ألعاب
رياضية كانوا يعقدون لها حفلة كل أربع سنوات بأرض « أولمبيا » بمقاطعة « بلوبونيز »
تكريماً للمعبود « زيوس » * وهو أشهر معبوداتهم

* ولايات بلاد الإغريق *

الولايات الشهيرة التي كانت تتألف منها بلاد الإغريق الأصلية هي :

- (أ) « إسبرطة » و « أرجوس » و « مسينية » بالجزء الجنوبي ، وكانت تسمى
« بلوبونيز » (مورة)
- (ب) « كورنثة » على برزخ كورنثة
- (ح) « أثينا » و « طيبة » في الجزء الأوسط من شبه الجزيرة

وكانت « اسبرطة » أهم ولايات بلوبونيز ، وكانت أهم عنايتها موجهة الى الأمور

الحربية ، ولولا نبوغها في ذلك لما أمكنها المحافظة على بسط كلمتها على الولايات المجاورة
لها التي خضعت لسلطانها . ولم تكن أسبرطة أقوى ولاية حربية في بلوبونيز فقط ،

بل فاقت أيضاً جميع ولايات الإغريق الأخرى ، والفضل في ذلك لنظامها العسكري

الذي لا يفرق بين السلم والحرب من حيث تعليم الجند وتمارينهم . وأول من خط

للإسبرطيين هذه الخطة « ليكرغ » ، وهو رجل حكيم عاش في القرن الثامن قبل الميلاد

وكان أجلّ عمل في حياة كل رجل سليم البنية منهم اعداد نفسه للأعمال

العسكرية ، فيعيشون عيشة خشنة ، ولا يفترقون عن القيام بالألعاب الرياضية التي

من شأنها اعدادهم لتأدية واجبهم الحربي الذي يشعرون به

* ويسمى أيضا « زفس »

اسبرطة

ليكرغ

اهتمام اسبرطة
بالامور الحربية

أثينا أما « أثينا » فلم تُعَنَّ بالأمور الحربية الى هذا الحد ، ولكنها استعاضت من ذلك الالتفات الى الوسائل الأخرى الداعية الى الحضارة العالية والرقى الأدبي العظيم وكانت « أثينا » في أول أمرها يحكمها ملك ، فلم يدم ذلك فيها كما لم يدم في غيرها ، ووقعت السلطة في أيدي الأعيان ، وما زالوا يجمعون السلطة في أيديهم حتى وصل إرهابهم الأمة الى حد لا يطاق . فهموا بأن ينالوا حقوقهم بالقوة ، ولم يلبثوا أن ظهر فيهم المشرع العظيم « صولون » ، فسن في أوائل القرن السادس قبل الميلاد (سنة ٥٩٤ ق . م .) قوانين جديدة للحكومة قلَّ بها من استبداد الأعيان ، وان لم يسلبهم جميع نفوذهم . وكان المبدأ الذي جعله نصب عينيه أن يكون معظم السلطة في أيدي أصحاب المصالح الحقيقية الذين يفقدون شيئاً عند الانقلابات العظيمة . وقد سن صولون قوانين أخرى غير الخاصة بنظام الحكومة . فسن قوانين خاصة بالحياة والحقوق الشخصية والزواج والرق وغير ذلك . وقد قدم الى مصر في أيام أحسن الثاني ، فيقال إنه اقتبس شيئاً من قوانينها ولم يستمر هذا النظام طويلاً بسبب سخط بعض الطبقات ، فالتفوا حول أحد الزعماء المدعو « بزيسترات » وجعلوه ملكاً مستبداً بالسلطة . فعدل في حكمه ، وجمع حوله الأدباء والعلماء وعاضدهم ، ووسع مدينة أثينا وزاد في جاهها ، ولكنه سلب جانباً عظيماً من حرية الشعب فخلعوه . ولما تولى ابنه « هيبياس » ثار به أهل أثينا وطرده منها

﴿ علاقة فارس بالولايات الإغريقية ﴾

(الحروب الفارسية)

علمنا فيما سبق كيف أسس « كورش » مملكة فارسية عظيمة ، وكيف وسع نطاقها استيلاء الفرس على المدن الإغريقية بآسيا عدة مدن على شواطئ آسيا الصغرى تغلب عليها ملك « ليديا » . فلما خضع هذا الصغرى تاريخ (١٢)

لحكم الفرس أصبحت تلك المدن الإغريقية خاضعة أيضاً لفرس ، وما لبثت هذه المدن طويلاً حتى شعرت بظلم الفرس ، فتألبت كلها وشقت عصا الطاعة على فارس في سنة ٥٥٠ ق . م . فأرسل أهل أثينا السفن والجيوش لمساعدة اخوانهم الإغريق ، وتمكنت الأحزاب من إحراق « سارذة » عاصمة بلاد ليديا سنة ٤٩٩ ق . م . وبعد أن استمر القتال ست سنوات أخذ « دارا » الفتنة ، ثم تمكن من غزوشاطئ (إيونيا) بأكمله . ثم نهض الى معاقبة أهل أثينا على تدخلهم بين دولته العظيمة وبين من خرج عليها من رعاياها ، وعلى ذلك ابتدأت الحروب بين الفرس والإغريق فأرسل الفرس جيشاً الى بلاد الإغريق في سنة ٤٩٢ ق . م . ففشلوا وانهزمت جيوشهم براً وعبثت بسفنهم العواصف في بحر إيجه

أسباب الحروب
الفارسية

وبعد ذلك بسنتين ، أى في سنة ٤٩٠ ق . م ، أرسل الفرس جيشاً آخر أقوى من الأول ، وأنزل الأسطول الفارسي جيوشه بالقرب من « مَرْتُون » في الجهة الشرقية من مقاطعة « أتیکا » بقصد الزحف على أثينا . ولكن الجيش الأثيني مع عدد قليل من رجال « بلاتي » (احدى المدن الصغيرة المجاورة لأثينا) وبقيادة « ملتياديس » قابل الجيش الفارسي في « مَرْتُون » وهزمه شرهزيمة على كبر عدده ، فكان لهذه المعركة اكبر تأثير في تاريخ أثينا والإغريق ، بل في تاريخ الشرق والغرب ، اذ أخذت « أثينا » بعدئذ تترقى معارج السعادة حتى صار لها شأن أى شأن ، وبها سلمت بلاد الإغريق من الوقوع في أسر الفرس

واقعة مرتون

وكان في عزم « دارا » مهاجمة الإغريق مرة أخرى ، لولا أن لحقته منيته في سنة ٤٨٥ ق . م ، فترك ذلك لابنه « إجزرسيس »

وكانت مصر في ذلك الوقت عمالة فارسية ، فخرجت على فارس في أواخر أيام « دارا » ، وبقيت الثورة قائمة حتى تولى « اجزرسيس » ، فبدأ بإخمادها . وبعد أن تم له ذلك وجه همه الى غزو بلاد الإغريق

مصر أيام
الحروب الفارسية

وفي سنة ٤٨٠ ق . م خرج « اجزرسيس » بنفسه ومعه جيش جرار لم تر الدنيا

مثله من قبل ، اذ كان عدده على أقل تقدير نحو ألف ألف مقاتل . فمر هذا الجيش الكبير من آسيا الى أوربا على قنطرة من السفن عابراً « هلسنبنت » (الدردنيل) ، ثم اخترق ولاية « طراقية » و « مقدونية » و « تساليا » بقصد النزول على « أتیکا » من الشمال ، حيث يمكنه دخول أثينا وتخريبها ، وهو غاية أمنية أجزرسييس . فلم الإغريق أن الفرس سيمرون من مأزق « ترمويل » لأنه هو الممر الظاهر الذي واقعة ترمويل يمكن الجيوش أن تخترق الجبال منه . و ترمويل هذا ممر ضيق واقع بين جبل (أوتيا) وبين المستنقعات الممتدة على شواطئ خليج « ماليا » ، فاجتمع معظم الولايات الاغريقية تحت لواء « إسبرطة » ، ووضعوا عدداً من رجالهم في هذا الممر لحمايته ، فأرسل اجزرسييس أقوى رجاله لسحق هذا العدد القليل الذي جرؤ على الوقوف في طريقه . ولكن الاغريق (وفي مقدمتهم الاسبرطيون) حاربوهم مستبسلين ، ودافعوا دفاعاً ضُربت به الامثال . فخار الجيش الفارسي ، ووقف بلا حراك . فيينا الفريقان على هذه الحالة اذ دلهم رجل خائن من الاغريق أعى قلبه ما أعطاه الفرس له من المال على طريق آخر من وراء الجبال ، فما شعر الاغريق الاً والفرس على قمة الجبل يزحفون عليهم ، وعند ذلك أمر ملك اسبرطة الذي كان يقود الجيش الاغريقي بأن يبقى معه الاسبرطيون ، وأن يتراجع رجال الولايات الأخرى لحماية « أثينا » . وهنا حارب الاسبرطيون (وعددهم ٣٠٠ رجل) بشجاعة أدهشت الفرس ؛ غير أن الشجاعة وحدها لا تظهر على وفرة العدد . نعم قاوم الاسبرطيون كل المقاومة ، وأفنوا عدداً عظيماً من الفرس ، ولكن ذلك لم يؤثر في جيوتهم الجرار ، اذ وقفوا على بعد من الاسبرطيين وجعلوا يرمونهم بالسهام وهم واقفون لا يتزعزعون حتى ماتوا عن آخرهم عدا واحداً أو اثنين وبالرغم من أن الاغريق هُزموا في هذه المعركة التي تعرف بمعركة « ترمويل » أظهروا للفرس أنهم رجال أشداء يموتون في سبيل الدفاع عن وطنهم ، فخشى الفرس بأسهم ، وكان لذلك تأثير كبير في المواقع التالية

شجاعة
الاسبرطيين

وكانت واقعة « ترموبيل » في أغسطس سنة ٤٨٠ ق . م . وفي أثناء هذه الواقعة كانت السفن الإغريقية تحارب الأسطول الفارسي على الشاطئ الشرقي من القسم الأوسط من بلاد الإغريق ، فلما سمع « تِمِسْتُكَلِيس » قائد الأسطول الأثيني بأن الفرس أخذوا ممر ترموبيل ، وأنهم يزحفون على أثينا ، انحاز بأسطوله الى الجنوب حتى وصل الى خليج « سَلَامِيس » في الجنوب الغربي من أتيكا . ولما لم يجد « تمستكليس » سبيلاً الى مقاومة الفرس في أثينا نقل جميع سكانها على السفن الى جزيرة سلاميس والى جهات أخرى ، فلما دخل الفرس في أثينا وجدوها خالية من السكان ، فسلبوا ما فيها ثم أحرقوها

واقعة سلاميس وعند ذلك التقى الأسطول الفارسي بالأسطول الإغريقي بالقرب من جزيرة سلاميس ، وهناك تمكن الإغريق بمهارتهم وخفتهم من قهر الأسطول الفارسي ، فحزن « اجزرسيس » لهذه الكارثة وعاد الى بلاده تاركاً جزءاً عظيماً من جيشه في تساليا . وكانت واقعة سلاميس في سبتمبر سنة ٤٨٠ ق م .

واقعة بلاتي وفي سنة ٤٧٩ ق . م حصلت معركة بين الإغريق وبين الجيش الفارسي الذي تركه اجزرسيس بقيادة « ماردُنيوس » ، قهر الإغريق الفرس في واقعة « بلاتي » ، وفي اليوم عينه انتصروا عليهم براً وبحراً بجمهة « ميكال » على شاطئ آسيا أمام جزيرة « ساموس » (سيسام)

واقعة ميكال فكانت هذه الوقائع الثلاث (سلاميس وبلاتي وميكال) فاصلة بين الفريقين ، ولم يقدم الفرس بعدها على غزو بلاد الإغريق ذاتها . وبعد ذلك بسنتين جلوا عن جميع المواقع التي احتلوها ببحر إيجه

﴿ عصر بَرِّكَلِيس ﴾

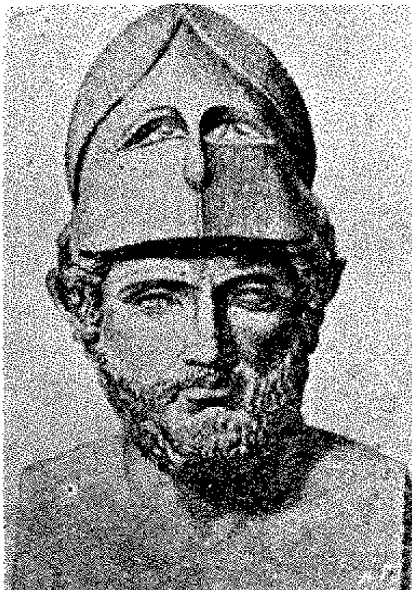
أتى بعد واقعة « سلاميس » نصف قرن (٤٨٠ - ٤٣٠ ق م .) كان أزهى عصر في تاريخ أثينا ، لما امتاز به من تقدم العلوم والفنون والمعارف ، ويمكن اعتباره

من أزهى العصور في تاريخ الدنيا عامة . ويسمى هذا العصر عصر « بريكليس » نسبةً الى « بريكليس » ذلك السياسي العظيم الذي كان في أثنائه هو القائد لحركة الأعمال بأثينا

وُلد بريكليس من أسرة كريمة ، وتربى تربية حسنة . وكان خطيباً مصقفاً وقائداً عظيماً وسائساً بعيد النظر . وكان شديد الحب لبلاده ، شاعراً بالواجب عليه لها ، أبقى النفس لا يأتي الدنيا ، ولا يقصد الى شيء من غير وجوهه الشريفة

عرف أهل أثينا هذه الصفات العالية في بريكليس ، فامتلت قلوبهم بحبته . وما زالت مزاياه تزيد من نفوذه حتى صار أشبه بملك على الرجال بدون سلطة أو حقوق وراثية وكان من أجل رغباته تربية الشعب بأسره اعتقاداً بأن ذلك أهم الأسباب الداعية الى انتظام الحكومة . وكان بأثينا في ذلك الوقت مكان يدعى « الإكايزيا » يجتمع به رجال تلك المدينة للمداولة في شؤونهم . فأباح الدخول والمناقشة فيه لجميع أفراد الشعب ، بل كان يُؤجر العامة على حضوره ، وعلاوة على ذلك سمح لهم بتذاكر يدخلون بها محال التمثيل بدون ثمن ، وكانت الأساطير التي تمثل بتلك المحال من

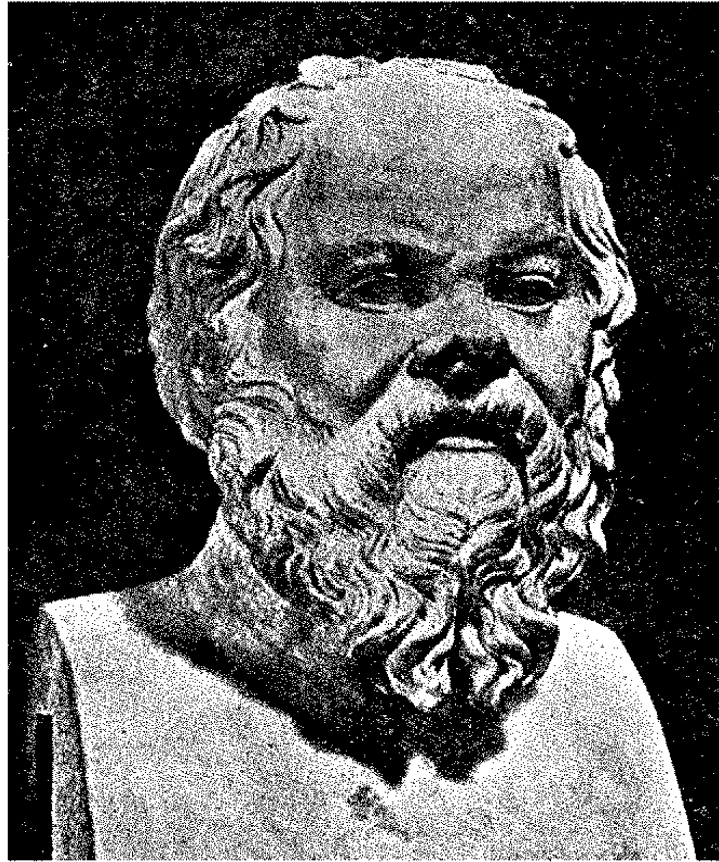
أبلغ ما يكتب معنى وأسلوباً وتناول البحث في تاريخ الإغريق أو شؤون البلد مشاهير الرجال في عصر بريكليس العادية ، فاستفاد الشعب من ذلك فوائد جمة ، وكثر عدد النوايع في هذا العصر ، من كتاب ومصورين ومؤلفين وغيرهم



بريكليس

والحق أن التاريخ لم يرَ عصرًا مثل عصر بريكليس : ظهر فيه على قصره ذلك العدد العظيم من النبغاء في مكان واحد . ولو كان ذلك معيار الحضارة لقلنا ان أثينا في ذلك العصر بلغت مبلغاً من الحضارة لم تبلغه هي ولا غيرها في عصر آخر

ومن أشهر مشاهير ذلك العصر «فدياس» المصوّر و«أوريبيد» و«سُفْكليس»
الكاتبان للروايات التمثيلية و«هيودوت» المؤرخ و«سُقراط» الفيلسوف أستاذ
«أفلاطون» الفيلسوف اليوناني الشهير
ومعظم هؤلاء الرجال كانوا من أصدقاء بركليس . وقد كان بعض الفضل في
نبغهم لمعاشرتهم له والاستفادة من نصائحه الجميلة



(سُقراط)

أراد بركليس أن يظهر عظمة أئينا للعالم، فشيّد بها المباني الشاهقة والمعابد العظيمة،
وزُين جميعها بالنقوش البديعة والتماثيل الجميلة بأيدي أمهر المصورين والنقاشين بزيامة
«فدياس» الآنف الذكر، وما زالت بقايا هذه النقوش والتماثيل يدرسها كبار
المصورين في الوقت الحاضر وينظرون إليها كأنها غاية في بابها

جمال مباني أئينا

ومما يؤسف له أن ذلك العصر الزاهر لم يدم طويلاً ، بل انقضى باتقضاء أيام بطله . ولا شك أن من العوامل التي ساعدت على اتقضائه ما غرسه بركليس بيده من اشراك العامة في ادارة شؤون المدينة وتسهيل السبل لهم الى حضور التمثيل والحفلات . فدب في نفوسهم ديب الترف والكسل ، وصاروا ينظرون الى الأشغال البدنية نظر الأنفة والازدراء . فأدى ذلك الى انحطاط الشعب ثم الى اضطراب الحكومة

❖ الإسكندر الأكبر ❖

وفتحه مصر

وقعت بلاد الإغريق بعد انتهاء عصر بركليس في حروب أهلية طويلة وقتن حروب بلوبونيز عظيمة تعرف بحروب بلوبونيز نسبةً الى شبه جزيرة بلوبونيز ببلاد الإغريق (٤٣١ - ٤٠٤ ق . م) ، فعاقبها عن التقدم بل هوت بها الى هوة الاضمحلال . ولكن بينا هذه الولايات مشغلة بالحروب والفلاقل كانت بلاد « مقدونية » آخذة في أسباب التقدم والظهور

ومقدونية هذه هي البلاد التي في شمالي بلاد الإغريق ، وأهلها شديدو القرابة للإغريق : أقوياء الجسم عظيمو البأس . وكانوا في أول أمرهم رعاة للأغنام وزُرَّاعاً ، ولم يكن لهم ذكر هام في التاريخ قبل أيام « فليب المقدوني » (فليس) . وكان هذا الملك على جانب عظيم من الذكاء وقوة الجأش : تعلم الفنون الحربية والسياسية في طيبة ، ثم عاد الى بلاده فأدخل فيها حضارة الإغريق ، واتهز فرصة غفلة الولايات الاغريقية فهمّ ببناء دولته العظيمة

بدأ فليب بتوسيع ملكه في الشمال ، ثم وجّه همته الى الجنوب ، فتغلب على جميع واقعة قبرونة الصعاب التي اعترضته في سبيله . وباتصاره على الاغريق في واقعة « قيرُونَه » سنة ٣٣٨ ق . م خضعت له جميع ولاياتهم . ومن ذلك الحين اندمج تاريخ الإغريق في تاريخ مقدونية

الاستعمار الأجنبي

امبراطورية

تحت إشراف الشيخ محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب

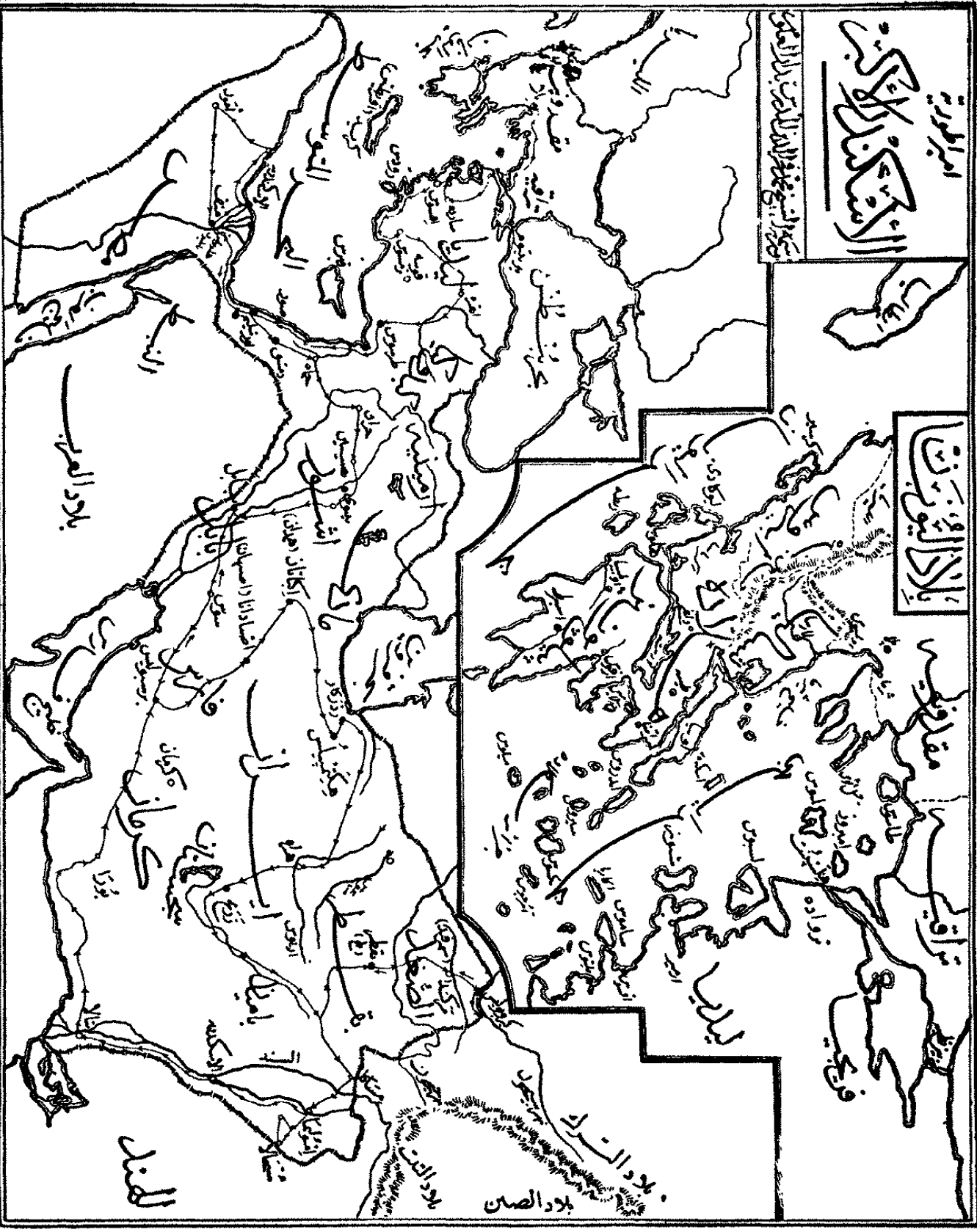
الأقاليم

مقاطعات

مقاطعات

مقاطعات

مقاطعات



تغلب مقدونية
على الاغريق

ولما استتب الأمر لفليب في بلاد الاغريق أراد أن يفتزو بلاد الفرس انتقاماً لما فعله هؤلاء، بأثينا فيما مضى، غير أن المنية حالت بينه وبين مآربه، فقتل سنة ٣٣٦ ق. م وتولى الملك بعد فليب ابنه « الاسكندر » ، وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة فقط . فأصغره الإغريق زعماء منهم أنه لا يمكنه على حداثة سنه ادارة شؤون المملكة العظيمة التي جلس على أريكتها ، وأنه في نظرهم مثل أبيه بعيد عن الحضارة الإغريقية وإن رباه أبوه أحسن تربية واختار لتعليمه « أرسططاليس » الفيلسوف العظيم الذي كان أكبر رجال العلم في ذلك العصر

استخفاف
الاغريق
بالاسكندر
تغلبه عليهم

استخف الإغريق بالاسكندر فتأروا عليه في وقت واحد ، ولكنه برهن لهم وللعالمة أجمع أنه أشد بأساً وأكبر بطشاً مما يظنون ، فأخذ ثورتهم قبل أن تستفحل ، وكانت « طيبة » زعيمة تلك الحركة فعاقبها أشد عقاب ، فعادت جميع الولايات الإغريقية الى السكون ، واعترف أهلها لالاسكندر بالسلطان على جميع بلادهم



الاسكندر يأخذ
بثأر الاغريق
من الفرس

ولم ينظر الاسكندر الى البلاد الإغريقية نظرة الغالب القاهر ، بل نظرة الرئيس الممثل لهم أمام الأمم الأخرى ، الآخذ بناصرهم ، فلم يكذب يستتب له الأمر في هذه البلاد حتى شرع في الاستعداد لفتزو بلاد فارس للأخذ بثأر الإغريق والانتقام من الفرس على ما فعلوه بها في غارات دارا واجزرسييس

(الاسكندر الأكبر المقدوني)

عن تمثال بدار آثار رومية

خرج الاسكندر لغزو بلاد الفرس سنة ٣٣٤ ق . م . ومعهم خمس وثلاثون الف مقاتل . وهذا الجيش ، وإن كان صغير العدد بالاضافة الى المقصد الهائل الذى خرج من أجله : فان حسن نظامه ومهارة قائده كفلا نصراً قلّ أن يوجد له نظير فى التاريخ

سار الاسكندر فى هذا الجيش الى آسيا الصغرى ، فقابله الفرس عند نهر « غرانيق » فقهروهم بعد قتال عنيف . ثم واصل المسير حذاء الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى مستولياً على جميع المدن الاغريقية التى فى طريقه . ثم اتجه نحو أواسط آسيا الصغرى ، فلم يقف فى طريقه أحد من الفرس . ثم قصد بلاد الشام ، فلم يجد أى مقاومة فى طريقه حتى وصل الى مدينة « إسوس » على الطرف الشمالى الشرقى من شاطئ البحر الأبيض المتوسط . وهناك قابل جيشاً فارسياً عرمرماً يقوده دارا الثالث ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق . م . ولكن كثرة العدد لم تجدي نفعاً بجانب مهارة الاسكندر الحربية ونظام جيشه وقوته ، فشنت الاسكندر شمل الجيش الفارسى وفرّ دارا هارباً . وتعرف هذه الواقعة بواقعة « إسوس »

الاسكندر
باسيا الصغرى

واقعة اسوس

✽ الاسكندر الأكبر فى مصر ✽

بعد أن هزم الاسكندر الفرس فى واقعة إسوس زحف على مدينة « صور » فأخذها بعد عناء كبير ، وبذلك تم استيلاؤه على الشام . ثم قدم الى مصر ، وكان الفرس قد استدعوا حاميتها منها بسبب حروبهم مع الاسكندر . فلما وصل الاسكندر الى « بلوز » (الفرما) فى سنة ٣٣٢ ق . م . رحّب به المصريون لما سمعوه عن عدالة حكمه ولما لاقوه من الذل والهوان فى حكم الفرس . ففتحت له مصر أبوابها ودخلها بدون عناء . بل ان الوالى الفارسى لم يجرؤ على مقاومته وقابله فى منف بترحاب . ومن ثم سار الاسكندر الى « واحة أمون » الكبرى (واحة سيوه) ودخل معبد أمون ، حيث لقبه الكهنة بابن أمون . وعند ذلك أبدى احتراماً كبيراً

الاستيلاء
على صور

دخول
الاسكندر مصر

لديانة المصريين وقدم القرابين لمعبوداتهم ، ولكنه مع ذلك لم يهمل العادات والتقاليد الإغريقية ، فأدخل منها في مصر الموسيقى والألعاب النظامية

انشاء مدينة
الاسكندرية

ولما رأى الاسكندر أن قرية « راقوتيس » (راقوده) ذات موقع بحري موافق مكوّن ميناء جيد بين شاطئ البحر الأبيض وبين جزيرة مجاورة له تدعى جزيرة « فاروس » أنشأ عندها حاضرة جديدة له سماها « الاسكندرية » . ثم أمر بردم الماء بينها وبين الجزيرة المذكورة فنشأ من ذلك مرسيان جميلان وما زالت مدينة الاسكندرية من أهم بلاد الدنيا الى وقتنا هذا . وكان السياح الإغريق يصفونها بأنها « مدينة جميلة » . وكان الرومان يعتبرونها أول المدن فخامة وعظمة بعد عاصمة بلادهم

وبعد أن استتب الأمر للإسكندر في مصر خرج الى فتوحه الأخرى في الشرق ، فاخترق سورية مرة أخرى ، ومنها سار إلى « ميزوبوتاميا » « أرض الجزيرة » حيث التفت جيوشه بجيوش « دارا » الجرارة ، فبدد شملهم في واقعة « إربل » سنة ٣٣١ ، وفر « دارا » مقهوراً . فكانت هذه الواقعة الفاصلة ابتداء سقوط دولة الفرس

الاستيلاء على
عاصمة فارس

وعند ذلك رحب البابليون بالاسكندر راضين به ملكاً لهم ، ثم سار الاسكندر الى بلاد فارس ذاتها واستولى على عاصمتها « سيس » وغيرها من المدن وغنم منها ما لا يحصى من الذهب والفضة والأحجار الكريمة . وبعد أن استراح الاسكندر قليلاً واصل السير الى قاصية بلاد الفرس ، فاخترق الاقليم المعروف الآن بالأفغانستان والتركستان الروسية وما جاورهما . ثم عبر مضائق جبال « الهملايا » مع جزء من رجاله الأشداء ، فدخل شبه جزيرة الهند واستولى منها على مقاطعة « البنجاب » وكان يود مواصلة سيره شرقاً ، فامتعت جنوده تعباً وخوفاً . فسار الى الجنوب متبعاً نهر السند حتى وصل شواطئ المحيط ، ثم عاد الى بابل وأخذ ينظم فيها أمور

الاستيلاء على
بنجاب بالهند

* هذه كانت قرية صغيرة بجوار موقع مدينة الاسكندرية الحالي

وفاة الاسكندر دولته العظيمة ، ولكنه أصيب بجحى قضت على حياته سنة ٣٢٣ ق . م . وكان عمره إذ ذاك ٣٢ سنة وثمانية شهور

صفاته وأعماله ولم يكن الاسكندر قائداً حربيًا فقط ، بل كان سائساً ومديراً عظيماً ، وكان في نيته توحيد الشرق والغرب وجعلهما دولة واحدة تحت ساطانه ، وشرع في ذلك فعلاً فملا البلاد الشرقية التي فتحها بالتجار اليونانيين والحضارة الاغريقية ، وتزوج بزوجة فارسية وأوصى قواده بذلك أيضاً اعتقاداً منه بأن ذلك من أعظم الوسائل لامتزاج عناصر الشرق والغرب وتوحيد كلمتهم . وكان يهتم في فتوحه باصلاح الأمور التجارية والعلمية . ومن ذلك الأمر الأخير أنه أرسل الى أستاذه أرسططاليس مجموعات نباتية وحيوانية وغيرها من البلاد التي فتحها ، من شواطئ البحر الأبيض الى حوض نهر السند ، لفحصها فحصاً علمياً . ومن أهم نتائج فتوحه انتشار الحضارة اليونانية في الشرق ، وصنع البلاد التي فتحها بالصبغة الإغريقية ، وبقيت تلك الصبغة ظاهرة فيها حتى تغلب عليها الاسلام ، فكان له فيها أثر آخر

الفصل الثاني

البطالسة*

(٣٢٣ - ٣١ ق . م .)

لما توفي الاسكندر ترك وراءه ابناً صغيراً وأخاً غير شقيق ، فتولى هذان الحكم على دولته العظيمة بوصاية « بَرِدِگَاس » (أحد قواد الاسكندر الخالصاء) . وعيّن لكل جزء من الدولة وال يحكمه ، فاختر مصرَ بطليموسُ الذي سُمّي فيما بعد « بطليموس الأول »

تقسيم دولة
الاسكندر

* كان الأجدر أن يطلق عليهم لفظ « بطالمة » بدلا من « بطالسة » لولا شدة تداول اللفظ الاخير

و « بطليموس الأول » هو مؤسس دولة البطالسة التي تولت الحكم في مصر بطليموس الاول منذ وفاة الاسكندر الى استيلاء الرومان عليها . وكان بطليموس من أعظم قواد الاسكندر ومن أخلص المقرّبين اليه . لأنه تربى معه في قصر فليب ملك مقدونية . وكان قد نُفي من بلاده في أيام فليب ، فلما توفي أحضره الاسكندر وجعله أحد قوَّاده السبعة الذين يحيطون به في الحرب ، ويقضون معه وقت السمر في السلم . وكان بطليموس معروفًا بالحزم والحكمة والشجاعة . ولما تولى الحكم على مصر في سنة ٣٢٣ ق . م قوبل فيها بالسرور والترحاب . وقد شعر منذ ابتداء حكمه بمصر بمنافسة « بردكاس » له في السلطة ، ولكنه تمكن بقوته ودهائه من التغلب على نفوذه حتى صار كملك على مصر مستقل بالسلطان فيها . وأول عمل يؤثر عنه أنه أراد أن ينقل جثة الاسكندر من بابل الى مصر ، فعارضه بردكاس وقال انه يريد نقاها الى مقدونية ، لكنه لم يفلح وحجى بالجثة الى مصر في موكب فاخر ودفنت في منف ثم نقلت في أيام خلفه الى الاسكندرية ، ويُنظن أن مكانها الآن النبي دانيال . ولما اشتد غيظ بردكاس منه أتى الى مصر بجيئس كبير لمحاربه فقهره بطليموس ، ثم سخط رجال بردكاس عليه لسوء مسلكه معهم فقتلوه . ومع كل هذا بقي بطليموس معترفًا بسيادة ابن الاسكندر وأخيه عليه ، وكان يكتب اسميهما على المباني التي حسنتها أوزاد فيها

وفي سنة ٣٢٠ ق . م غزا بطليموس فينيقية وجزءًا من سورية واستولى على فتوح بطليموس الاول بيت المقدس . وقد قام بحروب كثيرة لتوسيع نطاق دولته انتهت باسترداده هذه البلاد السورية بعد فقدها واستيلائه على جزيرة قبرس ، وصارت لمصر بذلك السيادة البحرية في البحر الأبيض المتوسط

وفي سنة ٣٠٥ لُقِّب « بملك مصر » ، ومن ذلك التاريخ لم يدخل في حروب أعماله السلبية كبيرة ، وانصرف لتنظيم بلاده وترقية شؤونها ، فزاد في مباني الاسكندرية . ويقال انه المؤسس لدار كتب الاسكندرية ودار تحفها المشهورتين . والذين ينكرون أنه

المؤسس لها يقولون بأنه هو صاحب المشروع ، وأن الذي قام بتنفيذه هو ابنه بطليموس الثاني

ومن المعروف عنه أنه احترم ديانة المصريين ، ووفق بين ديانتهم وبين الديانة الإغريقية ، وظهر من أجل ذلك معبود جديد يدعى « سيرابيس » أعد له معبد « السيرايوم » بالاسكندرية الذي قيل انه كان أجل بناء بتلك المدينة وقبل وفاة بطليموس بسنتين تنازل عن الملك لابنه بطليموس الثاني الملقب باسم « فيلادلف »

بطليموس الثاني جلس بطليموس الثاني على سرير الملك ثمانية وثلاثين عاماً (٢٨٥-٢٤٧ ق . م) لم يحدث فيها من الحروب أو الثورات ما هو جدير بالذكر ، فأتسعت في أيامه ثروة البلاد وتقدمت التجارة وانتشرت العلوم والمعارف

أعماله فمن أعماله أنه جدد الخليج القديم الذي حفرتة الفراعنة من قديم الزمان ليوصل بين النيل والبحر الأحمر ، وأعاد سلوك الطريق التجارية بين « قفط » والبحر الأحمر مخرقة وادي الحمامات ، وتزيد لها من المعامل والمساح ما جعل سير القوافل التجارية فيها سهلاً مأموناً ، فتقدمت التجارة المصرية حتى وصلت الى بلاد العرب والهند شرقاً ، والى اتيوبيا جنوباً

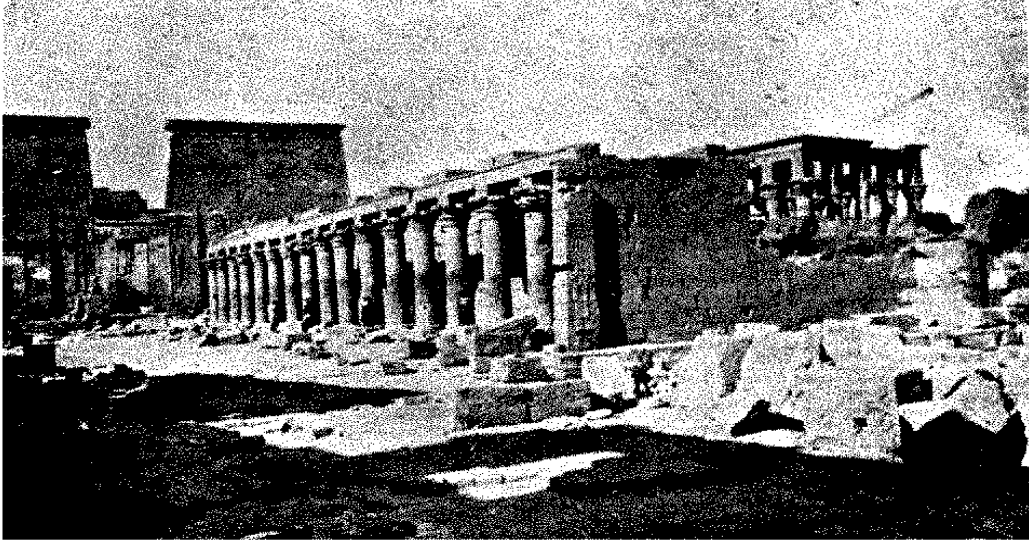
معاذته للتجارة أما البحر الأبيض فكانت لمصر به تجارة ذات شأن مع بلاد الإغريق وكثير من البلاد الأخرى التي على شواطئه الكثيرة . وقد شيد بطليموس لهداية السفن منارة عظيمة بالطرف الشرقي من جزيرة فاروس اشتهرت في التاريخ باسم « منارة الاسكندرية » ، ولعظم ارتفاعها كانت تسطع أشعتها ليلاً من مسافة تربو على الثلاثين ميلاً ، وكانها الآن حصن « قايتباي »

العلوم والمعارف في عصره ومن حرصه على نشر العلوم والمعارف والآداب أنه وسع نطاق دار تحف الاسكندرية ودار كتبها ، وأمر بانجاز أمرين عظيمين في تاريخ الأدب : أولهما ترجمة

التوراة من العبرانية الى الاغريقية ، وثانيهما حمله « مانيتون » على تأليف كتابه الشهير في تاريخ مصر القديم

مبانيه ولم يهمل فيلادلف اقامة المباني وتشيد الهيكل، ومن أهم الآثار التي أقامها جزء كبير من معبد جزيرة « فيلة » المعروف الآن بقصر « أنس الوجود » ، وهذا الجزء هو أجمل مباني ذلك المعبد

الاعريق ومن المعروف عن بطليموس الثاني أنه سهل للاغريق اتجاع مصر وإنشاء أنزال جديدة بها ، وكان يهب لهم الأراضي لذلك ، وأهم مستعمرة لهم وقتئذ كانت بجبهة الفيوم



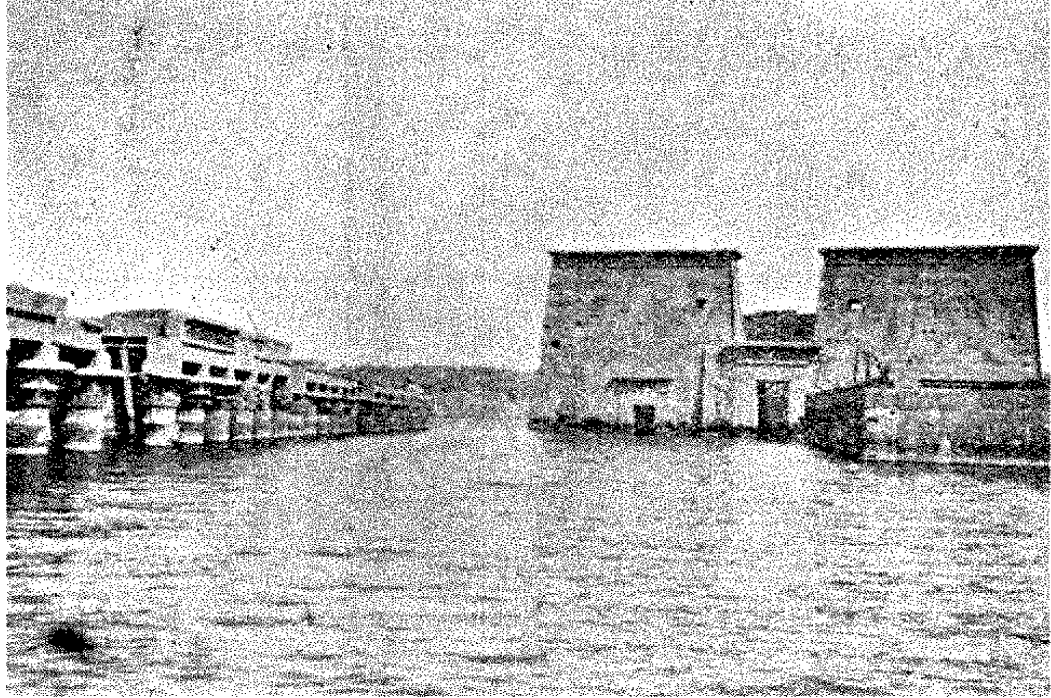
(معبد فيلة قبل الخزان)

رسم لكجيان

وفي سنة ٢٤٦ ق . م توفي بطليموس الثاني فخلفه ابنه « بطليموس الثالث » ، بطليموس الثالث وفي أيامه امتدت أملاك مصر الى ما كانت عليه في أيام الفراعنة ، فلم يلبث بعد توليه الملك أن ضم « قبرينيقية » (برقة) الى مصر . ثم نشبت الحرب بين مصر وسورية بسبب قتل أخته التي كانت متزوجة بملك سورية وقتلتها زوجته الأخرى ، فزحف بطليموس على الشام بجيش عظيم وأمر أسطوله بالسير ازاء الشاطئ السوري

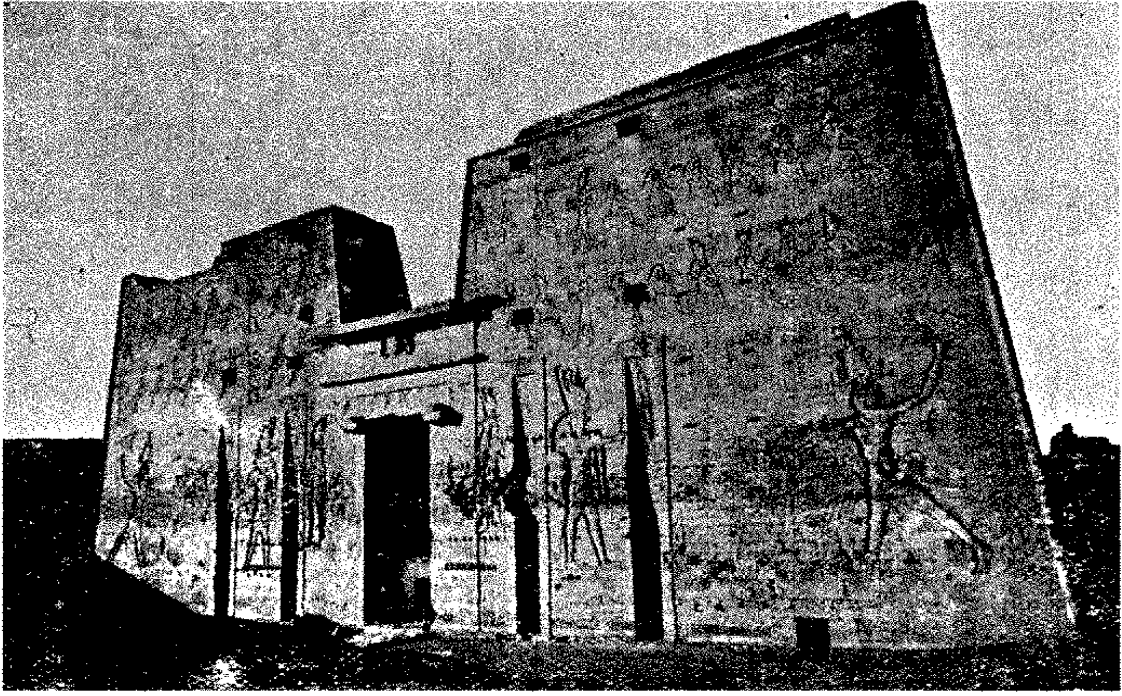
ليساعد الجيش بالهجوم على المدن بجرماً أثناء مهاجمة الجيش لها برأ ، فخضعت له جميع سورية ، واستمر في زحفه حتى وصل الى نهر الفرات سالكاً مسلك الفراعنة من قبله . وقد وُجد على بعض آثار هذا الملك أنه وصل في فتوحه أيضاً الى بابل وفارس وميديا . وعند عودته الى مصر رجع بغنائم ونفائس كثيرة ، وأحضر معه تماثيل

اتساع ملك مصر
زمن البطالسة

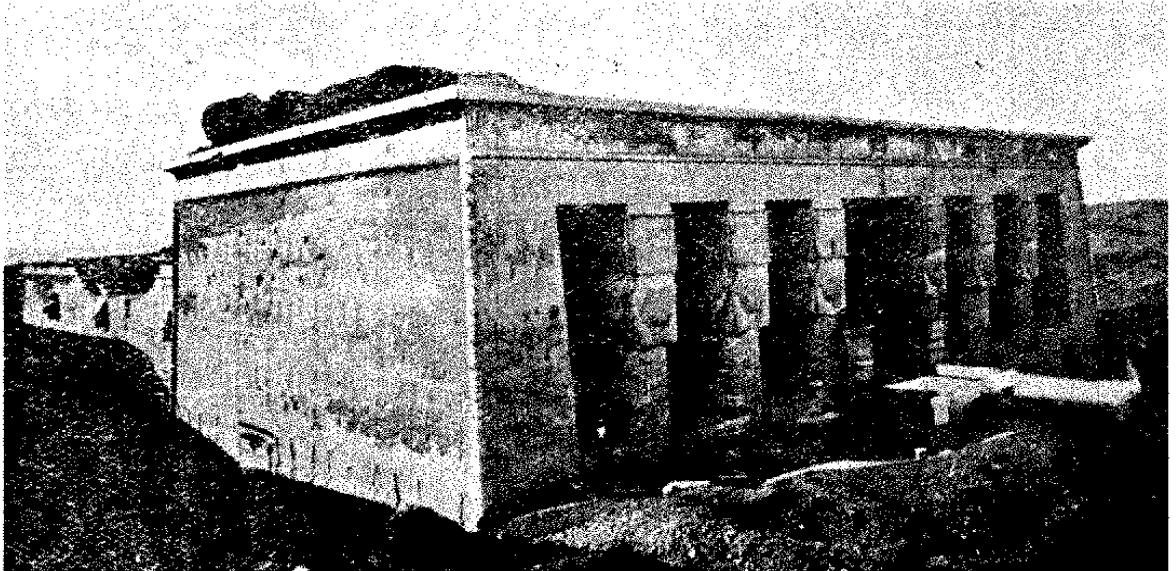


(معبد فيلة بعد الخزان)
رسم فزاني

المعبودات المصرية التي كان قد أخذها من مصر «قمبيز» وغيره من الملوك الأجانب الذين غزوا مصر زمن الفراعنة ، فزاد ذلك في محبة المصريين له ومضت على مصر برهة من الزمن كوّنت فيها دولة واسعة الأرجاء تزيد سعتها على نظائرها أيام الفراعنة . فأصبحت ممتدة من شواطئ بلاد الإغريق شمالاً ، الى اتيوبيا جنوباً ، ومن قبرينيقية غرباً الى الحدود الهندية شرقاً غير أن هذه الممالك لم يبقَ جميعها في يد المصريين ، بل استرد السوريون جميع الأراضي الشرقية من بلادهم ما عدا إقليمًا صغيراً ، واكتفى بطليموس بالمحافظة على



معبد الشمس
(رسم لكجیان)



معبد دنبره
(رسم لكجیان)

ممتلكاته الغربية والبحرية ، ومدّ سلطانه في داخل بلاد النوبة
ولم يكن بطليموس الثالث محارباً شديداً فقط ، بل كان مولعاً بالأدب محباً لإقامة
المباني وتشيد المعابد . وهو أول ملك من البطالسة شيّد مباني عظيمة ذات أثر خالد
في التاريخ ، فهو الذي شيّد « معبد إدفو » الذي ما زال حافظاً لشكله وروقه الى
الآن ، وهو ومعبد « دندرة » أحسن نموذجين حين للمعابد المصرية

﴿ اضمحلال البطالسة ﴾

وبعد بطليموس الثالث تولى الملك « بطليموس الرابع » ، فالخامس . فالسادس
وفي أيامهم استولى الضعف على مصر ، ولم يبق لها من أملاكها سوى قبرس
وقبرينيقية ، وكاد يقضى عليها لولا حماية « رومية » لها
وكانت « رومية » إذ ذاك قد قويت شوكتها، ورأت من مصلحتها حماية مصر .
فبقيت منذ ذلك التاريخ صاحبة الشأن في سياستها الخارجية حتى انتهت أيام البطالسة ،
وغلبت عليها جُملة . ولذلك لم تكن لمصر في هذه الفترة منزلة سياسية في العالم ،
ومعظم الملوك الذين تولوا حكمها في هذه المدة كانوا مُستضعفين ، وكثيراً ما قتلوا إخوتهم
وأقاربهم للانفراد بالملك وان لم يُحدث ذلك إهمالاً كبيراً في ترقية العلوم والمعارف
أوفي تشيد المباني والآثار
وما زالت مصر على هذه الحالة حتى كانت وفاة « بطليموس الثالث عشر » ،
فخلفته ابنته « كليوبطرة » الشهيرة في سنة ٥١ ق . م . وسنأتى على ذكرها عند
الكلام على علاقة « رومية » بالبطالسة

﴿ حالة مصر في زمن البطالسة ﴾

كانت مصر زمن البطالسة على جانب عظيم من القوة والثروة ، ولم تقلّ أملاكها
في عهد معظم ملوكهم عن أملاك أعظم الفراعنة الأقدمين . نعم اتسعت دولتهم في
تاريخ (١٤)

عهد بعض ملوكهم أكثر من اتساعها في زمن آخرين ، ولكن مصر لم تفقد طول مدتهم سيادتها في الجبل على « برقة » وقبرس وسورية وفلسطين . أما أعظم أيام ثروتها وعظمتها فكانت في عهد الأربعة البطالسة الأوائل . إذ كانت زمن « فيلادلف » أغنى مملكة في العالم . وكانت عظمة القصر الملكي بالاسكندرية وفخامته وأبهة الملك به أكبر ما رأت الدنيا الى ذلك الوقت

عظم ثروتهم
وفخامة ملكهم

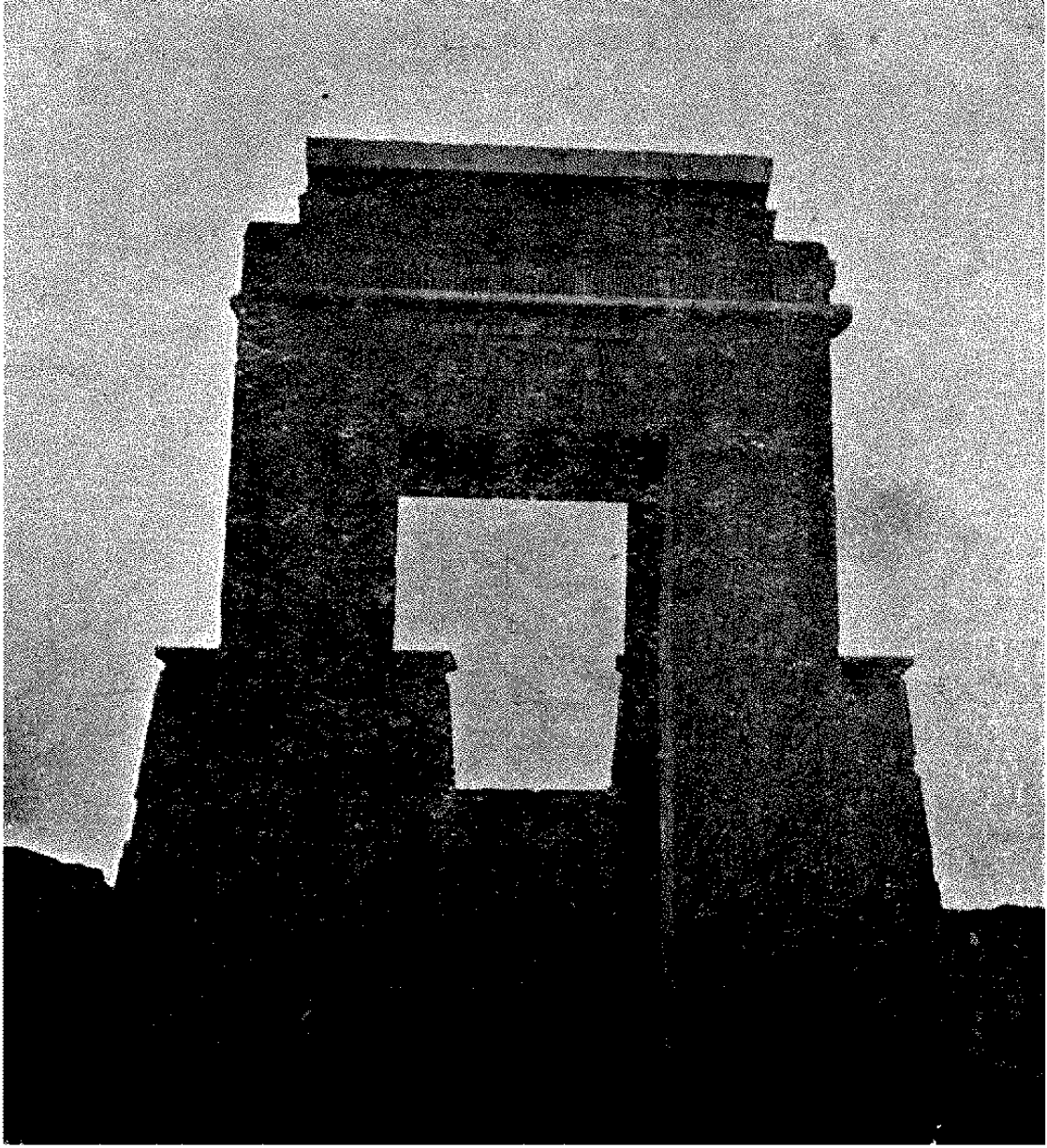
ولعصر البطالسة في مصر من الخواص والمزايا ما يجعله مغايراً لعصور الفراعنة . وأهم هذه الخواص ظهور العنصر الاغريقي ماثلاً في عظمة مصر ، بل أن حضارة ذلك العصر هي في الحقيقة إغريقية الأصل ، ولم تؤثر فيها بقايا الحضارة المصرية القديمة إلا فيما سمح به ملوك البطالسة عن قصد . فمثلاً كان ملوك البطالسة يظهرون في الحفلات الرسمية بزى الفراعنة الأقدمين ، وكانوا يقدمون الهدايا والقرايين للمعبودات المصرية ويشيّدون المعابد والهياكل على الطرز المصري القديم^(١) ، وأحسن مثال لذلك باب معبد « خُنسو » بالكرك ومعبد إدفو ومعبد دنندره . كما كانوا يتزوجون بأخواتهم اسوة بالكثير من الفراعنة^(٢) : كل ذلك إرضاء المصريين ورغبة في أن ينسبهم أنهم محكومون بملوك غرباء عن بلادهم بعيدين عن نسل آبائهم وأجدادهم . كان ملوك البطالسة يظهرون بكل هذه المظاهر ، ولكنهم كانوا إغريقيين في معيشتهم وعاداتهم الداخلية ، بل في نظام حكومتهم وتشكيل جيوشهم

مميزات
عصر البطالسة
تأثير الحضارة
المصرية في
حضارة البطالسة

وكان المصريون في أول الأمر بمعزل عن البطالسة ، ولما كثرت ورود الإغريق الى مصر ، وانتشروا في أنحاء البلاد ، (انتشار تجار اليونان اليوم في قرى الأرياف) زاد الاختلاط بين العنصرين ، وتصارهوا ، وتعلّم معظم المصريين اللغة الإغريقية التي صارت إذ ذاك اللغة الرسمية للبلاد

اختلاط المصريين
بالبطالسة

(١) كان معظم مباني البطالسة على الطراز الاغريقي ، ولكنهم كانوا يقيمون كثيراً من المباني (لا سيما الدينية منها) على الطراز المصري القديم . ويشاهد فيما شيدوه من هذا النوع أنهم كانوا يحاكون الفن المصري ، لكنهم لم يصلوا في ذلك الى حد الاتقان الذي بلغه قدماء المصريين (٢) كانت هذه عادة عند ملوك قدماء المصريين وكان القصد منها حفظ الدم الملكي في الأسرة المالكة



باب معبر مہرسو

(رسم لکھیاں)

وكان ملوك البطالسة يُعنونَ بترقية العلوم وإحياء الآداب . وقد أنشئوا لهذا العلوم والمعارف دار كتب عظيمة بالاسكندرية ومدرسة جامعة كبرى كانت تُعرف عندهم بدار التحف، وقد ذاع صيت الاسكندرية بهذين المهدين حتى صارت كعبة للعلوم يؤمها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم المتمدين

وبدار التحف كانت تُتلقى العلوم الراقية على نظام شبيه بنظام الجامعات في عصرنا .
واختلف المؤرخون فيمن أسس هذا المعهد ، وأرجح الأقوال ان بطليموس الأول هو صاحب المشروع وأنه كان يذهب بنفسه الى البلاد الإغريقية ليجمع أعظم الفلاسفة والعلماء من الإغريق ليذهبوا معه الى الاسكندرية ، فإن لم يكن المعهد قد فُتح في زمنه فهو الذي أعد له كل شيء ، وبفضل أعماله تمكن ابنه بطليموس الثاني من افتتاحه

وأما دار الكتب المشهورة في التاريخ فقد جمع فيها ملوك البطالسة من كتب الأمم القديمة ما وصلت اليه أيديهم ، وكانت قسمين : قسماً ملحقاً بدار التحف وهو الأكبر ، والقسم الآخر ملحق بمعبد السِّرايوم ، ويقال ان القسم الأكبر كان به نحو ٧٠٠,٠٠٠ كتاب

وقد ساعدت هذه المعاهد على ازدياد عظمة الاسكندرية، فقصدها كبار العلماء والفلاسفة يدرسون بمدارسها ويشغلون بالبحث والتأليف بمساعدة دارى كتبها وتحفها . ومن بين هؤلاء عدد كبير حفظ ذكركم التاريخ ، منهم « إقليدس » صاحب كتاب الأصول في الهندسة . ومنهم « إيرئُستين » و « بطليموس » الجغرافيان و « هيارك » الفلكي و « أبولونيوس » النحوي وغيرهم ومما يؤسف له أن تاريخ هذه المعاهد مظلم جداً ، واكثر ما نعرفه عنها غير مقطوع بصحته لعدم عثورنا على ما يثبت ذلك من الآثار

غير أن من المجزوم به وجود دارى التحف والكتب ورئيس لكلٍ منهما ازدادت عظمة وظيفته باتساع نطاقهما . ومن المشهور أيضاً ان جميع ما له اختصاص

دار الكتب
والتحف
بالاسكندرية

بهما ، من انتخاب قوَمَة وعَمَّال ، ومن ترتيب ونظام ، كان إغريقياً لا مصرياً ، وان المصريين لم ينتفعوا بهما ، وبقوا بعيدين عنهما حتى اندثارهما بسبب إحراق دارالكتب وقد اختلف المؤرخون أيضاً بشأن إحراق هذه الخزانة العظيمة : فمن قائل ان يوايوس قيصر أحرقها مع أسطوله يوم بغته المصريين على غير استعداد ، ومن قائل انها أحرقت بعده بنحو ١٠٠ سنة ، ومن قائل ان عمرو بن العاص أحرقها بأمر من الخليفة عمر رضی الله عنه ، ولكن كبار مؤرخي الإفرنج ينكرون صحة هذا القول الأخير وكان ملوك البطالسة شغف زائد بالأدب ، وكانوا يكثرون من الاجتماع بأهله وتقريبهم منهم ، بل ان بعضهم كان يشتغل بنفسه بالكتابة والتأليف . فمن هؤلاء بطليموس الأول الذي كتب كتاباً في تاريخ الاسكندر ، وبتليموس الرابع الذي ألف أسطورة تمثيلية ، وبتليموس التاسع فإنه مع ما اشتهر به من سوء الخلق ألف كتاب « المذكرات » عن نفسه في أربعة وعشرين جزءاً . وله انتقادات لشعر هوميروس . وقد كان لهذه العناية تأثير كبير في ارتقاء الأدب الإغريقي وكثرة الكتابة والتأليف

احراق
دار كتب
الاسكندرية

الادب في زمن
البطالسة

لما استولى البطالسة على مصر أدخلوا بالبلاد كثيراً من الإغريق انتشروا في جميع أنحاء القطر ونشروا صناعتهم فيه ، فتعلمها منهم المصريون . وقد تمكن صنَّاع العنصرين من الوصول بالصناعة الى الحد الذي يلائم تلك الحضارة العظيمة التي تحيط بهم

الصناعة والتجارة
في زمن البطالسة

أما التجارة فقد وصلت الى درجة عظيمة جداً في زمنهم ، ولا سيما عهد بطليموس الثاني (فيلادلف) ، إذ كانت التجارة عظيمة بين مصر والبلاد التي على شواطئ البحر الأحمر حتى بلاد « بُنت » جنوباً . وكانت السفن المصرية تسافر من السويس الى عدن وبلاد العرب ، وقيل أيضاً انها كانت تصل الى بلاد الهند ، كما انها كانت تسافر الى بلاد عديدة على شواطئ قارة إفريقيا . ومما ساعد على نمو التجارة اصلاح طريق القوافل الموصل بين الوجه القبلي وشاطئ البحر الأحمر مخترقاً وادي الحمامات ،

وتأمين السابلة فيه ؛ وكانت ترد الى مصر حاصلات بلاد النوبة وبلاد السودان الشرقية كما كانت ترد في الأزمنة المتقدمة . وأما التجارة بين مصر وبين المستعمرات الإغريقية الأخرى المنتشرة على شواطئ البحر الأبيض فكانت متواصلة ذات فائدة كبرى لمصر

ومن الأسباب المهمة في رواج التجارة المصرية في ذلك العصر وجود الكثيرين من الاسرائيليين بالاسكندرية ، وتمتعهم هم وغيرهم من المالبين بمزايا تجعلهم لا يضنون باستخدام أموالهم في التجارة ، بفضل استتباب الأمن بالبلاد ووجود جيش وأسطول حربي يحميان مصالح التاجر ويضمنان لأمواله السلامة

الفصل الثالث

كلمة في الرومان (الروم)

كانت الرومان من أشد أمم الأرض بطشاً ، وأوسعهم ملكاً ، وأكثرهم تمدناً . وقد بقي لحضارتهم بعد أن بادوا أثر كبير في مدينة أوروبا ولا سيما الأمور المتعلقة بالقوانين وتشكيل الحكومة وغير ذلك مما نشروه من حضارة الإغريق . ولذا اعتبرت دولتهم أعظم من كثير من الدول القديمة التي ظهرت في أزمان التاريخ وسُميت هذه الدولة بدولة الرومان نسبةً الى « رومية » التي كانت مهد نشأتهم . ولسنا نعرف قطعاً وقت بنائها ولا المؤسسين لها ، وإن كانت الأقاويص الخاصة بذلك كثيرة ، وكلها تشير الى أن مؤسسها هو « روميوس » ، وان تأسيسها كان في القرن الثامن قبل الميلاد

وكانت « رومية » في أول أمرها مدينة صغيرة على نهر « التبر » يسكنها قوم من منشأ روميا اللاتينيين ، ثم عظمت شيئاً فشيئاً . وكان اللاتينيون منتشرين أيضاً في القرى المجاورة

لها ، فاتحدوا جميعاً تحت رياسة « رومية » للدفاع عن أنفسهم اذا هاجمهم غيرهم .
ويُعرف ذلك « بالاتحاد اللاتيني »

﴿ أطوار تاريخ الرومان ﴾

ينقسم تاريخ الرومان الى ثلاثة أطوار :

١ - « طور الملكية » . ويمتد من تأسيس « رومية » الى سنة ٥١٠ ق . م .

٢ - « طور الجمهورية » : ويمتد من سنة ٥١٠ الى سنة ٣٠ ق . م .

٣ - « طور الامبراطورية » . ويمتد من سنة ٣٠ ق . م الى سنة ١٤٥٣ م

طور الملكية كانت حكومة « رومية » ، ملكية في العهد الأول ، فطغى بعض ملوكها وظلم ،

فأخرجه الرومان من المدينة وألغوا حكومة جمهورية حوالى سنة ٥١٠ ق . م

طور الجمهورية وكان القابضُ على زمام الأمور في أيام الجمهورية رئيسين يدعى كل منهما « قنصلاً »

ليمنع أحدهما الآخر محاولة الجور والاعتساف . وكانت تنتخبهما جمعية عمومية لمدة

سنة واحدة . ومن حق هذه الجمعية النصح للقنصلين والنظر فيما يريدان سنّه من

القوانين . وعلاوة على ذلك كانت تشمل هيئة الحكومة مجلساً آخر يقال له

« مجلس الشيوخ » أو « السناتو » ، وأعضاؤه من رؤساء أسرات الأشراف ، غير أن

رأيه كان استشارياً محضاً . وفي الأوقات الحرجة التي يُخشى على البلد فيها مما قد

يقع من النزاع بين القنصلين كان يُعين لرياسة الحكومة شخص مطلق السلطة على

الجيش يسمى « دِكْتاتوراً » . ولا تزيد مدة حكمه على ستة أشهر

وكان برومية في أوائل أيام الجمهورية طبقتان من السكان : الأشراف ويسمون

« البطارقة » ، والعامّة ويسمون « البلييان » (السوقة) وكانوا أذلاء محقرين

محرومين من اللّحاق بعمّال الحكومة ، وممنوعين من التزوّج بأحد من أسرات

البطارقة . وكان هؤلاء يستعبدونهم لشدة فقرهم واضطرارهم الى اقتراض المال منهم

فلما سئموا هذه الحالة هاجروا جملةً من « رومية » سنة ٤٩٤ ق . م الى مكان يدعى

النزاع بين طبقتي
السكان في رومية

« الجبل المقدس » حيث كانوا يريدون انشاء مدينة جديدة لهم . فبالأشراف هذا الأمر ، لأنهم فقدوا به طبقة العملة والخدم وأصبحوا لا يستطيعون المعيشة في هناء ، فخضعوا لمطالبهم وعينوا منهم حاكمين يسمى كل منهما « ترنيونا » (أطرُبونا) للمحافظة على حقوقهم ، وكان من حق الترييون أن يمنع سن القوانين المضرة بمصلحة البليان ، وكل من تعدى على حقه جوزى بالقتل . فعاد البليان الى « رومية » وأخذ الحاكم المحافظان على مصالحهم يزيدان في حقوقهم شيئاً فشيئاً ؛ ففي سنة ٤٥٠ ق . م . دُوِّنت القوانين بعد ان كانت مفهومة إجمالاً يتلاعب الأشراف في تطبيقها كيف شاءوا . وفي سنة ٤٤٤ خُوِّل للبليان حق انتخاب القناصل منهم اسوة بالأشراف وان كان لم ينتخب أول قنصل منهم الا سنة ٣٦٦ ق . م . وما زالت حقوقهم تزداد شيئاً فشيئاً حتى انتهى الأمر بمساواتهم بالأشراف من كل وجه سنة ٣٠٠ ق . م . وبالتدرج نُسي الفرق بين الطبقتين

✽ نمو سلطان رومية وامتداده على غيرها من البلدان ✽

لما قويت حكومة الجمهورية أخذت في توسيع نطاق « رومية » وبسط سلطانها غزو اتروريا على ما جاورها من البلدان . وكان يمتد على الشاطئ الغربي من ايطاليا شمالي « رومية » مقاطعة عظيمة تسمى « إتروريا » يُعرف أهلها بالإنترُسك ، وهم من أشد أعداء الرومان ، فنشبت بينهم حروب طويلة انتهت باستيلاء الرومان على « فياي » أمنع حصونهم سنة ٣٩٦ ق . م ، ففضى ذلك على قوة « الإنترُسك » ، وأعقبه غلبة الرومان على جميع بلادهم بلداً فبلداً

وفي سنة ٣٩٠ ق . م . حدث أمر أوقف فتوح الرومان وكاد يقضى على مجدهم . هجوم الغالين على رومية وذلك ان « الغالين » (وهم جنس بربرى سكن ايطاليا شمالي نهر « بو ») زحفوا جنوباً نحو « رومية » ابتغاء السلب والنهب ، فبرزت اليهم الجيوش الرومانية ولاقوم على نهر « إليا » بالقرب من مدينة « رومية » ، فدارت الدائرة على الرومان وولوا

مُدبرين الى المدينة ، فاقحمها الغاليون عليهم قبل أن يستعد أهلها للدفاع عنها ،
واستباحوها سلباً وتحريقاً ، ولم يمسكوا عن تدميرها جميعاً إلا بعد أن ألهاهم عنها أهلها
بالكثير من المال

السميون

ولما انتعش الرومان مما أصابهم من الوهن بعد هذه الهزيمة عادوا الى السير في
طريق الفتح . وكان « السَّمْنِيُّونَ » أكبر أعدائهم فألبوا عليهم أكثر سكان
ايطاليا من « الأثرُسك » و « الغالين » و « الإغريق » ، وبذلك خاضت
« رومية » سنة ٣٤٣ ق . م حروباً طويلة استغرقت أكثر من قرن ، وانهت
الأمر بفلج الرومان وفوزهم على جميع أعدائهم فأصبحوا أرباب السيادة على شبه
جزيرة ايطاليا الأ قليلاً

حروب بيروس

وبقيت بعد هذه الحروب مدينة ذات ثروة هائلة في جنوب ايطاليا تسمى
« تَارْتُو » لم تخضع هي أو لواحقها من المستعمرات الإغريقية لنفوذ الرومان .
واستنجدوا « بيروس » ملك « أبيروس » (مقاطعة بيلاد الإغريق) . وكان بينه
وبين الاسكندر قرابة ، فطمع « بيروس » في تكوين دولة عظيمة بالمغرب تضارع
التي أسسها قريبه بالشرق ، فهمم الى مساعدة أهل « تارتو » وقهر الرومان في
واقعة « هِرْفَلَة » سنة ٢٨٠ ق . م . ثم قهرهم ثانية في « عَسْقَلَان » سنة ٢٧٩ ق . م ،
ولكنه خسر خسارة عظيمة يضرب بها المثل أضاعت عليه ثمرة انتصاره . وفي
سنة ٢٧٥ ق . م . هزمه الرومان في واقعة « بِنْفِنْتُم » هزيمة قضت على آماله ، وتراجع
بجيوشه من ايطاليا . وفي سنة ٢٧٢ ق . م سقطت « تارتو » في قبضة الرومان ،
وبذلك تم استيلاء « رومية » على جميع أنحاء ايطاليا

ولما أن تمت لرومية السيادة المطلقة على شبه جزيرة ايطاليا ولت وجهها الى ما وراء

ذلك ، فلم تجد أمامها أمة عظيمة تخشى اعتراضها في طريقها سوى القرطاجيين

﴿ النزاع بين رومية وقرطاجنة ﴾

أسس الفينيقيون مدينة « قرطاجنة » على شاطئ إفريقية الشمالى بالقرب من قرطاجنة موقع مدينة « تونس » الحالية فى القرن التاسع قبل الميلاد . وأنشئوا حولها مستعمرة جميلة . ثم أخذت هذه المستعمرة فى التقدم حتى صارت دولة عظيمة شديدة البأس ، وأصبحت بعد أن ضعفت شوكة الفينيقيين أنفسهم فى الشرق أعظم دولة تجارية فى البحر الأبيض المتوسط . فكان القرطاجنيون أوفر من الرومان مالاً واكبر منهم أسطولاً ، ولأسطولهم السلطان الأعظم على البحر الأبيض من جزيرة صقلية الى مجاز جبل طارق . وكانوا يملكون فيه جزءاً من صقلية وسرديانية وقرشقة وعدة ولايات على شاطئ اسبانيا . وأما أملاكهم فى إفريقية فكانت تشمل معظم الأراضى المعروفة الآن بتونس والجزائر و«رأكش

﴿ الحروب البونية وأسبابها ﴾

يُعلم مما تقدم أنه لم يكن بد من حدوث تنافس بين دولتى قرطاجنة ورومية ، إذ الأولى لها السيادة على البحر الأبيض المتوسط ، والثانية آخذة فى توسيع نطاق أملاكها وتجارتها فى ذلك البحر ، فنشبت بينهما بسبب هذه المنافسة حروب طويلة تسمى « الحروب البونية » أو (البونيقية) ، ومعناها الفينيقية لأن القرطاجنيين فينيقيو الأصل . وهى ثلاث حروب .

﴿ الحرب الأولى ﴾

(٢٦٤ - ٢٤١ ق م .)

بدأت هذه الحروب بسبب تدخل الرومان فى جزيرة صقلية وارسال جنودهم استيلاء الرومان اليها وقبضهم على مدينة « مسانا » (مسيني) . وهذه الحرب عظيمة الشأن من على صقلية

حيث كانت أولى الحروب البحرية التي دخلت فيها رومية . ولم يكن للرومان إذ ذاك أسطول ما ، فلما أدركوا عظيم بلائه في هذه الحروب شيدوا (على ما قيل) ما يربو على مائة سفينة في شهرين وحازبوا القرطاجنيين بحراً في «ميلي» بالجزيرة المذكورة سنة ٢٦٠ ق . م . فقهرهم واستولوا على جزيرة صقلية ، فكانت هذه أول مستعمرة لهم وراء شبه جزيرة ايطاليا . ولم تنته الحرب عند ذلك بل لبثت سجالاتاً عهداً طويلاً ، وانهمزم في خلالها الرومان انهزماً عظيماً في « إفريقية » بقيادة « ريجولوس » سنة ٢٥٦ ق . م . ثم اقتضت الحرب على جزيرة صقلية كما كانت من قبل ، وفي أثناءها انهمزم الرومان بحراً في واقعة « جباتم » ثم انتصروا على القرطاجنيين في موقعة فاصلة بالقرب من جزائر « إجيت » سنة ٢٤١ ق . م . فعقد الصلح بين الفريقين وبه تمّ للرومان الاستيلاء على جزيرة صقلية

✽ الحرب الثانية ✽

(٢١٨ - ٢٠١ ق . م .)

بعد الحرب البونية الأولى حدثت فتن وقلقل في « قرطاجنة » كادت تقضى عليها . لولا أن رجلاً عظيماً فيها يدعى « هملكار » أخذ تلك الثورة وأعاض خسارة صقلية باستيلائه على الجزء الأكبر من اسبانيا ، وهناك درّب جيشاً عظيماً تاهب للانتقام لبلاده من أعدائها . وكان الرومان قد انتهزوا فرصة حدوث الفتن في « قرطاجنة » واغتصبوا « سردانية » و « قرشقة » من القرطاجنيين ، فكان هذا أدعى لاستئناف القتال بين الفريقين . والسبب الذي دعا الى نشوب الحرب ان القرطاجنيين حاصروا مدينة « سغنتم » الإغريقية بأسبانيا ، وكانت موالية لرومية فابتدأت بذلك الحروب البونية الثانية

وهذه الحروب هي أهم الحروب البونية جميعها ، للحوادث العظيمة التي حدثت

فيها والشهرة الطائلة التي نالها بطلها وهو « أنيبال » بن « همليكار » السالف الذكر



انيبال

وكان « أنيبال » من أشد الناس وفاءً لوطنه وأكثرهم تفانياً في خدمته والانتقام له . وكان قائداً حريياً كبيراً تحبه جنوده ، وتهابه أعداؤه ، على شدة بأسهم وقوة جيوشهم . وهو بلا شك من أعظم القواد الذين ظهوروا في أزمان التاريخ

وتوقع الرومان أن تكون الحرب في أسبانيا ، فأخذوا يعدون الجيوش لغزوها وأغفلوا مهارة أنيبال النادرة

ومبدأه في الحرب ، وهو « أن الهجوم أحسن وسيلة للدفاع » . فبينما هم كذلك إذ أنيبال قد انقض على سهول إيطاليا

وذلك أن « أنيبال » سار سنة ٢١٨ ق . م . في جيش من الرجال الأشداء عبر به جبال « البرانس » ، ثم اخترق بلاد « الغال » المعروفة الآن بفرنسا ، واقتحم جبال « الألب » ونزل منها الى وادي نهر « بو » . فكان مسيره هذا من أغرب ما يمكن لقائد أن يأتي به ، بل لم ير التاريخ الى الآن عملاً حريياً أبدع ولا أحكم منه بالاضافة الى خشونة المعدات وقلة المواصلات . دُعر الرومان من ذلك ، فهزمت جيوشهم الى الشمال لصدّه . فقهرهم أنيبال في موقعتين في وادي نهر « بو » ، ثم عبر جبال أبنين وسار نحو رومية . وكان إذ ذاك قد انضم الى جيشه عدد كبير من أهل الغال . ولما أن تبعته الجيوش الرومانية هيأ لهم خديعة هزمهم بها شرّ هزيمة في واقعة بحيرة « ترازيمين » سنة ٢١٧ ق . م . حيث قُتل قنصلهم ، وقضى فيها على رجالهم وربما كان الأجدر بأنيبال إذ ذاك أن ينقض على « رومية » ، ولعله رأى أن يوئل

مسيره
الى إيطاليا

واقعة ترازيمين

ذلك الى أن يزيد من ضعفها بالاستيلاء على الجهات المجاورة لها . وفي السنة التالية جمع الرومان اكبر جيش استطاعوا جمعه وساروا به لمقاتلة أنيبال ، فتقابل الجيشان في واقعة « كان » بالجنوب الشرقي من ايطاليا سنة ٢١٦ ، أظهر فيها أنيبال من المهارة والمقدرة ما أفنى به الجيش الروماني (وكان عدده ٨٠٠٠٠٠ مقاتل) فلم ينج منه إلا من وقع في الأسر . ولو كان مجد الرومانيين مشيداً على القوة الحربية فقط ، ولم يكن لهم الحظ الأكبر في السيادة ونظام الحكومة ، لكانت هذه الواقعة قاضية على سلطانهم

واقعة كان

واقعة متوروس بقى أنيبال بايطاليا خمسة عشر عاماً (من سنة ٢١٨ الى سنة ٢٠٢ ق . م .) وهو يقهر الرومان المرة بعد الأخرى ، غير أنه لم يستطع الاستيلاء على رومية ذاتها . وفي أواخر تلك المدة كان بالطبع في حاجة الى نجدة من قرطاجنة ، فسار اليه أخوه في جيش من اسبانيا ، فقابله الرومان في الشمال الشرقي منها وقتلوه وهزموا جيشه على نهر « متوروس » سنة ٢٠٧ ق . م . فكان لهذه الواقعة تأثير كبير في الحروب البونية ، بل في تاريخ رومية والنزاع بينها وبين قرطاجنة ، إذ بسببها منعت عن أنيبال الأمداد التي كان ينتظرها والتي كان في أشد الحاجة اليها . على أن أنيبال بقى ثابت الجأش يواصل القتال في جنوبي ايطاليا حتى استدعى الى بلاده لحماية « قرطاجنة » ذاتها وذلك أن القائد الروماني « شيبون » (الذي لُقّب فيما بعد بالإفريقي لفتح إفريقيا) ترك ايطاليا وذهب بجيش الى إفريقيا . ولما رأت قرطاجنة نفسها في خطر منه استدعت أنيبال فرجع اليها مسرعاً . ولكن حدث ما كان يخشاه بعد قتل أخيه ، فانتصر شيبون على أنيبال انتصاراً عظيماً في واقعة « زاما » بالقرب من قرطاجنة سنة ٢٠٢ ق . م . وعند ذلك عقد الصلح بين الدولتين على شرط أن تنزل قرطاجنة عن اسبانيا وجزائرها التي في البحر الأبيض المتوسط ، وأن تدفع لرومية جزية سنوية كبيرة ، وأن تسلم أسطولها اليها ، وأن لا تحارب أحداً إلا باذنهما . وعندئذ اضطر أنيبال الى الفرار من قرطاجنة . ثم ألب ملك مقدونية وملك سورية على محاربة

واقعة متوروس

واقعة زاما
والصلح

الرومان، وحارب بنفسه في جيوشهما، ولما لم يفلح تناول السم فقضى على حياته سنة ١٨٣ ق. م مخافة أن يقع في أيدي الرومان أعدائه

﴿ الحرب الثالثة ﴾

(١٤٦ - ١٤٩)

اتفق أن أحد ملوك إفريقية المجاورين لقرطاجنة تمدى عليها وأهانها مراراً عديدة فهمت « قرطاجنة » بالدفاع عن نفسها، فاعتبر الرومان ذلك مخالفاً لشروط الصلح الذي تم بينها وبينهم سنة ٢٠١ وشنوا عليها الغارة . فلما أنست « قرطاجنة » من نفسها الضعف طلبت من الرومان الصلح بالشروط التي يختارونها ، فطلبوا منها تسليم جميع أسلحتها وأسطولها ، وبعد أن فعل القرطاجنيون ذلك طاب منهم الرومان الجلاء عن المدينة واتخاذ مكان جديد لهم يبعد عن البحر بنحو عشرة أميال . فهاج القربان جنبين ذلك ، واتقاب ضعفهم الى شجاعة اليأس ، فقاموا رجالاً ونساءً ، كباراً وصغاراً، للدفاع عن مدينتهم ، وبنوا لهم أسطولاً جديداً وردوا هجمة الرومان ، فبقي هؤلاء سنتين كاملتين غير قادرين على أخذ المدينة ، ولكنهم تمكنوا أخيراً من الاستيلاء عليها وأحرقوها ، وبذا قضوا على أكبر أعدائهم وأعظم عائق لاتساع احراق قرطاجنة ملكهم . فكان ذلك ابتداء سيادتهم في المغرب

﴿ فتوح الرومان ﴾

لم تكن أطماع الرومان قاصرة على الغرب ، بل لم تنته الحروب البونية حتى استولت رومية على مقدونية (سنة ١٦٨ ق. م .) وبسطت سيادتها التامة على بلاد الإغريق (١٤٦ ق. م .) وجزء كبير من آسيا الصغرى ، فوق ما استولت عليه من قبل من صقلية وسردانية وقرشقة وجنوبي جبال الألب من بلاد الغال ، واسبانيا وإفريقية . وقد واصلت فتوحها في الشرق حتى تم لها على يد «بومبي» (بومبيوس) الاستيلاء على جميع سورية واكثر آسيا الصغرى سنة ٦٣ ق. م

ثم فتح يوليوس قيصر ما وراء جبال الألب من بلاد الغال (٥٨ - ٥٠ ق. م.)
ثم برطانية سنة ٥٥ ق. م.
وفي سنة ٣١ ق. م. استولى أكتافيوس على مصر عقب واقعة « اكتوبريوم » ،
وسياتى ذكر ذلك فى الكلام على علاقة الرومان بالبطالسة

❖ اضمحلال الجمهورية وتأسيس الامبراطورية ❖

أسباب الضعف
لما أخذت الدولة الرومانية فى هذا الاتساع العظيم أصبح أعضاء الجمعية العمومية غير قادرين على إدارة سياستها لعدم درايتهم بشؤون تلك الممالك الواسعة البعيدة عن بلادهم ، فأخذ أعضاء مجلس السناتو ينفردون بإدارة الدولة ، فذبّ فيهم روح الطمع واغتصاب الأموال الطائلة والانفاس فى الترف والتتعم ، ثم انهم قصروا المناصب الكبيرة على أقاربهم أو من على شاكلتهم من الأشراف . فأصبحت حال الطبقات الأخرى سيئة جداً ، لسوء أعمال طبقة الأشراف ، ولانتشار الرقيق انتشاراً عظيماً لكثرة أسرى الحروب العديدة التى نمت بها أملاك الدولة . فكان هؤلاء الأسرى يُسَخَّرُونَ فى زراعة الأرض فيرخص بذلك المحصول فلا يستطيع المزارع الحر الصغير استدامة زراعة أرضه ، لأن المال الذى يكتسبه منها أصبح لا يفي بحاجته ، فانتشر الفقر فى البلاد بين الطبقات الدنيا ، وأصبح كثير من الناس اعطالاً ، وهرعوا الى مدينة رومية ليعيشوا من السؤال وتبرعات الأشراف . ولم تُوفَّقْ حكومة الجمهورية الى حسن ادارة تلك الأملاك الشاسعة ، وعجزت عن سن النظام الكفيل بذلك ، فأدت هذه الحال السيئة بالطبع الى القلاقل والفتن بالرغم من مساعى المصلحين . ووقعت البلاد الحروب الداخلية فى حروب داخلية استمرت مدة طويلة . وقد ساعد على ذلك ما قام من المنافسة بين كبار قوَّاد الجيش ، فان الواحد منهم كان اذا عاد من غزوة منتصراً عمل على نزع السلطة من غيره وجمعها فى يده ، فمن ذلك أن « مَرْيُوس » تمكن بفضل انتصاراته بين سنتى ١١٣ و ٩٠ ق. م من تقلد منصب الفصليسة سبع مرات ، ثم قام قائد

آخر يدعى « سلاً » وقاومه حتى أخرجه من « رومية » ، ولما عاد هو منتصراً من حروبه بآسيا الصغرى سنة ٨٢ ق . م نُصِبَ « دِكْتاتوراً » * على الدوام

ومن ذلك أيضاً أن « بومبي » لما تم له صدّ غارة داخلية في اسبانيا ، وأخذ ثورة كان قد قام بها المصارعون في رومية، جُمِلَ قنصلاً سنة ٧٠ ق . م . ولما عاد من فتوحه العظيمة في الشرق سنة ٦١ ق . م . اتفق مع اثنين آخرين من القواد وهما « يُوليوس قيصر » و « كراسوس » على أن يقتصبوا السلطة من الجمهورية تدريجياً

الحكومة
الثلاثية الاولى

ويقسموها بينهم ، فظفر كل منهم بمأربه . ويعرف ذلك « بالحكومة الثلاثية الأولى » وبعد قليل مات كراسوس ، فبقيت السلطة للثنتين الآخرين . وكان « قيصر » قد أُعطيَ القيادة في بلاد الغال ، قضى في فتحها من سنة ٥٨ الى سنة ٥١ ق . م حتى أخضع أهلها ، ونشر بينهم الحضارة الرومانية . وكان « بومبي » قد أُعطيَ حكمَ اسبانيا ، فأتاب عنه من يحكمها ، وبقي هو برومية يبغى القبض على زمام الأمور بها ،

حتى نُصِبَ بعدُ قنصلاً . ولما خشى من ازدياد شوكة « قيصر » عمل بالاتحاد مع رجال السناتو على سلب السلطة منه

ولكن « قيصر » لم يكن بالرجل الذي يغلب على أمره ، بل كان من أعظم رجال التاريخ قيادةً وسياسةً وبلاغةً ، فهجم قيصر بجيشه بغتة على ايطاليا فاستولى عليها في ستين يوماً . ثم قهر قواد بومبي في اسبانيا سنة ٥٢ ق . م . وفي السنة التالية تبع بومبي الى بلاد اليونان فهزمه في واقعة « فرّساليا » . سنة ٤٨ ق . م . ثم فرَّ « بومبي » الى مصر ، فتبعه اليها بعد أن بدد شمل جيشه



يوليوس قيصر
وبومبي

واقعة فرساليا

(يوليوس قيصر)

فكان من أمر قتله ما كان مما سيأتى ذكره عند الكلام على اقراض دولة البطالسة ثم تغلب قيصر على الحزب الموالى لبوهي . وما زال يجمع لنفسه من النفوذ والسطان بهارته وحسن سياسته حتى قبض على جميع الأعمال فى رومية، وصار أشبه بملك منفرد بالحكم، وهو بلا شك كان ينوى تأسيس أسرة ملكية يتناول فيها الحكم الولد عن أبيه . وقد سلك سبيل الإصلاح بأذلاً ما فى وسعه لتوطيد السكينة فى البلاد ، غير أن فئة من المحافظين لم يرق ذلك فى أعينهم، واتهموه بأنه يعمل على استعباد الرومان، فألفوا منهم عصابة سرية بزعامة « برُوتوس » وقتلوه فى منتصف شهر مارس سنة ٤٤ ق . م على أن زعماء هذه الحركة لم يجنوا فائدة من وراء فعلتهم ، بل أضرموا بذلك حرباً داخلية أخرى ، فنقم عليهم ثلاثة من القواد المنتصرين لقيصر ، وهم « أكتافيوس » (وكان من أسرة يوليوس قيصر) و « لييدوس » و « أنطونيوس » (انطوان) ، وكونوا منهم « الحكومة الثلاثية الثانية » وقهروا الثائرين فى موقعة « فلي » (بمقدونية) سنة ٤٢ ق . م . ثم فصل لييدوس منهم وبقى الحكم فى أيدي أكتافيوس وأنطونيوس . ثم وقع بين هذين من التنازع ما أفضى أخيراً الى واقعة « أكتيوم » سنة ٣١ ق . م . التى كانت تبيجتها انتصار أكتافيوس واستيلاء الرومان على مصر جملةً

قتل قيصر

الحكومة
الثلاثية الثانية

واقعة فلي

الفصل الرابع

علاقة الرومان بالبطالسة

ما كادت دولة « الرومان » تظهر بين ممالك الأرض حتى أخذت العلائق تنشأ بينها وبين دولة البطالسة فى مصر ، ولبثت بين الدولتين مدة طويلة ، من أيام مجد البطالسة الى اقراضهم ، تقلبت أثناءها فى عدة أطوار: ابتدأت بمصادقة الرومان للبطالسة، ثم انتقلت الى حمايتهم لهم، ثم السيطرة عليهم، ثم انتهت باستيلائهم على مصر.

ويُلخّص سير هذه العلاقات من مبدئها فيما يأتي :-

ابتدأت العلاقات بين الدولتين بإرسال « بطليموس الثاني » وفدّاً الى « رومية » بطليموس الثاني ليخطب ودّها (فكأنّه كان يعرف مالها من المستقبل العظيم) . فقبلت رومية صداقة ^{بخطب} ود الرومان مصر ، ومن ذلك الحين كثرت التجارة بين ايطاليا والاسكندرية

ثم أخذت هذه العلاقات تتدرّج في أطوار جديدة بدخول ملوك البطالسة في طور الضعف والاضمحلال : ففي سنة ١٧٣ ق . م . أراد « أنطيوخوس » ملك سوريا الاستيلاء على مصر استخفافاً ببطليموس « السابع » الذي لم تتجاوز سنّه اذ ذاك الرومان بمحمون بطليموس السابع الخامسة عشر ، فحاصر « أنطيوخوس » مدينة الاسكندرية . فتدخل الرومان في الأمر وثبتوا « بطليموس » في عرشه وردّوا « أنطيوخوس » الى بلاده . ثم ان « بطليموس » هذا طرده أخ له من مصر بعد ذلك ببضع سنين . فذهب الى « رومية » في حالة رثّة يطلب المعونة . فاتفق مجلس « السناتو » على أن يعاد الى « بطليموس » ملك مصر وأن يُعطى أخوه « برقة » ، فرضى الأخوان بهذا الحكم احتراماً لرومية ، وان لم ينطبق تماماً على رغبة كليهما :

وفي عهد « بطليموس التاسع » حضر القائد الروماني « شيدون الإفريقي » الى مصر لمشاهدتها واختبار أحوالها ، فقبل بترحاب كبير ، وان كانت زيارته لم تأتِ بنتيجة معيّنة . كذلك أرسل « سلا » سفيراً سنة ٨٧ ق . م . ليطلب من « بطليموس العاشر » مساعدة الجمهورية في الحروب الكثيرة التي كانت اذ ذاك قائمة بها ، فلم يجب « بطليموس » ملتصمه ، وإن كان قد أكرم سفيره اكراماً كبيراً

وفي سنة ٨١ ق . م . قام « بطليموس الثالث عشر » مطالباً بالملك بدون أن يكون له حق ظاهر فيه ، وكانت شوكة « الرومان » حينئذٍ قد قويت فأصبح الذي يطالب بالملك يضمنه متى عزّزته رومية . فرشا بطليموس رجالها بمال كثير ، ففاز بالحكم مدة من الزمان ، وإن كان « يوليوس قيصر » قد حاول أن يحظى بمصر لنفسه ثم قام المصريون أنفسهم ونفوا « بطليموس الثالث عشر » من البلاد ، فشغل

الرومان بشأنه، وخطب خطيبهم «شيشرون» مدافعاً عنه واقترح إعادة الملك إليه، فأرسل «بومبي» وحاكم سورية الروماني جيشاً لتنفيذ ذلك، فهزموا الجيوش المصرية وأعادوا بطليموس الى عرشه. فكان ذلك من اكبر مظاهر قوّة «رومية» ومقدار ما وصل اليه نفوذها في مصر حتى بات ملوك مصر لا يأمنون على ملكهم بدونها

وعند وفاة «بطليموس الثالث عشر» سنة ٥١ ق. م أوصى بأن تخلفه في الملك ابنته «كليوبطرة*»، وحفظ صورة مختومة من هذه الوصية في مصر وأرسل صورة أخرى الى «رومية» حرصاً على تنفيذها بعد مماته

وفي أيام «كليوبطرة» تم استيلاء الرومان جملةً على مصر، فأصبحت ولاية رومانية كما سيأتي بيانه :

﴿ كليوبطرة ﴾

تولت «كليوبطرة» الملك بعد وفاة أبيها سنة ٥١ ق. م. وكانت سنّها إذ ذاك ١٦ سنة. فأشركت معها في الملك أخيها بطليموس الرابع عشر طبقاً لوصية أبيها. ولكن بعد مضي أربع سنوات عاينها أوعز الأوصياء الى أخيها بأن ينفرد في الملك، وكان قد بلغ إذ ذاك ١٤ سنة، فسمع لهم. ولما لم تقدر كليوبطرة على اضطهاد الشعب لها ذهبت الى سورية وجمعت جيشاً في بضعة أشهر وعادت الى مصر سنة ٤٨ ق. م لتسترد عرشها. فتقابل جيشها مع جيش أخيها على الحدود، وعند ذلك وصل «يوليوس قيصر» الى مصر، فصرف كلٌّ من المتحاربين جيشه ورفع أمرهما الى قيصر وكانت كليوبطرة ذات جمال وافر ورساقة بديعة. وكانت على جانب عظيم من الدهاء والفضة، ولها إلمام بلغات عديدة واطلاع واسع في الأدب، فأثر كل ذلك في قيصر، وقرر أن تتولى الحكم مع أخيها وأن تزوّج به طبقاً لعادة الكثير من الملوك المصريين

قيصر يحكم بين كليوبطرة وأخيها

* بعض المؤرخين يسميها كليوبطرة السادسة والاخر يقول انها السابعة، وقد أطلنا الكلام عليها نوعاً لااهرة التي نالتها في عالم التاريخ والروايات

وكان أحد القواد المصريين قد قام وقتئذٍ لإخراج قيصر من مصر، وبَعَثَهُ بالاسكندرية بجيش كبير. ولم يكن قيصر على تمام الأهبة، فاضطر لإحراق أسطوله خشية أن يقع في يد المصريين. ويقال ان مكتبة الاسكندرية أُحرقت أيضاً بهذا السبب. ثم استمر القتال طويلاً بين قيصر والقائد المصرى، ولما وصل الى قيصر المدد تمكن من التغلب على الجيوش المصرية، وفي احدى هذه الوقائع غرق بطليموس وبعد انتهاء الحرب صفح قيصر عن المصريين، وغادر البلاد بعد أن ترك فيها حامية برياسة أحد قواده. وأمر بأن يتولى الحكم مع كليوباترة أخوها الثانى، وسماه بطليموس الخامس عشر وزوجها بها

وعند ذلك خشيت كليوباترة أن يضيع نفوذها وسلطانها على قيصر بمضى الزمن، فبعتته الى « رومية » حيث أُعدَّ لها قصر عاشت فيه لحين قتل قيصر فى سنة ٤٤ ق . م . فعادت الى مصر بعد أن توفى أخوها (وزوجها) فى رومية فى نفس السنة التى قتل فيها قيصر

كليوباترة
وانطونيوس

ولما تنازع قواد قيصر بعد مماته كان النصر لأنطونيوس وأكتافيوس اللذين أمدت كليوباترة خصميهما. فاستدعاها أنطونيوس اليه لتجيب عن عمالها. وكان إذ ذاك بجهة « طَرَسُوس » بمقاطعة « كيليكيا »، فذهبت اليه فى سفينة فاخرة، جمعت فيها من أنواع الزينة والزخرف وآلات الطرب والخدم والحاشية ما يذهب بالألباب. فوقعت مقابلتها لأنطونيوس فى قلبه موقع السهام، فأفقدته كل إرادته وصيرته خاضعاً لها الى آخر أيام حياته، فصفح عنها وذهب معها الى الاسكندرية حيث عاش فى لهو ولعب وترك كل واجباته العسكرية، ولما رأى « اكتافيوس » أن أنطونيوس منصرف عن أخته التى كان قد زوّجها بها، وأن انقطاعه لكليوباترة أنسأه كل شىء، أثار عليه الشعب الرومانى، وأعلن اكتافيوس الحرب على كليوباترة، فخرج كل من أنطونيوس وكليوباترة للقتال (سنة ٣١ ق . م .) وكانت كليوباترة تقود أسطولها بنفسها، ولكنها لما رأت أنها ستغلب على أمرها بالقرب من « أكتيوم » (غربى بلاد اليونان)

رجعت بأسطولها الى الاسكندرية وادعت أنها الغالبة



(كليوباترة)

كما رسمت على الآثار المصرية

عند ذلك أدركت كليوباترة

أن نجم أنطونيوس قد أفل ،

وخشيت أن تقع فريسة في يد

« اكتافيوس » ، فحاولت التغلب

عليه بالحيلة والدهاء ، فلم تفلح ،

فصممت على قتل نفسها ، وأرسلت

الى انطونيوس تخبره بذلك ، فظن

أنها انتحرت بالفعل ، فطمع نفسه

بمديّة . ولما أُخبر أنها ما زالت على

قيد الحياة طلب أن يُحمل اليها

وهو على تلك الحالة ، فمات عندها

ودفنه باحتفال عظيم

ولما اشتد خوفها من

« اكتافيوس » همت بقتل نفسها ،

فوضعت حيّة على صدرها

لدغتها فماتت

واقعة اكتوبر
سنة ٣٠ ق م

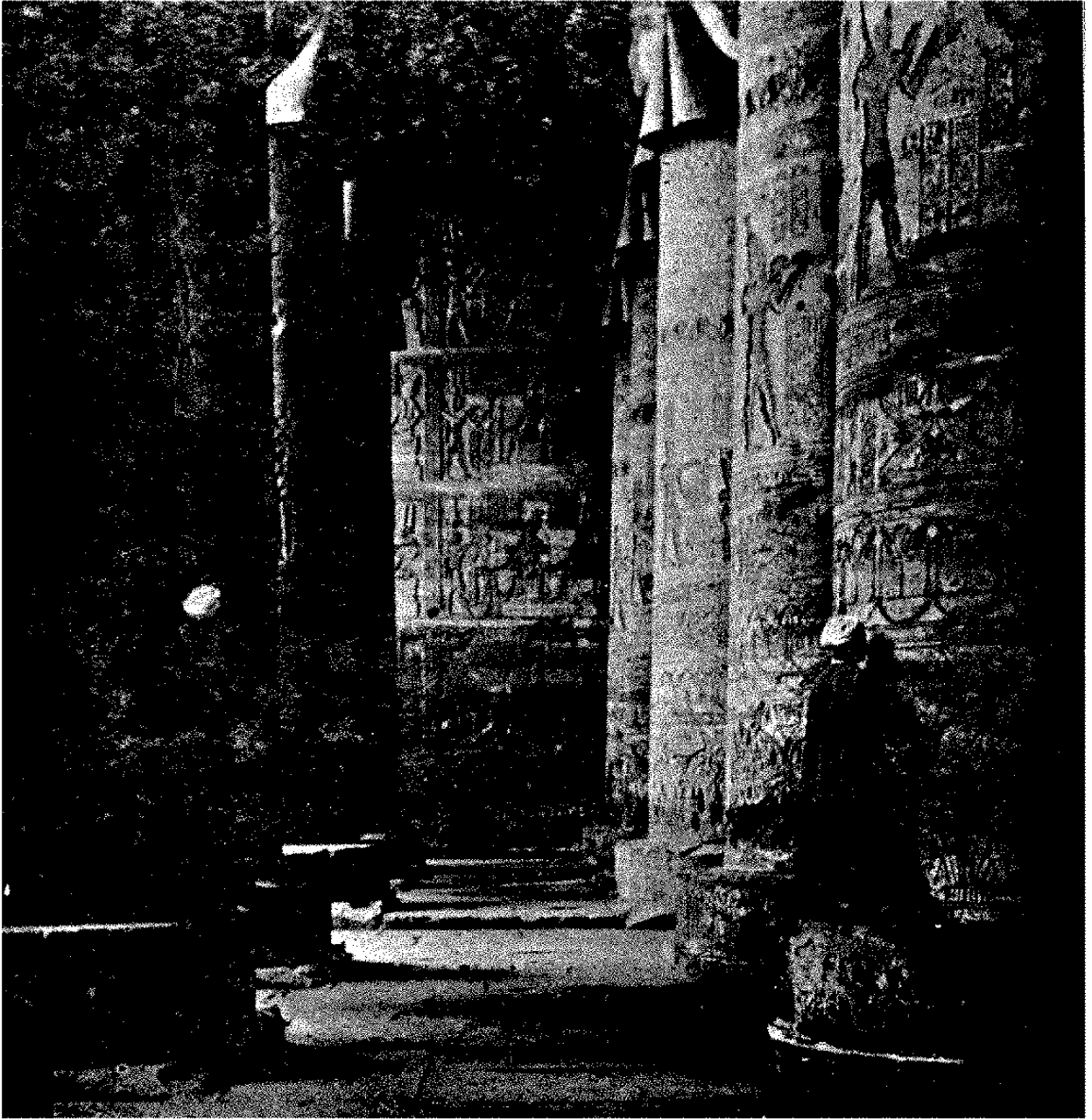
معبد دندرة

ومن أهم آثارها «معبد دندرة» : أسسته هي وزيد في بعدها ، وما زال حافظاً

لشكاه وروقه كما ذكرنا

وبهلاك كليوباترة انتهت أسرة البطالسة في مصر بعد أن حكموا نحو ٣٠٠ سنة ،

وصارت البلاد من بعدهم جزءاً من الامبراطورية الرومانية



داخل معبد ونرة
(رسم لكجيان)

افصل النخامس

كلمة في الامبراطورية الرومانية

قبض اكتافيوس على زمام الدولة الرومانية فنهج منهج الحكمة والاعتدال . ولم يظهر بمظهر الملوك ، خشية أن يثور عليه الرومان كما ثاروا على يوليوس قيصر من قبل ، فلم يغير شيئاً من نظام الحكومة الظاهر ، ولكنه في الحقيقة أخذ يجمع السلطة في يده بالتدريج حتى صار هو القابض على كل شيء بدون أن يثير عليه أحداً . وقد لقب بلقب « إمبراطور » * و « أغسطس » ، فكان حكمه مبدأ حكومة الامبراطورية اغسطس وزهاء
عصره
ومنتهى أيام الجمهورية

وحكم « أغسطس » ٤٤ سنة كانت من أزهى عصور الرومان ، فساد فيها السلم وارتقت العلوم والآداب ، وظهر الكثير من نبغاء الكتاب والمؤلفين ، فمن ذلك « فرجيل » و « هوراس » و « أفيد » الشعراء و « ليفي » المؤرخ الشهير

ثم استمرت الحكومة الامبراطورية بعد عهد أغسطس . واستولى عليها عدة امبراطورين الواحد بعد الآخر ، منهم العادل والظالم ومنهم القوى والضعيف . وآخر من استولى على الملك من أسرة أغسطس (أى من نسل يوليوس قيصر) هو « نيرون » الذي اشتهر بالظلم والقسوة والاستبداد . ومما ينسب اليه أنه أحرق مدينة رومية . واتفق المؤرخون على أنه يوم إحراقها كان يشاهد النيران تآكل المدينة وأهلها فيسرب هذا المنظر ، كأنه ينظر الى رواية تُمثل في ملهى من الملاهي

ومن أشهر الملوك الذين تولوا الملك بعده الامبراطور « تراجان » (٩٨-١١٧م) تراجان
وفي مدته بلغت أملاك الرومان أبعد مدى وصلت اليه ، فكانت الدولة الرومانية تمتد من نهر الفرات شرقاً الى شواطئ المحيط الأتلنتي غرباً ، ومن شمالي انجلترا شمالاً

الى مدار السرطان جنوباً ، وقد قُدرت أراضي هذه الدولة الشاسعة بما يزيد على ١٥٦٠٠٠٠٠ ميل مربع معظمها من أعمر الأرض وأخصبها

بلغت الدولة الرومانية نهاية كمالها ، ولكن علة الهرم كانت قد دبّت فيها من قبل ، فأخذت الأمم البربرية ، ولاسيما الألمانية منها ، تكثرت من غاراتها على الحدود الشمالية . وحقاً أخذت الدولة في التقهقر بعد سنة ١٨٠ ميلادية ، ولم يؤجل سقوطها النهائي إلا ظهور بعض الإمبراطورين المصالحين الذين كانوا يسكنون باصلاحهم تيار الاضمحلال من آن لآخر . ومن أشهر المصالحين الذين ظهوروا فيها اذ ذاك الإمبراطور

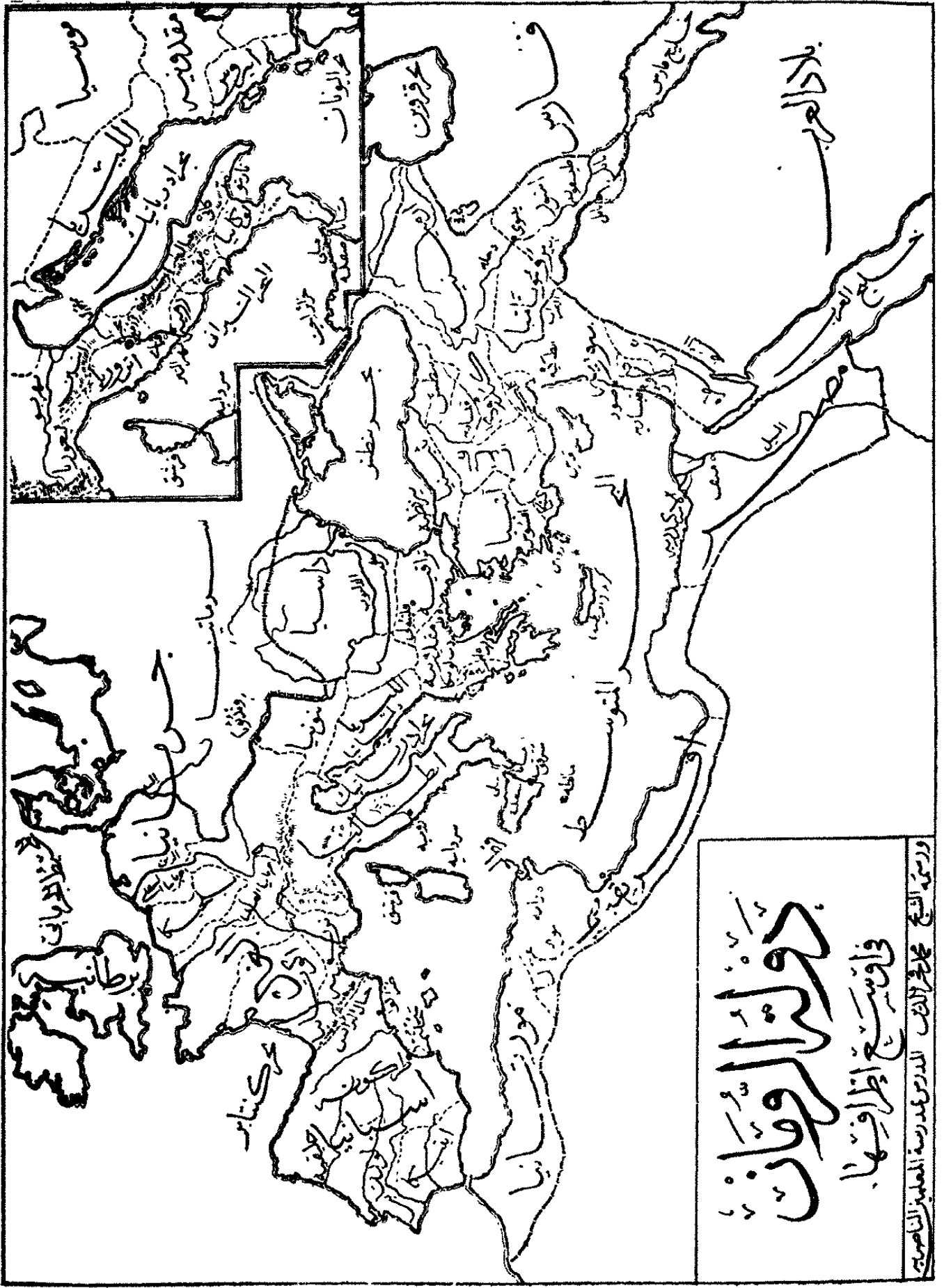
« دِقلديانوس » (٢٨٤ - ٣٠٥ م) . ومن اصلاحاته أنه قسم الدولة الى أربعة أقسام لاتساعها الشاسع ، فولى كلاً منها أميراً ورأس بنفسه أحد الأقسام . فأحدث هذا النظام اصلاحاً في هيئة الحكومة ، وان لم يدم نفعه طويلاً ، فبعد أن توفي دقلديانوس اشتدّ النزاع بين الحكام ، فأفضى ذلك الى حروب داخلية انتهت بغلبة « قُسطنطين » الأكبر على الجميع . فانفرد قسطنطين الأكبر (٣٢٣ - ٣٣٧ م) بالملك ، ولكنه حافظ على باقى اصلاحات دقلديانوس . ومن أعماله أنه جعل المسيحية الديانة الرسمية للبلاد ، فكان بذلك أعظم نصير لها في الأرض منذ وُجدت ، وان كان لم يحرم الوثنية

دقلديانوس
واصلاحاته

جعل المسيحية
الديانة الرسمية

﴿ نقل العاصمة الى القسطنطينية ﴾

ومن أعمال قسطنطين أيضاً أنه نقل عاصمة الدولة من رومية الى « بوزَنْطِيَّة » على شواطئ البسفور . وهذه المدينة قديمة ، أسسها نزلأء الإغريق في منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، ثم نقلت في عدة أطوار كانت فيها خاضعة للإغريق إلى أن استولى عليها الرومان ، فبقيت تابعة لهم الى أن أعجب قسطنطين مناعة موقعها وصلاحته للتجارة ، فنقل عاصمة الدولة الرومانية اليها سنة ٣٣٠ م ، وسُميت من ذلك الحين بالقسطنطينية تنسبةً الى قسطنطين الأكبر



دولة العراق

فانيسنج اظر افها.

درسمه الشيخ محمد الاكبر المدرس بمدرسة المعلمين الناصريين

نتائج نقل العاصمة الى القسطنطينية
وقد كان لنقل العاصمة الى القسطنطينية عدة تأثيرات في الدولة : منها أن الدولة أخذت تظهر عليها المَسحة الإغريقية، لانطباع هذه المسحة في العاصمة الجديدة من مدة طويلة، وما زالت تتأثر بذلك شيئاً فشيئاً حتى حلت اللغة الإغريقية محل اللاتينية وصارت اللغة الرسمية للدولة . ومنها أن نقل قوة الدولة الى الشرق حمى الشرق من غزوات الأمم المتبربرة وسهل عليهم غزو الجهات الغربية . ومنها أن مدينة رومية لما هجرها الامبراطور نظرت الى « البابا » (الرئيس الديني) نظرة الممثل لها ، ومن ذلك العهد ابتداء نمو سلطة البابوية

الدولتان الغربية والشرقية
وبعد وفاة قسطنطين قُسمت الدولة بين أولاده الثلاثة ، ثم اتحدت بعدُ ، ثم انقسمت مرة أخرى ، الى أن تمَّ تقسيمها النهائي سنة ٣٩٥ م الى قسمين : الدولة الغربية وعاصمتها رومية ، والدولة الشرقية وعاصمتها قسطنطينية . وقد استمرت الدولة الشرقية بعد ذلك نحو ١٠٠٠ سنة تمكنت فيها بفضل مناعة موقعها من رد غارات الأمم المتبربرة الأوربية من القوط والسلاف وغيرهم ، كما صدت غارات الفرس والعرب ، ولكنها لم تستطع الدفاع عن معظم أملاكها : فنزع العرب من يدها شرق آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ومصر وبرقة وأفريقية وجزائر البحر الأبيض الشرقية، وابتداءً ذلك من سنة ٦٢٢ م في عهد القيصر « هرقل » . ثم بقيت في نزاع مستمر مع العرب وأم أوروبا، ثم مع الترك، حتى أزالها من الوجود الفاتح الأعظم السلطان محمد الثاني بفتحها . مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م فأصبحت من ذلك الوقت حاضرة لملك سلاطين آل عثمان الى وقتنا هذا

سقوط الدولة الغربية
أما الدولة الغربية فلم تعمر طويلاً ، اذ كثرت غارات الأمم المتبربرة عليها واستولوا شيئاً فشيئاً على أملاكها . وأخذت قوة امبراطورها في الضعف حتى كادت تكون اسمية فقط ، وفي سنة ٤٧٦ م اغتصب « أودواكر » زعيم القوط ما بقي من القوة في يد « روميلوس أغسطس » الامبراطور الروماني ، وبذا سقطت الدولة الرومانية الغربية

إفصيل الساذبين

مصر في عهد الرومان

استولى أغسطس على مصر سنة ٣٠ ق. م. فكانت ثمرة انتصاره . ولذلك اعتبرها جزءاً من أملاكه الخاصة ، فنع رجال السناتور برومية من التدخل في شؤونها . وحرّم عليهم ولاية شيء من أعمالها ، بل الرحلة إليها بدون اذن منه

ودخلت مصر باستيلاء الرومان عليها في عهد خول سياسي طويل امتد نحو ٦٧٠ سنة (من ٣٠ ق. م. الى ٦٤١ م) لم يكن لها فيه شيء يذكر في التاريخ ، بتصدير الحبوب بل كانت بمثابة حقل لإنتاج الحبوب وتصديرها إلى رومية لسدّ أهم جزء من الخراج



(المعبد الروماني بمدينة أبو) رسم لكجيان

كذلك نقص فيه تشييد المباني العظيمة من هياكل وغيرها ، ولا سيما ما كان منها على الطراز المصري القديم ، فإنه بعد أن أقام الرومان على هذا النمط بضعة من المعابد الصغيرة ، وشيدوا أجزاء جديدة في بعض القديمة ، مثل معابد الباني والفنون الجميلة

تاريخ (١٧)

« مدينة آبو* » و « فيلة » و « دندرة » و « قفط » وغيرها ، أخذوا يشيدون المباني على الطراز الإغريقي أو الروماني . ولم يكن ما شيدوه من هذا النوع أيضاً بالكثير ، لما أصاب البلاد من الفقر في أواخر أيامهم باشتداد ظلمهم وعسفهم . أما الرسم



والتصوير وفن البناء ذاته فقد لحقها الاضمحلال والانحطاط في العصر الروماني ، غير أنه ظهر في هذه الفنون نوع جديد ما بين إغريقي ومصرى ، وهو جميل في بابه (انظر شكل التابوت) . وأخذ اهمال النقوش الهيروغليفية يزداد يوماً فيوماً حتى نسيت تلك الكتابة بالمرّة في آخر العصر الروماني ، وبقيت النقوش والكتابات الكثيرة التي على الآثار المصرية غير مقروءة الى أن حُلّت رموزها بعد العثور على حجر رشيد كما ذكرنا في أول الكتاب

وأما نظام الحكومة فلم يغيّر الرومان منه شيئاً كبيراً ، شأنهم في الممالك التي يستولون عليها ويجدون بها حكومة منتظمة . فأبقى أغسطس معظم أنواع الأنظمة الداخلية التي اختطتها البطالسة ، ونصّب من قبله والياً على البلاد ، فبقي جوهر هذا النظام متبعاً حتى انتهاء الحكم الروماني في مصر وكان مقرّ الوالى مدينة الاسكندرية ، وينتقل

نظام الحكومة

في أنحاء البلاد لسماع المظالم واصلاح المخاصمات (تابوت من العصر الروماني)

* عربى طيبة . وقد يطلق على الائر الذى أوردنا رسمه هنا « المعبد الروماني » والحقيقة أن السور الخارجى والنقوش التي على قوائم الباب هي التي من عمل الرومان . أما البرجان والعمودان فمن آثار البطالسة

وجمع الخراج والإشراف على الجيوش وعمل الاحصاءات ، وكانت المملكة مقسمة الى عدة مديريات يرأس كلاً منها مدير ، وكان للوالى مساعدان فى أول الأمر وثلاثة فيما بعد يستعين بهم فى الإشراف على إدارة أقسام مصر الثلاثة : العليا والوسطى والسفلى

وكان معظم هذا النظام متبعاً فى زمن البطالسة ، وحقاً لم يغير أغسطس من نظام البلاد شيئاً يذكر سوى إلغاء مجلس مدينة الاسكندرية ، إذ أراد أن يفهم أهلها (وكان معظمهم من الإغريق) انه لا ينبغي لهم أن يرتكنوا على قرابتهم من الفاتحين ، وينظروا الى أنفسهم كأنهم أرقى من باقى السكان . فألقى مجلس مدينتهم الذى كان أشبه بحكومة محلية تدير شؤونهم ، ومنح اليهود جميع الحقوق والامتيازات التى كانوا قد اكتسبوها فى زمن البطالسة . وبذلك ساواهم بالإغريق إن لم يكن قد وضعهم فى مستوى أرقى من مستواهم

وفى زمن الرومان كثرت الفتن والثورات الداخلية بسبب اختلاف عناصر السكان ومذاهبهم فى أنحاء مصر ، خصوصاً الاسكندرية . وقد تشكلت هذه الفتن والمشاحنات فى أطوار مختلفة : فكانت فى أول الأمر بين الإغريق واليهود ، ثم بدخول الديانة المسيحية فى مصر فشا النزاع بين المسيحيين والوثنيين ، ثم انتقل الى الطوائف المختلفة التى نشأت فى المسيحية ذاتها بتعصب الحكومة الرومانية الى فريق دون فريق

وإذ بيناً شيئاً من الحالة العامة فى مصر أثناء هذا العصر الرومانى حسن بنا أن نأتى على بعض الحوادث الهامة التى حدثت فى ذلك العصر فنقول :

كان القرن الأول من العصر الرومانى (٣٠ ق . م - ٦٨ م) زمن إصلاح تدريجى فى البلاد ، ففيه صُدَّت الغارات عن الحدود الجنوبية ، واتسعت حركة تجارة مصر مع الهند والشرق بطريق البحر الأحمر ، وازدادت الزراعة (فى عصر أغسطس ثم نيرون) للاعتناء بكبرى الترع والخُلجان التى كانت أهملت من قبل .

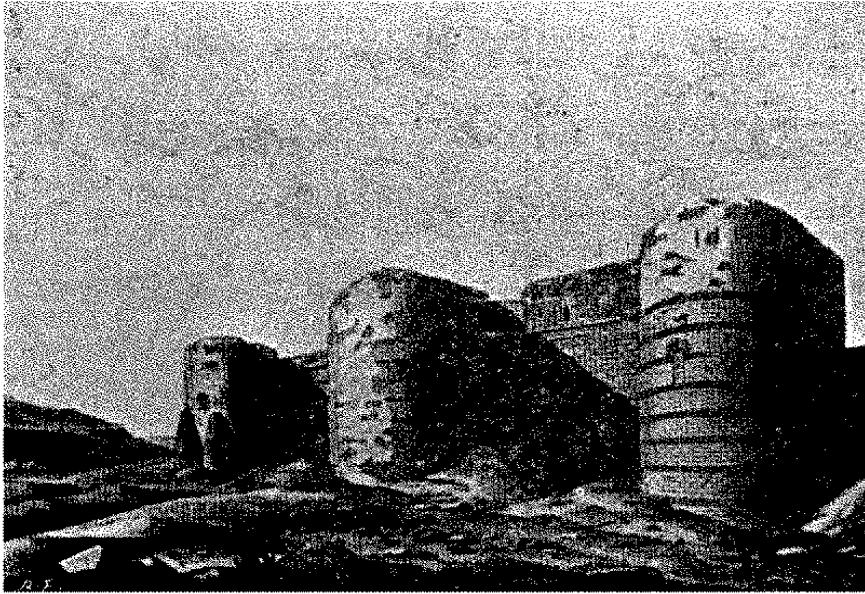
كثرة الفتن
والفلاقل الداخلية

القرن الاول
الاصلاح
التدريجى

وقد قامت في هذه المدة عدة ثورات بين اليهود والإغريق بالاسكندرية ، أهمها ما حدث سنة ٣٨ م ، إذ نهب الإغريق الحى الاسرائيلى من المدينة ، وذبحوا عدداً كبيراً من سكانه . وانهى الأمر باصلاح الامبراطور بين الفريقين ، ولكن ما لبثت المشاحنات أن تجددت بينهما

القرن الثانى
المحافظة على
التقدم

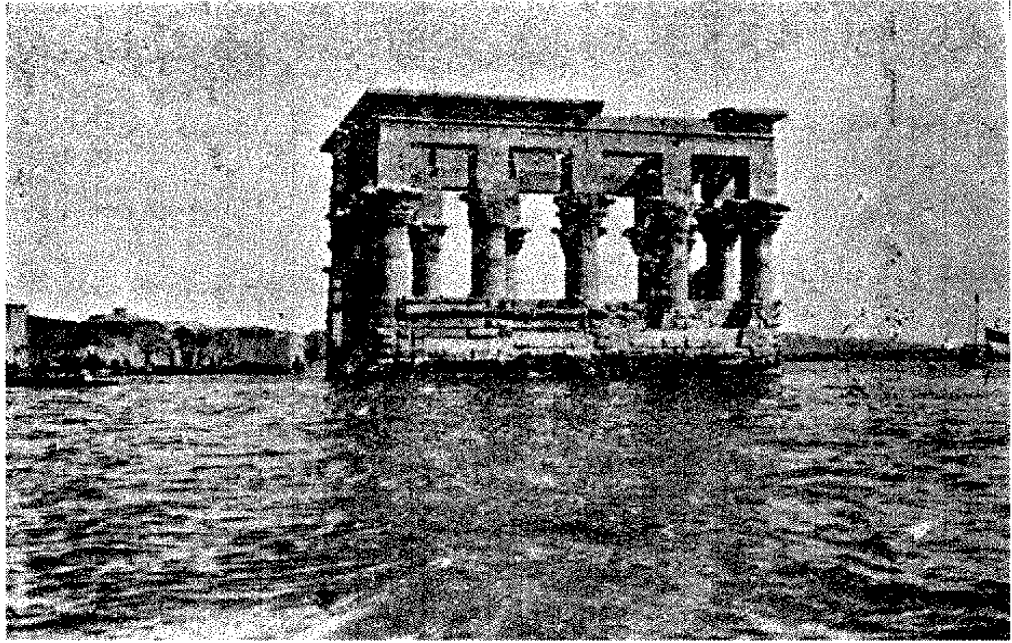
أما القرن الثانى (٦٨ - ١٨٢ م) فكان معظمه عهد تقدم كبير أيضاً فى مصر إذ أن الرقى الذى وصلت اليه البلاد فى أواخر القرن السالف وبلغ أقصاه فى أيام « نيرون » (على ما له من سوء السمعة) حافظ عليه ملوك القرن الجديد ، فظهرت نتائجه فى ثروة البلاد وراحة أهلها وتجارها التى اتسعت فى الشرق حتى وصلت الى الصين . ومن أعظم ملوك هذا القرن الامبراطور « تراجان » (٩٨ - ١١٧ م) الذى حفر خليجاً من النيل الى البحر الأحمر لتوسيع نطاق التجارة فى الشرق . وفى مدته جُدد بناء حصن بابليون ؛ وهو حصن قديم لا يُعرف مؤسسه



(حصن بابليون)

رسم سنة ١٧٩٨

جدده تراجان على الطراز الروماني ، ولا تزال بعض مبانيه باقية الى الآن بالقرب من كنيسة ماري جرجس بمصر القديمة . وهو الحصن الذي قاوم العرب مدة طويلة أثناء فتحهم مصر
وفي أيام تراجان تم بناء معبد فيلة ، وشُيدت مبان أخرى عديدة في أنحاء البلاد



(فيلة - معبد تراجان)

رسم فزاني

وفي عهده أيضاً حدث في البلاد قحط بسبب انخفاض شديد في النيل، فتداركه الإمبراطور بإرسال عدة سفن من رومية الى الاسكندرية محملة بالقلال . وفي أواخر أيامه حدثت فتن كبيرة بين اليهود والإغريق قام اليهود فيها بذبح كل من وصلت اليه أيديهم من الإغريق وطاردوهم ، فالتجثوا الى مدينة الاسكندرية حيث اتقموا لأنفسهم ممن عثروا عليه من اليهود داخل المدينة . واستمر القتال بين الفريقين عدة أشهر . وانتهى الأمر بطرد اليهود الى الصحراء بعد أن سُحق معظم من كان منهم بالاسكندرية

الثورة الداخلية

ومن أهم حوادث هذا القرن قيام ثورة داخلية في عهد الامبراطور «مارك أوريل» (سنة ١٧٢ م) بدأت في بعض فرق الجيش ثم انتشرت في أنحاء البلاد ، فكانت أول شيء من نوعها في زمن الرومان ، إذ أن جميع الفتن التي حدثت قبل ذلك كانت قاصرة على الاسكندرانيين ، وكانت بين بعض الطوائف وبعضها الآخر ، بخلاف هذه ، فانها كانت على الرومان لظلمهم ، وانتشرت في أنحاء القطر . وقد لاقى الرومان مصاعب كبيرة في إخضاع الثائرين ، ولم تُوطد السكينة في البلاد إلا بعد عدة سنوات . ثم ثار أحد كبار القواد الرومانيين على الامبراطور ، فحضر « مارك أوريل » بنفسه الى الشرق ، فأخذ الثورة وصفح عن الثائرين

عهد مارك أوريل

وقد كان لهاتين الثورتين تأثير سيئ في حالة مصر ، فتأخرت الزراعة وأخذ الفقريدب في البلاد . ومن ذلك الحين وقف التقدم الذي ابتداء منذ دخول الرومان وما لبثت البلاد طويلاً بعد ذلك حتى دخلت في طور تدهور طويل استمر الى أيام الامبراطور « دِقلديانوس » الذي تولى الحكم سنة ٢٨٤



الامبراطور كرا كلا

كرا كلا

ومن أخبار ذلك العصر السيئ أن الامبراطور « كرا كلا » لما تولى الملك سنة ٢١١ ، وكان ظالماً ضعيفاً ، سخر منه الاسكندريون وعرضوا باسمه في نكاتهم وهزلهم . فأتى بنفسه الى الاسكندرية لينتقم منهم ، فجمع عدداً كبيراً من شبانهم خارج المدينة وقتلهم . ثم أقام جداراً بالمدينة قسمها به الى قسمين ، وحرّم على سكان

أحد القسمين الاختلاط بالقسم الآخر ، وأبطل الألعاب التي كان يقيمها الاسكندريون ومن أخبار ذلك العصر أيضاً أن الامبراطور « اسكندر سفيرُوس » أرسل

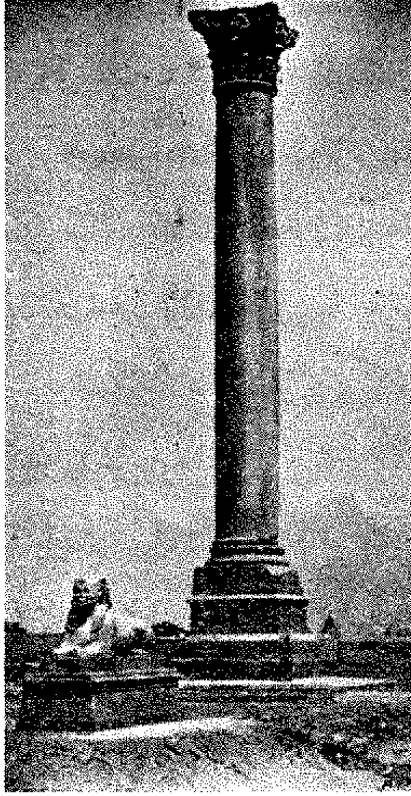
والياً الى مصر من المشاغبين المغضوب عليهم في رومية . ومن ذلك يُعلم مقدار انحطاط منزلة مصر في نظر الرومان حتى أصبحت منقًى للمذنبين

وفي سنة ٢٦٨ م . أغارت زُنُوبيا^(١) ملكة « تَدْمُر » من شمالي بلاد العرب على الشام ومصر ودخلت البلاد بعد مقاومة شديدة من الرومان ، وساعدها على ذلك بعض قبائل « ياعى » (البُجّة)^(٢) . وكانت هذه القبائل كثيرة الإغارة على الحدود الجنوبية ، فظاهروا أهل تدمر لما بينهم من القرابة الجنسية ، واستولت زنوبيا على معظم البلاد المصرية أكثر من سنتين الى أن تمكن الرومان من جمع جيش كبير وأخرجوها منها

بقيت البلاد على هذا الضعف حتى أتى « دِقْلِدِيَانُوس » المتولى سنة ٢٨٤ م فالت مصر جانباً من الاصلاحات التي قام بها في أنحاء الدولة الرومانية ، فصد هجمات البجة وغيرهم من القبائل العربية التي كانت لا تزال تغير على شرقى الصعيد وأقام بعض قبائل النوبة حراساً على تلك الجهات . ثم أصلح مالية البلاد ونظم ضريبة الغلال من جديد ، فخصص جزءاً منها لرومية ، وجزءاً لبذر الأرض ، والثالث لأهل الاسكندرية ، إعانة لهم على ما نالهم من المفاقة بسبب كثرة الثورات والقتال . فمعظم ذلك الجليل فى أعين الاسكندريين وقَدَرُوهُ حق قدره ، فأقاموا عموداً جميلاً بالمدينة تذكراً لهذا الملك الشفيق ، واعترافاً بما أسداه اليهم من الجليل . ولا يزال عمود السوارى هذا العمود بالاسكندرية ، ويعرف بعمود السوارى . وقد يسمى أحياناً بعمود بومبي (وهو اسم غير صحيح لا أصل له) . ومما يؤسف له أن السكنية التي سادت فى البلاد على يد دِقْلِدِيَانُوس لم تستمر طويلاً . بل انقلبت فى أواخر أيامه الى اضطرابات المسيحية فى مصر شديدة انتشرت فى أنحاء مصر بسبب اضطهاد دِقْلِدِيَانُوس للمسيحيين . ويان ذلك أن الدين المسيحى كان قد دخل الديار المصرية من زمن بعيد على يد « القديس مَرْقُس » (والأرجح أن ذلك كان فى عهد نيرون) ، فوجد فى مصر أرضاً خصبة ،

(١) هى الزباه الشهيرة (٢) يقال انهم أجداد البشاريين الذين لا يزالون يقيمون بأعلى الصعيد

فكانت أول أرض قوى شأنه فيها ، ودخل فيه أناس كثيرون . وما زال عدد أتباعه



(عمود دقلديانوس)

المعروف بعمود السواري

يزداد يوماً فيوماً ، واعتقادهم فيه يقوى شيئاً فشيئاً حتى ملك دقلديانوس . فلما رغب الى الرعايا أن يضعوه موضع الألوهية ليضمن بذلك حياته وملكه لم يخضع لإرادته مسيحيو مصر . وقاوموه مقاومة كبيرة . فاضطهدهم وعذبهم ، فلم يزد هم ذلك إلاّ تمسكاً بدينهم ، فذبح منهم عدداً عظيماً في جميع أنحاء البلاد من جميع طبقات أهلها . ويقال ان من بين الذين ألح عليهم الامبراطور في الارتداد عن النصرانية فتاة حسناء تعرف بالسيدة «دميانة» ، وكانت رئيسة لدير بجهة بلقاس ، فلم تسمع له ، فعذبها ثم أمر بذبحها ، وما زال قبرها بتلك الجهة مقدساً إلى الآن يزوره الأقباط

كل عام . وقد ترك عصر دقلديانوس أثراً كبيراً في نفوس الأقباط حتى أنهم سموه

عصر الشهداء « بعصر الشهداء » ، وجعلوا أوله (سنة ٢٨٤ م) مبدأ لتقويمهم يحسبون منه السنين والأيام

أضاعت هذه الاضطرابات ثمرة ما أصلحه دقلديانوس . وبقي المسيحيون في اضطهاد حتى تولى الملك « قسطنطين » وجعل النصرانية الديانة الرسمية للدولة . فكان يُظن أن البلاد تتقدم في عهده كثيراً . ولكن ما كادت تستقر قدمه في الملك حتى ظهر في مصر الخلاف بين الطوائف المسيحية المختلفة ، واستفحل أمره شيئاً فشيئاً بسبب تعصب ملوك بوزنطية لمذهب الأقلية وعدم احترامهم لمذهب الأغلبية ، إذ

كانت لهم بمصر طائفة مسيحية من الروم تؤيدها الحكومة تسمى بالطائفة المملكانية ،
مع أن السواد الأعظم من المصريين كانوا تابعين لطائفة أخرى تدعى اليعقوبية، وكانوا
يلاقون من الروم اضطهاداً كثيراً، فزادت كراحتهم لحكم الرومان، وسهل عليهم في
القرن السابع بعد الميلاد الاستسلام لحكم الفرس ثم الترحيب بالعرب كما سيأتي بيانه
وفي عهد قسطنطين ظهرت الرهبنة في المسيحية لأول مرة ، فكان ذلك مبدأ
تأسيس الأديرة التي عظم شأنها في القرون الوسطى بأوربا وكان لها أكبر أثر فيها .
وراجت في مصر الرهبنة والأديرة رواجاً كبيراً حتى أن الحكومة اعترفت ببعض الأديرة في مصر
الأديرة بعد ذلك بنصف قرن ، وسمحت بأن تكون لها أملاك خاصة بها . وانتظم
كثير من الناس في سلك الأديرة هروباً من الخدمة العسكرية وفراراً من الضرائب
الباهظة ، وزاد ذلك حتى كاد يؤثر في حالة الحكومة

﴿ استيلاء المصريين في عهد الدولة الرومانية الشرقية ﴾

كانت مصر في العهد الأخير من الحكم الروماني في حالة بؤس شديد وفقير
مدقع ، تزداد حالها تعسفاً على تعس منذ عهد نيرون . اللهم إلا فترة قصيرة في عهد
دقلديانوس رجعت بعدها الى ما كانت عليه من التدهور المستمر ، فأصبح الأهليون
بمثابة آلات لإنبات القمح ، وقد كادت زراعته تكون هي الحرفة الوحيدة في البلاد
إذ ذلك . ثم صارت الثروة قاصرة على أفراد قليلة ، وكثيراً ما كانت القرية الواحدة
بأكملها في قبضة رجل واحد من الأثرياء ، مما قتل نفوس العباد ، وقضى على حياتهم
الأديية . ومن الأسباب التي ساعدت على استيلاء المصريين ما يأتي :

أولاً - زيادة الضرائب زيادة فاحشة ، حتى أصبح كل شيء تقريباً لا يخلو
من ضريبة مفروضة عليه

ثانياً - تعصب الحكومة في آخر العهد للإغريق وإيثارهم بكل منفعة ، مع أنهم
ليسوا إلا عدداً قليلاً لا يمثل الأمة تمثيل القبط الوطنيين

ثالثاً - قَصْر كثير من المناصب على بعض الأسرات المثرية وجعلها وراثية فيها
رابعاً - حكم الدولة لمصر بسياسة القهر والسلاح وعدم استجلابها محبة الأهلين
خامساً - عدم استتباب الأمن في البلاد ، كما يُعلم من أوراق البردى الكثيرة
المملوءة بشكاوى أهل ذلك العصر من حوادث السرقة والنهب والاعتداء

دخول الفرس
في مصر

وفي سنة ٦١٠ م استولى الامبراطور « هرقل » على عرش الروم ، وفي أيامه توغل
الفرس في أملاك الدولة الرومانية ، فأغاروا على سورية واستولوا على دمشق وبيت
المقدس سنة ٦١٥ م . ثم زحفوا على مصر وفتحوا الاسكندرية سنة ٦١٧ م . وكان
هرقل كبير النفس على الهمة ، فأثار نهضة قوية جديدة على الفرس أدت الى انتصار
الروم ، ولم تأت سنة ٦٢٨ م . حتى نكص الفرس على أعقابهم ، وساق هرقل جيوشه
الى قصر كسرى فأحرقوه * . وعند ذلك اضطر الفرس الى الانسحاب من مصر .
فعاد اليها الرومان ، غير أن العيش لم يطب لهم فيها طويلاً ، فاستولى عليها العرب
سنة ٦٤١ م بقيادة البطل العظيم عمرو بن العاص ، كما سيأتى بيانه ان شاء الله تعالى

* هذه هي الحوادث التي نزلت فيها الآية الشريفة « أَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ
مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَعْضِ سِنِينَ » . وكان ذلك من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

ملخص

أهم الحوادث التاريخية من عهد دخول الفرس في مصر الى أن فتحها العرب

مصر	التاريخ ق . م	البلاد الأجنبية
	٥٥٠	تأسيس « كورش » لدولة فارس واستيلاؤه على « ميديا »
	٥٤٦	استيلاؤه على « ليديا » ومعظم المدن الاغريقية باسيا الصغرى
	٥٣٨	استيلاؤه على بابل
	٥٢٥	
استيلاء الفرس على مصر بقيادة ملكهم « قبيز » قدوم دارا الاول الى مصر وقيامه باصلاحات كثيرة	٥٢١ — ٤٨٦	حكم دارا الاول ملك فارس طرد آخر ملك من ملوك رومية الاقدمين
	٥١٠	مهاجرة البليان من رومية
	٤٩٤	واقعة مرتون بين الفرس والاغريق
	٤٨٦	
اخراج الفرس من مصر	٤٨٥ — ٤٦٥	حكم اجزرسيس الاول ملك فارس
	٤٨٥	
رجوع الفرس الى مصر	٤٨٠	واقعة ترمويل وواقعة سلاميس
	٤٧٩	صد الفرس جملة عن بلاد الاغريق
	٤٨٠ — ٤٣٠	عصر بركليس
محاولة المصريين أن يطردوا الفرس	٤٦٥ — ٤٢٥	حكم ارتجزرسيس الاول ملك فارس
	٤٣١ — ٤٠٤	حروب بلوبونيز
استمرار في العمل على طرد الفرس	٤٢٥ — ٤٠٤	حكم اجزرسيس الثاني ودارا الثاني
	٤٠٥	
طرد الفرس من مصر لثاني مرة	٣٩٦	استيلاء الرومان على فياي
	٣٩٠	اغارة الغالين على رومية
	٣٤٠	
دخول الفرس مصر لثالث مرة وانقراض دولة الفراعنة	٣٣٣	قهر الاسكندر الفرس في واقعة اسوس

البلاد الأجنبية	التاريخ ق م	مصر
		دخول الاسكندر مهرا وتأسيس مدينة الاسكندرية
قهر الاسكندر الفرس في واقعة اربيل	٣٣٢ ٣٣١	
	٣١ — ٣٢٣	عهد البطالسة في مصر : ٢٩٢ سنة
	٢٨٥ — ٣٢٣	(١) بطليموس الاول : غرو فينيقية وجزء من سورية والاستيلاء على بيت المقدس لقب بـ « ملك » — نظم البلاد ووسع الاسكندرية
حرب رومية مع « بيروس » (٢٨٠ — ٢٧٥) سقوط « تارشو » في أيدي الرومان (٢٧٢ ق م)	٢٤٧ — ٢٨٥	(٢) بطليموس الثاني : جدد الخليج القديم بين النيل والبحر الاحمر ووجد وادي الحمامات — راجت التجارة وارتقت العلوم والمارف — عظم مكتبة الاسكندرية ودار تحفها — بخطب ود رومية (٢٧٣)
	٢٢٢ — ٢٤٦	(٣) بطليموس الثالث : الاستيلاء على قبرنيقية (برقة) وجميع سورية حتى نهر الفرات — استرد السوريون الاجزاء الشرقية — اخضاع بلاد النوبة — تشييد مبان عظيمة (معبد أدفو)
الحرب البونية الاولى واقعة ميلبي	٢٤ — ٢٦٤	اضمحلال البطالسة (٢٢٠ — ٣١ ق م) بسط نفوذ الرومان على البطالسة تدريجاً :
انهزام ريجولوس بافريقية	٢٥٦	(١) تأييد الرومان لبطليموس السابع : ١٧٣
انهزام القرطاجيين بالقرب من جزائر أجيث	٢٤١	(٢) استمداد الرومان لبطليموس العاشر في حروب رومية الكثيرة : ٨٧
الحرب البونية الثانية واقعة ترازين ٢١٧ واقعة كان ٢١٦ واقعة متوروس ٢٠٧ واقعة زاما ٢٠٢	٢٠١ — ٢١٨	(٣) تأييد الرومان لبطليموس الثالث عشر بدون حق : ٨١ (٤) ارسال بطليموس الثالث عشر صورة من وصيته بالملك عند وفاته الى رومية لتحفظ بها : ٥١ (٥) قيصر يفصل بين كليوباترة وأخيها : ٤٧ (٦) واقعة اكتيوم واستيلاء الرومان على مصر : ٣١ (أو ٣٠)
الحرب البونية الثالثة - احراق قرطاجنة — انتهاء الحرب البونية وابتداء سيادة الرومان في الغرب	١٣٦ — ١٤٩	
تنازع السلطة بين ماريوس وسلا رومية	٨٢ — ٨٨	
نولى سلا دكتاتوراً على الدوام	٧٩ — ٨٢	

البلاد الأجنبية	التاريخ ق م	مصر
ظهور بومبي	٨٠ — ٦٧	
ظهور يوليوس قيصر	٦٧ — ٦١	
الحكومة الثلاثية الاولى (تعيين قيصر قنصلا سنة ٥٩)	٦٠	
غزو بلاد الغال (غزو بريطانية سنة ٥٥)	٥٨ — ٥١	
تعيين بومبي قنصلا وحده	٥٢	
واقعة فرساليا بين بومبي وقيصر وقتل بومبي بالاسكندرية	٤٨	
قتل قيصر برومية	٤٤	
الحكومة الثلاثية الثانية وفاة نيرون ٦٨ م	٤٣	
	٣٠ ق م - ٦٤١ م	عهد الرومان في مصر (نحو ٦٧٠ سنة)
		تقدم في أول العصر بلغ أقصاه في عهد نيرون — اشتهار مصر بالحبوب وكثرة تصديرها الى رومية — كثرت الثورات والفتن بين اليهود والاعرقى بالاسكندرية مثل :
	٣٨ ميلادية م	فتنة سنة ٣٨ ميلادية
		دخول المسيحية مصر (في عهد نيرون)
	٩٨ — ١١٧	عهد الامبراطور تراجان
		حفر الخليج بين النيل والبحر الاحمر — تجديد حصن مالميون اتمام معبد فيلة
	١٧٢	قيام ثورة في الجيش ضد الرومان لظلمهم وتأثير هذه الثورة السيء في تأخير الزراعة وحالة البلاد على العموم مدة طويلة
	٢٦٨	اغارة زنوبيا ملكة تدمر على مصر ومساعدة قبائل البجة لها قدوم دقلديانوس الى مصر — اقامة عمود السواري (عصر الشهداء سنة ٢٨٤)
	٣٠٠ — ٦٤١	عصر ظلم واستبداد كثرت فيه الفتن الداخلية بسبب اختلاف طوائف المسيحية
	٦١٦	دخول الفرس مصر
	٦٢٨	طرد الرومان الفرس
	٦٤١	خروج الرومان من مصر واستيلاء العرب عليها

الباب الثالث

عهد الدول الإسلامية

الفصل الأول

العرب وفتوحهم

(١) - العرب قبل الإسلام *

العرب أمة قديمة العهد لا يزال جيلها متميزاً ولقتها حية منذ آلاف من السنين
والعرب أمة سامية جلت من الشمال ، ونزلت في أزمان بعيدة ، وعصور متفاوتة
جزيرة العرب من غربي آسيا . وهم ثلاث طبقات :

أحوال العرب
وطبقاتهم

(١) العرب البائدة ، من عاد وثمود وطئم وجديس وحضرموت والعمالقمة
وغيرهم . وهم سكان الجزيرة القدماء .

(٢) العرب العاربة ، وهم الجالية الثانية من ولد يعرب بن قحطان جد العرب
المسمين بالقحطانيين ، الازليين في الجنوب أولاً ، والمشتين في الوسط والشمال آخراً ،
بحدوث الفتن الكثيرة بينهم وظلمهم أنفسهم وفساد مراقبهم وهزارعهم وتهدم
سدود مياههم

(٣) العرب المستعربة ، من العبرانيين ولد اسماعيل بن ابرهيم (عليهما السلام)
وهم الجالية الثالثة النازلون أولاً في مكة والمنتشرون بعد في وسط الجزيرة وشرقيها .

وهم المسمون بالعدنانيين نسبةً الى جدّهم عدنان ، وهو آخر عمود النسب المعلوم لهم من بنى اسماعيل . ومن شعب قحطان وعدنان تتألف العرب

وليست العرب كلها أمة بدوية ، بل ان من نزل منهم البقاع الخصبة أنشثوا دُولاً البدو والحضر عتيّدة ، مثل دول التّابعة في اليمن والمناذرة من اللّخميّين في العراق والغسانيّين في الشام . وجل هذه الدُول من القحطانية

وكان اكثر العرب العدنانية بدواً يعيشون في وسط الجزيرة وغربها وبعض شريقها كما يعيش العرب الرّحل الآن

وإذ كانت جزيرتهم تحوطها الصحارى والبحار وبلادهم لا تقوم بنفقات الجيوش الجرارة الغازية لها ، عاشوا اكثر أزمانهم في مأمن من غارات الفاتحين وعبث الملوك المستبدين . والنازلون منهم في أطراف الممالك الشمالية العظيمة كالروم والفرس اتخذتهم تلك الممالك حرساً على حدودها وعوناً لها على أعدائها ، كالمناذرة مع الأكاسرة والغسانيّين مع الروم

ومن أخلاق العرب التي طبعت فيهم بطبيعة بلادهم : الحرية والشجاعة والكرم وأخلاق العرب وعاداتها والوفاء والأخذ بالثار والقناعة

ومن عاداتهم القديمة تقليل الطعام والمنام ورياضة الجسم وتقديم الكبير في الرأى والعمل

ولم يكن للبدو منهم من علوم الحضرة وصناعاته الدقيقة المتقنة شىء يذكر . وإنما كانت علومهم قرض الشعر (وهو ديوانهم ومُنْبَعَث آدابهم) وعلم أنساب العرب وأخبارها وأيامها ، وعلم أحوال الجو والنجوم من أسماؤها وحركاتها ومنازلها وأنوائها^(١) ومهَبّ الرياح ومناشئ السحب وعلم القيافة^(٢) ولم يكن لهم في الطب إلا ما عرفوه

(١) جمع نوء وهو غروب نجم معلوم في الفجر وشروق آخر في وقته . ويزعمون ان ذلك يبعث المطر

(٢) علم معرفة الاشياء باثارها كواقع الاقدام على الارض ونحو ذلك

بالتجارب أو تلقاه حكاؤهم من أطباء النَّسَاطِرَةِ (١) والروم المجاورين لهم . ولم يكن هذا شأن دُولهم المتحضرة في اليمن والعراق والجزيرة والشام ، فقد كانت لهم علوم وصناعات ، كدبغ الجلود ونسج الملابس وطبع الأسلحة ، وخاصة اليمن التي كانت وسائل معيشتها التجارة والزراعة والصناعة . ولذلك لم يكن كلهم أميين كما كان الشأن في عرب البادية : بل كانت اليمن تكتب المُسْنَدَ (الذي قيل انه من اختراعها) وعرب الشمال تكتب النبطي والانباري من الخطوط العربية

ديانة العرب

أما ديانات العرب فكانت على ضروب وأنواع شتى ، حتى ليتمكن القول بأنهم عبدوا كل ما كان يعبد في الأرض في عصورهم ، بل أن منهم من أنكروا المعبود بثَّةً . فمنهم العبدَّةُ الموحِّدون الباقون على مذهب ابراهيم ، ومنهم عبدة النجوم والشمس والقمر والكواكب السيارة وبعض الثوابت ، ومنهم المجوس الثنوية (٢) وعبدة النار ، وعبدة الجن والملائكة ، ومنهم اليهود والنصارى ، وعبدة الأحجار والأشجار . وكلما كانت عبادة من هذه تخلو من اتخاذ الأصنام إما معبودة لذاتها ، وإما معتبرة شفعاء لهم عند الله . وكانت الكعبة (المعتبرة أقدم معبد لهم من عهد اسماعيل) تُنصب عليها وحوها الأصنام المختلفة

(ب) ﴿ تأثير بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ﴾

(في تأسيس مجد الأمة العربية وانتشار الملة الإسلامية)

كانت الروم قبيل البعثة قد استولى عليها بعض الضعف بطول ضعف ملوكها ، وجاوزت الحد في الترف والانهماك في اللذات . وألهتهم فتنهم الدينية والسياسية عن أن يكونوا دعاة سلام ورعاية لأمتهم أنفسهم ولن سقط في أيديهم من الأمم . وكانت فارس قد أخذت تنتقص أطراف بلادهم ، بل كادت تخترق قلب مملكتهم :

الروم والفرس
قبل البعثة

(١) طائفة نصرانية

(٢) فرقة تقول بانثينية الاله أى اله الخير واله الشر

فاستولت على مصر سنة ٦١٦ م ، وكانت على وشك بسط سلطانها الى ما وراء ذلك ، لولا انحلال قوتها نوعاً ما بسبب حروبها الطويلة مع الروم وبعض الفتن الأهلية ، وظهور أمة بدوية قوية اكتسحت أمامها كلاً منهما ، واستولت على أجل بلاد العالم المتمدين : تلك هي الأمة العربية المفطورة على حب القتال ، والتي ما زالت في جاهليتها تخطو الى جمع شملها وتوحيد كلمتها ، الى أن تهبأت لقبول الوحدة الدينية والسياسية بالدعوة العظيمة المحمدية ، فأنهضتها نهضة لم يحل دونها أعظم ممالك الأرض وذلك ان العرب كانت في جاهليتها قبائل متقاطعة متدابرة ، قد أنهكتهم الغارات وإدراك الثارات ، فحدثت أمور استدعت تضامهم وائتلافهم بعض الشيء ، فمهّد ذلك للإسلام طريق جمعهم على كلمته وقيامهم بدعوته . فمن تلك الأمور :

تهيؤ العرب
لقبول الوحدة
الدينية والسياسية

(١) اتفاهم مع اختلاف ملهم ونجأهم على تعظيم الكعبة واعتقاد مناسك الحج وتشريف قريش سَدَنَة الكعبة وأهل البصر بالدين منهم ، وتحريمهم على أنفسهم إحداث حرب في الأشهر الحُرْم من السنة إلا اذا أحلت لهم ذلك أشرف كِنانة وقريش

(٢) انتشار التجارة في العصور الأخيرة بينهم ، وقيام قريش بها بين اليمن والشام والعراق واقتداء كثير من القبائل بهم ، واختلاطهم بالأُمم المتمدينة ، فتولد فيهم حبّ تبادل المنفعة

(٣) اتجاذهم الأسواق الكثيرة للتجارة وتجاذب الأفكار وتناشد الأشعار والقاء الخطب والمباهاة بفصاحة اللسان وشرف العشير واستكمال الصفات المدوحة فيهم ، مما كاد يوحد لغتهم وآدابهم ، ويحسن التفاهم بينهم . ومن أشهر هذه الأسواق عكاظ وذو المجاز

(٤) قصد الفرس لبلاد العرب لآبادتها ، وتجمع بعض قبائل العرب لصد غارتهم ، وانتصارهم عليهم قبيل انتشار الإسلام في موقعة « ذى قار »

• خدماتها وقواتها

عرفوا من كل ذلك فائدة الاتحاد، وزادت ثقتهم بأنفسهم، فطلعوا الى الانتفاع بمواهبهم ، وهياهم الله لأن يكونوا رسل الهداية والتوحيد المطلق لعامة البشر ، فأرسل رسوله فيهم، فلم شعثهم وجمع شملهم، وساقهم هو وأصحابه من بعده الى أملاك كسرى وقيصر فافتتحوها ، وقام لهم فيها ملك كبير

﴿ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ﴾

وُلد عليه الصلاة والسلام بمكة سنة ٥٧١ م . من أشرف أبوين في قُرَيْش ، وهما « عبد الله بن عبد المطاب بن هاشم » و « آمنة بنت وهب بن عبد مناف » . ومات أبوه بعد شهرين من جملة ، وأمه في السادسة من عمره . وكفله جده منذ وُلد الى الثامنة . فكفله عمه أبو طالب حتى بلغ مبلغ الرجال . فكان أوحد الناس عفة وأشرفهم قصداً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة ، حتى صار يلقب في مكة بالأمين وكان يعيش مما يعيش منه أكثر أشراف قريش : تربية الإبل والغنم ورجح التجارة . فعمل في ماله ومال عمه ومال السيدة خديجة التي تزوجها بعد وصارت أمًّا لأكثر أولاده ، وكان له من شرف بيتها ومالها وحسن عشرتها خير معين له في حياته قبل البعثة وبعدها

مولده
ومنشؤه

ونشأ رسول الله مَبْغُضًا لعبادة الأصنام وشرب الخمر ولعِب الميسر وكل ما كانت تدين به الجاهلية ، وحبب إليه النَّسُك والزهد ، فكان كثيراً ما يذهب الى غار حراء قُرْب مكة ليتعبد ويذكر الله فيه حتى بُعث للناس بشيراً ونذيراً . فأتاه فيه الوحي أول مرة بالقرآن الكريم والرسالة . فذهب وأخبر السيدة خديجة ، فأمنت به ، وآمن ابن عمه « علي بن أبي طالب » وهو صبي ، وآمن مولاه زيد بن حارثة ، وآمن صديقه الحميم أبو بكر . وكان أبو بكر رجلاً سهلاً محبباً لقومه عالماً بأنسابهم وأخبارهم . وكان رجال قومه يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته . فجعل يدعو الى الإسلام سرًّا من وثق به منهم . فأسلم على يده عثمان بن عفان والزُّبَيْر بن العوام وعبد الرحمن

ابن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله . فكان هؤلاء هم المسلمين السابقين ، وبهم انتشر الاسلام

بعد أن أسلم من ذكرنا من الصحابة أخذ رسول الله هو وأصحابه هؤلاء يدعون الناس سرّاً الى الإسلام حتى صاروا نحو أربعين رجلاً يجتمعون خفية في دار أحدهم ، فانضم اليهم عمر بن الخطاب وحمة عم النبي ، وبهما اعتز الاسلام

انتشار الدعوة
الحمدية

ومكث النبي يخفي الدعوة ثلاث سنين ، ثم أمره الله باظهارها وانذار عشيرته الأقربين ، فنبذوا دعوته وعملوا على ابطالها بكل قواهم ، تحمّساً في دينهم ، اذ كانوا رؤساء دين العرب وأهل البيت الحرام ، وخوفاً أن تنتقض عليهم العرب فتبور تجارتهم وتتخطفهم الناس ، وحسداً لرسول الله أن يستأثر بالنبوة والسيادة عليهم على قومه وقلة جاهه . ولذلك كان أشدّ الناس معارضةً له وإزراءً عليه أشرف قريش وأغنياؤهم ، كعمه أبي لهب وكأبي جهل وأبي سفيان ، ولكنه كان محمياً منهم بعمومته وأصهاره . ومن لم يكن من أصحابه له نصير أمره بالهجرة الى الحبشة ، حتى مات عمه أبو طالب وزوجه خديجة . فقل بموتها ناصره وأصبح في حاجة الى قبيل يعتز به ، فعرض نفسه على القبائل في الأسواق ومواسم الحج يدعوهم الى توحيد الله ، فاستجاب له ستة نفر من أهل « المدينة » ، فأسلموا ورجعوا الى قومهم فأسلم كثير على أيديهم ، ثم رجع منهم في الموسم التالي اثنا عشر رجلاً بايعوه على الاسلام ، وبعث معهم النبي صلى الله عليه وسلم مُصْعَب بن عُمَيْر ليعلمهم القرآن وشعائر الاسلام . فانتشر بهم الاسلام في المدينة حتى لم تبق دار ليس بها مسلم الا القليل

ثم جاءه في الموسم الثالث ٧٣ رجلاً وامرأتان بايعوه على الإيمان والمدافعة عن دعوته بالسيف ، ثم عادوا الى المدينة . وقد تمكن بذلك أمر رسول الله وأصحابه ، فأمرهم بالهجرة الى المدينة ، فخرجوا اليها تبعاً

ولما علمت قريش أن أهل المدينة بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على حرب العرب والمعجم ، وأنه على عزم الخروج اليهم ، خافوا أن يؤتّبهم عليهم ويفزّوهم في هجرته

الهدنة
مع قريش

وفي سنة ست خرج رسول الله الى مكة مُعْتَمِراً لا يريد حرباً ، فمنعته قريش وحبست عثمان بن عفان رسوله اليهم . فبايع النبي أصحابه على الموت ، وأراد فتح مكة . فهادته قريش وحلفاؤها ، وأبرم معهم معاهدة صلح ، ورحل الى المدينة

خيبر

(٤) ثم افتتح حصون خيبر^(١) وفيها جهرة اليهود . ففتحها حصناً حصناً . وبعد رجوعه قدمت عليه بعثة مهاجرة الحبشة

فتح مكة

(٥) غزوة فتح مكة : لم يمض على معاهدة الصلح بين النبي وقريش اكثر من عامين حتى نقضها حلفاؤهم بتعديهم على حلفاء النبي . وعلم ذلك أبو سفيان ، فقدم المدينة لتجديد المعاهدة ، فلم يُصغ له رسول الله . وبعد قليل ، سنة ٨ ، خرج رسول الله الى مكة في عشرة آلاف مقاتل فيهم خالد بن الوليد ، وكان قد أسلم هو وعمرو بن العاص قبيل ذلك . فلم تبد قريش الا مقاومة قليلة وألقت اليه بأيديها . وجاء أبو سفيان مسلماً ، واكرمه النبي . وعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة ، ثم دخل الحرم وأزال الأصنام عن الكعبة وكسرها . ثم أسلم جميع أهل مكة (٦) غزوة حُنين^(٢) . وبعد فتح مكة تجمعت «هوازن» و«ثقف» وغيرهم

حنين

من القبائل الضاربة حول مكة لمحاربة النبي ليبدءوه قبل أن يبدأهم . فخرج اليهم في اثني عشر ألف مقاتل . فاغتر المسلمون وأعجبتهم كثرتهم . فما التقى الجمعان ، حتى حمل عليهم الأعداء حملة شديدة ، ففرا أكثر المسلمين ، وثبت رسول الله في خاصة أصحابه وأهل بيته حتى تراجع اليه الفارون ، وقاتل قتالاً شديداً ، وحمل بالمسلمين فكانت الهزيمة على المشركين . وغنم المسلمون منهم غنيمة عظيمة ، فرّق النبي أكثرها في عطاء قريش وغيرهم ليتألف قلوبهم ، ومنع الأنصار لثقتهم بهم وحبهم له

تبوك

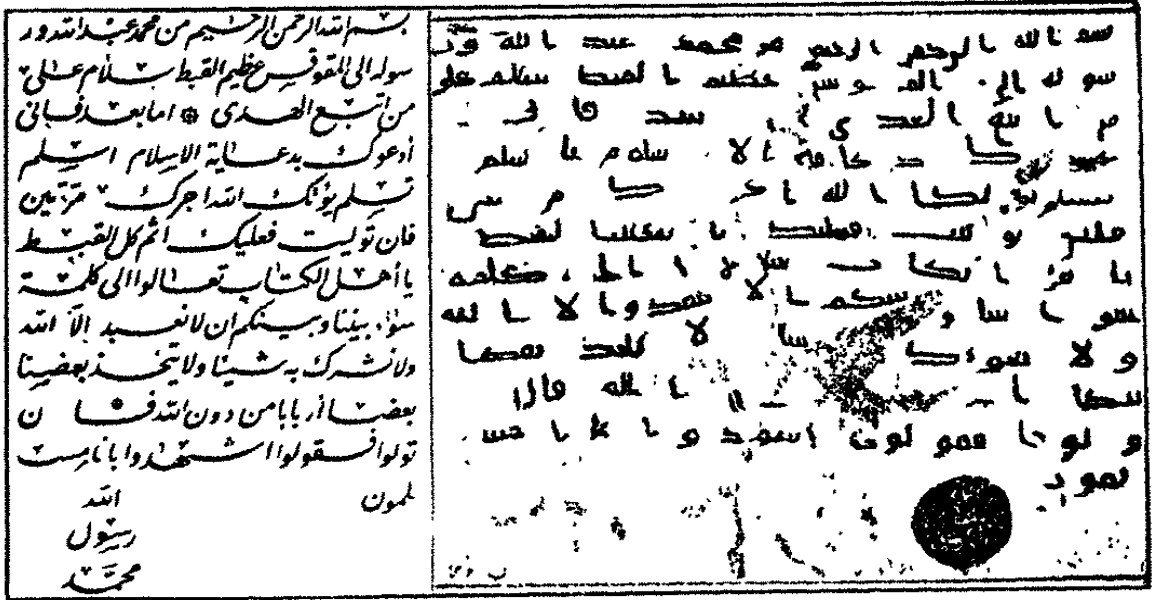
(٧) غزوة تبوك^(٣) . وهي آخر غزواته : وذلك أنه لما رأى أكثر العرب دانوا

(١) شمال المدينة

(٢) موضع بين مكة والطائف

(٣) موضع بين الشام والحجاز وهو الان احدى محطات سكة الحديد الحجازية

له خراج الى الروم في سنة تسع (٦٣٠ - ٦٣١ م) ومعه ثلاثون ألفاً وكانت الخيل عشرة آلاف ، وضرب الجزية على أهل أيلة^(١) وأذرح^(٢) ودومة الجندل^(٣) وكلها كانت إمارات نصرانية تابعة للروم وكان أثناء غزواته يبعث سراياه وبعوثه الى قبائل العرب كافة ، فأمنوا تبعاً



صورة كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط

وفي سنة سبع هـ (٦٢٨ - ٦٢٩ م) أرسل كُتْبَةً الى الملوك والأمراء يدعوهم الى الاسلام ، مثل كسرى وقينصر والمقوقس والنجاشي والحارث بن أبي شمر الغساني وهوذة ملك اليمامة والمُنْدِر بن ساوى ملك البحرين . فأسلم النجاشي والمنذر بن ساوى وقومهما ، واكرم المقوقس رسوله حاطباً وأهدى للنبي جاريتين من قبط أنصنا (احدهما مارية أم ولده ابرهيم) وبغلة وحماراً وكثيراً من عسل بنها ، ورد

كتب رسول الله الى الملوك

- (١) مكانها الان العقبة أو قريب منها
- (٢) بلدة قريبة من تبوك من أطراف الشام الجنوبية
- (٣) حصن وفري شرق تبوك ببادية الشام

قيصر رداً جميلاً، ولم يقابل بقية الملوك دعوة الاسلام بالحسنى . ولم تدخل سنة عشره (٦٣٢ م) حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، وأقبل عليه الوفود من جميع أنحاء الجزيرة ، وآمن من فيها من العرب إلا قبائل الشام والعراق ، و حج حجة الوداع من هذه السنة ، و حج معه من أصحابه يومئذ أربعون ألفاً

وفي هذه الحجة تم نزول القرآن الكريم ، وكان ينزل مفرقاً على حسب الوقائع . وخطب فيها رسول الله خطبة الوداع الشهيرة التي بين فيها معالم الاسلام وأتم أصوله ووصاياه . ومات بعد أن بلغ وأرشد ، وترك ديناً خالداً وأمة كريمة

مرض رسول الله نحو اثني عشر يوماً انقطع فيها عن الناس ثلاثة أيام ، وأصابه عنه أبا بكر يصلى بالناس . ومات في بيت عائشة ضخوة يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول سنة ١١ هـ (٦٣٢ م) عن ثلاث وستين سنة . ودفن مساء الثلاثاء في حجرة عائشة حيث قبض . ولم يخلف من بنيه وبناته إلا السيدة فاطمة زوج علي بن أبي طالب . وماتت بعد النبي بأشهر قلانل ، وكل أولاده ماتوا قبله

وفاته صلى الله عليه وسلم

كان رسول الله ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضخم الرأس ، كث^(١) اللحية ، عظيم الكفين والقدمين ومفاصل العظام ، أبيض مشرباً بحمرة ، أدعج^(٢) العينين ، سبط^(٣) الشعر ، سهل الخدين ، أقنى الأنف أشمه^(٤) ، في مقدم لحيته ومفروق رأسه شعرات بيض . وكان أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً ، قليل المزاح واللغو ، مطيل الصمت ، دائم البشر ، متفقداً لأصحابه ، متواضعاً ، يخلصف^(٥) نعله ويرقع ثوبه ، وخرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير زهداً فيها

صفاته

(١) غزير شعر اللحية

(٢) شديد سواد العين مع سمها

(٣) مرسل غير مجمد

(٤) الشمم ارتفاع في قسبة الانف مع استواء أعلاه واشراف الارنبه قليلاً ، فان كان

فيها احد يداب فهو القنا

(٥) بخرزها

(ح) ﴿ حالة الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ﴾

لما قبض رسول الله لغير وصية بالخلافة تنازع المهاجرون والأنصار في أمرها، وبعد
أخذ وردّ وامتناع من بعضهم انتخب أبو بكر رضى الله عنه خليفة، وقررت الخلافة
من بعده في قريش. وقد كان لأبي بكر وباقي الخلفاء الراشدين من بعده
(عمر وعثمان وعلي) رضوان الله عليهم الفضل الأكبر في توطيد دعائم الإسلام
بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فابتدأ أبو بكر بتسيير الجيش الذي جهزه
رسول الله قبل وفاته لغزو أطراف الشام، فذهب الجيش وعاد غانماً
ولم تسمع العرب بموت النبي حتى ارتدت عن الإسلام، وبعضها منع الزكاة الأهل
المدينة ومكة والطائف. وتنبأ كثير من شياطين العرب كسليمان الذي قد
كان كاتب النبي في اقتسام الأرض، وطليحة بن خويلد وسجاح التميمية. وكاد
الإسلام يقتلع من أصوله ويذهب كأن لم يكن لولا حزم أبي بكر ومضاء عزيمته، فانه
استشار الصحابة في محاربة المرتدين، فكلهم أشار عليه بلزوم بيته وعبادة ربه: إذ
لا طاقة لهم بحرب العرب كلها. فغضب وبعث الجيوش واكثرهم من قريش لمحاربة
المرتدين. فقتل جيش خالد بن الوليد مسيلة الكذاب، وقهر طليحة وسجاح ففرّا
وأسلما بعد ذلك. ولم يمض أقل من سنة حتى خضعت العرب ورجعت الى الإسلام
فساقهم الى ممالك كسرى وقبصر، ففتح من العراق في زمانه المشي بن حارثة ثم
خالد بن الوليد وعياض بن غنم الحيرة وجميع سقى الفرات الى تخوم الشام. وفتح
أبو عبيدة بن الجراح وأمرأوه شرق الشام، حتى اجتمعت الروم في أكثر من
٢٠٠ ألف. فأمد أبو بكر عسكر الشام بخالد ونصف عسكر العراق. ومات وجيوشه
تحارب المملكتين (الفرس والروم). وكانت وفاة بالمدينة، ودُفن بجانب رسول الله
سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) وعمره ٦٣ سنة، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر. وفي
مدته جُمع القرآن الكريم بإشارة عمر لقتل أكثر القراء في حرب مسيلة، وحُفظ
تاريخ (٢٠)

في بيت حَفْصَةَ بنت عمر زوج النبي ، حتى نسخة عثمان

وبويع عمر بن الخطاب بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه أبو بكر بوصية منه، وسُعى
بأمر المؤمنين . فاستغز الناسَ لحرب الفُرس والروم ، ففتُحت في زمانه ممالك الفرس
والشام ومصر

خلافة عمر
١٣ - ٢٣ هـ
٦٤٤ - ٦٤٤ م

وهو أول من دوّن الدواوين من خلفاء المسلمين ، ومصرّ الأُمصار ، فبُنيت في
مدّته الكوفة والبصرة والفسطاط وغيرها ، وأول من عَسَّ بالليل ، ونصب الفضة ،
ووضع التاريخ الإسلامي وجعل مبدأه هجرة رسول الله الى المدينة المنورة . وكان
لا يشغله عن تدبير أمر المسلمين شاغل ليلاً أو نهاراً : يحرك الجيوش بأوامره وهو في
المدينة ، وترجع اليه غنائمهم فيصرفها في مصالحهم من غير أن ينال منها لنفسه إلاَّ
درهمات لنفقته كل يوم . فهو رجل المسلمين وموطد ملكهم : ولم يَقم لهم خليفة بعده
مثله في حزمه وعزمه وزُهدِه وعدله

وقُتل رحمه الله غدراً وهو قائم يصلي بالناس ، طعنه بخنجر أبو لؤلؤة فيروز المجوسى
عبد المغيرة بن شعبه سنة ٢٣ هـ (٦٤٤ م) ، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر
وعهد بالخلافة الى واحدٍ يُنتخب من النَّفر الذين مات النبي وهو عنهم راض
(على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص) ، وجعل
ابنه عبد الله شريكاً لهم في الراى لا في الخلافة

فانتخب الناس من نفر الستة الذين عهد اليهم عمر بالخلافة «عثمان بن عفان»

فسلك طريق عمر في سياسته مدة فتحت فيها بلاد جنوبي التركستان وبرقة وطرابلس
الغرب والنوبة وجزيرة قبرس . ثم ظن أن في توليته الممالك المفتوحة من يثق به من
أهله وأقربائه ضماناً لمصلحة المسلمين ، لنصحهم له وشدهم بعصبيتهم ازره ، فكان
غير ما ظن ، وتقم منه كثير من العرب فعله ، ورموه بمحاباة أهله والتغبير والتبديل
في سنة رسول الله وصاحبيه . وذهب اليه كثير من شدّاذ العرب من أهل مصر
والعراق ورعاعهم . وفيهم بعض أبناء الصحابة ، فحاصروه في داره بالمدينة ، وطالبوه

خلافة عثمان
٢٤ - ٣٥ هـ
٦٤٤ - ٦٥٥ م

بعده أمور لم يرها من حرقهم ، قسوروا عليه وقتلوه وهو يتلو في مصحفه سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) . ودُفن بالبقيع ، وله من العمر ٨٢ سنة . وكانت خلافته ١٢ عاماً . وكان موته سبباً لإثارة الفتن بين المسلمين . وفي مدته نُسخ من المصحف الذي عند حفصة أربع نسخ أرسلت الى الأمصار لينقل عنها ويحرق ما سواها

وبعد أن قُتل عثمان تنازع الناس فيمن يتولى الخلافة ، فانتخب الأكثرون علياً وبايعوه ، وبقي نفر من الصحابة وبنو أمية لم يبايعوه . وحقق عليّ مقتل عثمان فلم يتوصل الى معرفة القاتلين . وخرج الى الكوفة وجعلها مقر خلافته . وعزل ولادة عثمان على غير رغبة أصحابه ، فاتهمه بنو أمية (ورأسهم معاوية وطلحة والزبير) بتهاونه في إظهار القاتل . وظنوا أن قتله كان عن رغبة منه . فامتنع معاوية بالشام عن مبايعته ، وتبعه أهل بيته وجند الشام . وخرج طلحة والزبير الى مكة وقابلا السيدة عائشة ، وكانت في الحج ، وحرضاها على الأخذ بثأر عثمان ومحاربة علي . فخرجت معها في جيش استولى على البصرة وانضم اليهم أهلها . فسار اليهم عليّ في أهل الكوفة وحاربهم ، وكانت السيدة عليّ جعل جلال هودجه بصفائح من الحديد . فقتل دون الجمل مئآت من الناس ، ثم عُقر وانهزم أصحاب الجمل ، وقتل طلحة وكذلك الزبير عند منصرفه الى المدينة . وأرسل عليّ السيدة عائشة مكرّمة الى المدينة

ثم ازدادت الوحشة بين معاوية وعليّ ، فجرّدا جيشين عظيمين التقيا بصيفين * ودام الحرب بينهما أربعين صباحاً . ثم عرض جيش معاوية على جيش عليّ أن يحكما بينهما حكّمين يُختار كل واحد من فريق . فحكما « أبا موسى الأشعري » من قبيل عليّ و « عمرو بن العاص » من قبيل معاوية . فاتفقا على خلع الاثنين ليعاد انتخاب الخليفة من جديد ، وفي يوم الحُكم اجتمع العرب ، فحكم أبو موسى بخلع صاحبه ، ورجع عمرو عن اتفاهه وحكم بتثبيت معاوية . ففت ذلك في عضد أصحاب عليّ ، وثقاعد عن نصرته كثيرون ، حتى اتفق ثلاثة من فتاك الخوارج على اغتيال

* موضع قرب الرقة بشاطئ الفرات . وكانت الواقعة في صفر سنة ٣٧

عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص ، فنجح أمرهم في عليّ وخاب في معاوية وعمرو ،
فقتل عليّ غيلةً بيد « عبد الرحمن بن ملجم » ، وهو ينادى لصلاة الصبح غلَسًا
بمسجد الكوفة . فدفنه ابنه الحسن خفية وستر قبره وقتل قاتله . وبايعه أهل الكوفة
بالخلافة ، فتنازل عنها لمعاوية بعد أشهر ، حَقْنًا لدماء المسلمين . قتم الأمر لمعاوية
واستولى علي الممالك التي دخلت في طاعة علي ، وأسس دولة بني أمية . فصارت
الخلافة ملكية وراثية في دولته

وقُتل أمير المؤمنين عليّ سنة ٤٠ هـ . وعمره ٦٣ سنة . وكان شجاعاً عالمًا ، شهد
المواقع بين يدي رسول الله . ومن ماثره أنه أمر « أبا الأسود الدؤلي » ،
فوضع النحو

وكان العرب قد استمروا في فتوحهم بقية حكم الخلفاء الراشدين ، حتى استولوا
على معظم أملاك الدول القوية إذ ذاك مما سيأتي ذكره

(٥) * الفتوح الإسلامية *

التحام العرب مع الفرس والروم

كان النبي صلى الله عليه وسلم يبشر المسلمين طولَ مدة رسالته بفتح ممالك
فارس والروم . وشرع في ذلك آخر حياته ليقتمدى به خلفاؤه من بعده ، ففزا بنفسه
غزوة « تبوك » وأغزى أصحابه غزوة « مؤتة » ، وخرج من الدنيا وقد جهز جيشًا
أمر عليه مولاه « أسامة بن زيد » فبرز خارج المدينة لحرب الروم ، وأوصى في
مرضه بانفاذه الى الشام . فأنفذ « أبو بكر » وصيته ، وسير هذا الجيش ففزا القبائل
الموالية للروم في جنوبي الشام وعاد بعد أربعين يومًا

ومن ذلك الوقت شرع أبو بكر في تحقيق بشارة النبي واستنجاز وعده . ولثقته
بإيمان أصحابه وعلوهمهم على قلة عددهم وعُددهم رأى أن يغزوبهم الفرس والروم

في آن واحد . ونفذ « عمر » بعده خطته على ما فيها من المصاعب وتفريق القوة فأعقبت النجاح والظفر ، وأكمل بقيتها الخلفاء الراشدون وبنو أمية وبنو العباس . حتى كان لهم من نشر دينهم واتساع ملكهم ما استطالوا به على أكثر الممالك العظيمة في تلك العصور :

(١) فتح فارس : من سنة ١٢ الى سنة ٢١ هـ (٦٣٣ - ٦٤٢ م)

لما فرغ أبو بكر من حرب المرتدين ، ودانت جزيرة العرب للإسلام رأى أن يشغل العرب بعدها عن الفتن الدينية والسياسية بسوقها الى الممالك الغنية الخصبة المجاورة لها لعلمه بما فيها من الفتن الداخلية . فجهز لغزو فارس جيوشاً متفرقة جعل قيادتها العامة لخالد بن الوليد . ففتحوا العراق والجزيرة . ثم أرسل أبو بكر الى خالد أن يذهب في نصف الناس لإنجاد عسكر الشام . وبقى أحد قوادمه « المثنى بن حارثة » يحارب الفرس حتى مات أبو بكر . فأمدّه عمر بجيش ، فحاربوا في جملة وقائع انتصروا في بعضها وأصيبوا في آخر حتى ملك « يزدجرد » ، فجمع أبطال الفرس وصناديدهم في جيش بلغ ١٢٠ ألف مقاتل . وعلم ذلك عمر فجمع أشراف العرب وفرسانها وخطباءها وتعمراءها ، وجعل على الجميع أميراً « سعد بن أبي وقاص » القرشي . فبلغ عدد المسلمين بضعة وثلاثين ألف رجل ، فالتقوا بالفرس سنة ١٤ هـ (٦٣٦ م)

بالقرب من « القادسية » في موقعة فاصلة من أشد الوقائع ، لم يفلح بعدها الفرس في موقعة ، فقتلت أبطالهم وشجعانهم وقائدهم العظيم « رستم » . وغنم المسلمون معسكر الفرس وراية مملكتهم ، وكانت من جلد مستر بالجواهر الكريمة

وفي هذه السنة بعث عمر « عتبة بن غزوان » في جمع الى « الأبلّة » (مرافاً للسنن على شمالي بحر فارس) فافتتحها وهزم حامية الفرس مراراً في جنوبي العراق ، واختط مدينة « البصرة » ، وبعث بالغنائم الى عمر . وأعجب المسلمون بذلك ، فأقبلوا على البصرة تباعماً . ولما فرغ سعد من أمر « القادسية » واستراح جيشه خرج الى « المدائن » (إكسيفون) عاصمة الفرس وبها إيوان كسرى العظيم . فهزم في

واقعة القادسية

١٤ هـ

الابلة

طريقه اليها جموعاً كثيرة للفرس وحاصر المدائن الغربية ، ثم عبر بجيشه الى الشرقية وحاصرها . ففرَّ « يزدجرد » في خاصته وبقية عساكره الى « حُلوان » بعد أن أباح بيوت المال والذخائر لقوّاده ، وخلف أخارستم على المدائن . فشدد العرب عليهم الحصار ، فهرب من في المدينة ودخلها العرب سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) . وأمر سعد أن يلحقوا حَمَلَةَ الأموال والنفائس فأدركوا كثيراً منهم ، ووضعوا أيديهم على خزائن الفرس مما لا تقدر قيمته ، وكان في ذلك تاج كسرى ومنطقته وسواره ودرعه وبساطه (وكان ستين ذراعاً في مثلها ، وكان على هيئة روضة قد صُوِّرت فيه الأزهار بالجواهر المختلفة الألوان على نسيج الذهب) ، واستولى العرب كذلك على ذخائر الملوك الذين قهرتهم فارس

فتح عاصمة
فارس ١٦ هـ

وأقام سعد بالمدائن مدّة . وبعث بالجيوش ففتحت بقية البلاد . وفي سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) . جمع « يزدجرد » جميع من في فارس وخراسان من المقاتلة وانضم اليهم بقية المهزومين ، فاجتمع له ١٥٠ ألفاً فتحمسوا وصمموا على إخراج العرب من بلادهم . فبلغ « عمر » ذلك فخاف على المسلمين وأمدّهم بجيش عليه « النعمان بن مقرن » ، فساروا وانضم اليه ثلث من في العراق وقصدوا الفرس في نحو ٣٠ ألفاً ، فالتقوا بهم قرب « نهاوند » في موقعة لم يقع للعرب مثلها ، قاوم الفرس فيها مقاومة عظيمة ، وقتل فيها « النعمان بن مقرن » فتولى مكانه « حذيفة بن اليمان » ، وحل بالناس فانهزم الأعداء ، وفك العرب بهم فتكاً ذريعاً ، ولم يفلت منهم إلا القليل . وتسمى واقعة « نهاوند » هذه بفتح الفتوح ، إذ لم يكن للفرس بعدها اجتماع ، ودخلت مملكتهم جميعاً في حوزة المسلمين

واقعة نهاوند
٢١ هـ

أما « يزدجرد » فما زال يفرّ أمام العرب من بلد الى بلد حتى قُتل أثناء فراره زمن عثمان سنة ٣١ هـ (٦٥١ م) . وبموته انقرض آل ساسان

(٢) فتح الشام

بعد أن سَير أبو بكر خالدًا الى العراق بقليل سير أربعة جيوش الى بلاد الشام لغزوها من جهات مختلفة . فساق « هرقل » قيصر الروم على كل جيش جيشًا أضعافه في العدد . فرأى قواد جيوش المسلمين الأربعة أن يجتمعوا في بسيط واحد . فعلم ذلك هرقل ، فأمر جيوشه أن ينزلوا على نهر « اليرمُوك » فنزلوا بين النهر وبين وادٍ عميق كأنه خندق يُعرف « بالواقوصة » في أكثر من ٢٠٠ ألف مقاتل سنة ١٣ هـ واقعة اليرموك أو الواقوصة ١٣ هـ (٦٣٤ م) ، وكانهم رأوا أن الوادي والنهر يحميان جانبيهم . ونزل العرب أمامهم على نفس الضفة من النهر ، فصار الروم كأنهم محصورون ولا طريق لهم إلا على العرب . وحضر الروم بينهم وبين العرب خندقًا ، وطاولوهم في القتال ليضروا على العرب ولا يخشوا بأسهم . وبقوا كذلك ثلاثة أشهر كاتب العرب فيها أبا بكر واستنجدوه . فكتب الى خالد بن الوليد أن ينحدهم بنصف عسكر العراق . فسار مسرعًا سالكًا بادية السماوة^(١) حتى بلغ الشام ففتح في طريقه مدينة « بُصْرَى »^(٢) وانضم الى معسكر المسلمين ، فتكامل به عددهم نيفًا وأربعين ألفًا . ورآهم خالد متساندين ، كل رئيس منهم مستقل برأيه وجماعته . فجمعهم على أن يتولى كل أمير القيادة يومًا . وبدأ هو باليوم الأول . فعبأ جيشه تعبئة لم يسبق للعرب مثلها : فرققهم ٣٨ كردوسًا وهاجم بهم الروم . فخرجوا من خندقهم . فهجم خالد بقلب الجيش ، ففرَّق بين فرسانهم ورجالتهم . ورأى فرسانهم أنهم صاروا في وسط العرب ، ففروا الى الصحراء ، وأوسع لهم المسلمون الطريق ، واكتفوا شرهم . ثم أطبقوا على

(١) سلك خالد هذه المفازة المهلكة المدومة المياه لجملة وجوه حرية وغيرها أهمها سرعة مجده لجنود الشام لقصر مسافتها عن الطريق المعتاد سلوكه على شاطئ الفرات ، وتجنب العوائق التي تعترضه في الطريق المعتاد لاعتراض كثير من حصون الجزيرة وشمال الشام له . وحكاية اختراق جيشه هذه البادية أعجب من اختراق جيش انيبال جبال الالب . فلتراجع في كتب التاريخ المطولة

(٢) وهي مدينة صغيرة شرقي الشام على أبواب الصحراء

الأعداء ، فردّوهم الى خندقهم ، بل اقتحموه عليهم ، وأقبل الليل فلم توقف العرب القتال ، وحصروا الأعداء فتساقطوا في الهوة من جانب وفي النهر من الآخر . وقتل منهم غرقاً وثردياً أكثر مما قتل بسيف العرب ، وتمّ النصر للمسلمين . ولم ينج من الروم غير فرسانهم إلا القليل . وكانت هذه الموقعة أعظم الوقائع بين الروم والعرب ، فلم يثبت لهم بعدها أمام العرب جيش ولو أكثر عدده . وفي أثناء تلك الواقعة جاء البريد بموت أبي بكر وعزل خالد عن قيادة الجيش وتولية أبي عبيدة قيادته ، فقبل خالد ذلك بالسمع والطاعة . ونصح لأبي عبيدة في الرأي والجهاد . وساروا لفتح دمشق فحاصروها ٧٠ يوماً وفتحها خالد عنوة من جانب . وبينما هو يتقدم داخلها خرج محافظ المدينة وقابل أبا عبيدة من جانب آخر وسلمها له صلحاً سنة ١٤ هـ (٦٣٥ م) . وبعث أبو عبيدة الجيوش لفتح سائر مدن الشام ، ففتحوا بلاد الساحل ومدينة حمص واللاذقية وقيسرين وحلب وأنطاكية . وكان هرقل يتنقل في مدن سورية الحصينة يراعى جيوشه . فلما أوغل المسلمون في الجهات الشمالية صعد على نَشْر من الأرض ثم التفت الى الشام وقال : «السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده» وهرب الى القسطنطينية

واقعة اجنادين

وكان جيش من المسلمين يقودهم عمرو بن العاص ذهبوا لفتح بيت المقدس ، فالتقوا في طريقهم بالروم في موقعة عظيمة تعرف بواقعة اجنادين ، هُزم الروم فيها هزيمة شنيعة . ثم حاصروا بيت المقدس أربعة أشهر ، وأبى بطريقها أن يسلم المدينة إلا على يد الخليفة عمر ليكتب بنفسه شروط الصلح ، فحضر عمر الى الشام وتسلم المدينة سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م) وأسس مسجده على الصخرة . وخرج عمر الى الشام ثلاث مرات غير هذه المرة . وتم فتح الشام في أقل من ست سنوات

تسليم بيت المقدس ١٥ هـ

وفي سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) حدث في الشام طاعون عظيم يسمى طاعون عمّوأس مات به ٢٥ ألفاً من الصحابة منهم أبو عبيدة

(٣) فتح مصر

لما قارب فتح الشام الانتهاء استأذن « عمرو بن العاص » أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » في فتح مصر، ووصف له ثروتها وهون عليه أمرها، فامتنع « عمر » بادئ بدء، ثم بعثه (والتردد يخالجه) في أربعة آلاف أو أقل، وقال له: « سيأتيك كتابي سريعاً إن شاء الله تعالى، فإن أدركك كتابي أمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره »

فلم يكد « عمرو » يتجاوز الحدود المصرية حتى تسلم كتاب « عمر »، فواصل السير حتى بلغ « الفرما » في أواخر سنة ٦٣٩ م (٥١٨ هـ). فقاوم الروم فيها مقاومة ضعيفة، حتى إن العرب مع قلة عددهم ونُدرة ما عندهم من آلات الحصار استولوا عليها عنوة في شهرين

ولما أمن « عمرو » طريق الاتصال بالشام أجدد السير في طريق المواضع التي تُعرف الآن « بالقنطرة والقصاصين والتل الكبير » حتى نزل على « بلييس »، فحاصرها شهراً ثم فتحها بعد قتال شديد، وعند ذلك انضم إلى عسكره كثير من بدو الصحراء، فعوضوا ما خسره من جيشه الصغير

ثم سار حتى وصل إلى قرية على النيل تُدعى « أم دنين » (موقعها الآن ما بين عابدين والازبكية بالقاهرة)*. وكان معظم الجيوش الرومانية حينئذٍ ممتعة في حصن بابليون، ولكن الحامية المرابطة في « أم دنين » عاقت « عمراً » عن التقدم بضعة أسابيع حدثت فيها مناوشات عديدة انتهت باستيلاء عمرو عليها

ولما رأى « عمرو » أن مامعه من المقاتلة لا يكفي لفتح « حصن بابليون » أراد أن يشغل جيشه بعمل ريثما يأتيه المدد، فخرج في غارة إلى الفيوم (وتلك مخاطرة يعلم من ذلك أن النيل غير مجراه منذ ذلك العهد ونحوه إلى الغرب

كبيرة) ، فعبر النيل في قوارب وسار بطريق منف الى الفيوم ، فلم يفلح في الاستيلاء عليها ، الاّ أن هذه الخرجة انتهت بما قصد اليه ، فإنه عند ما عاد الى عين شمس في صيف سنة ٦٤٠ م لحق به المدد الذي بعثه أمير المؤمنين ، وفي مقدمته الزبير بن العوام . وعدتهم ١٢ ألف مقاتل

واقعة
عين شمس

وانتهز الروم فرصة تغيب « عمرو » بالفيوم ، فاستولوا ثانية على « أم دنين » . ثم أعد « تيودور » فائدهم نحو ٢٠٠٠٠ مقاتل وأراد مناخزة العرب ، فزحف الى عين شمس قاعدة الجيش العربي . فوضع « عمرو » كميناً من جيشه في موضع خفي بالقرب من (الجبل الاحمر) ^(١) وآخر في النيل قريباً من « أم دنين » ولاقى « تيودور » بالفريق الأكبر من الجيش . فلما حى وطيس الحرب ثار الكمينان على جناحى الجيش الرومانى وساقته وسحقوهم سحقاً ، ولم يبق للروم منهم سوى ٣٠٠ مقاتل وقد الآخرون ما بين قتيل وهارب . واستولى « عمرو » بهذه المعركة على مدينة « مصر » ^(٢) فانفسح أمامه السبيل لإتمام إخضاع الفيوم والشروع في محاصرة « حصن بابليون »

المقوقس

وكان القائد الحقيقي للحنود الرومانية في حصن بابليون وقتئذ هو « سيروس » بطريق الطائفة الملكاية بالإسكندرية والحاكم الإدارى لمصر ، وهو المعروف عند العرب بالمقوقس ^(٣)

محاصرة
حصن بابليون

وقد كان له يد عاملة في هذا الفتح ، ومضى عليه عشر سنين وهو مكروه لدى الأقباط لاضطهاده لهم . ولما حاصر العرب الحصن كان النيل ماداً (أو آخر أغسطس) وليس لهم من آلات الحصار والحيل الهندسية ما يسهل عليهم اقتحام الحصن ، على

(١) شرقى العباسية

(٢) اختلف في موقع هذه المدينة وحقيقتها . والارجح انها كانت امتداد مدينة منف على شاطئ النيل الشرقى . ومباسبها تمتد شمالى الحصن وجنوبيه

(٣) وفي المقرئى أنه يسمى « المقوقس بن قرقب » ولعله محرف عن « سيروس »

لان حرف (C) ينطق به قافا في العربية كثيراً

عكس ما كان لعدوهم من ذلك، فوق امتلاء الخنادق بمياه الفيضان . فلما أخذ النيل في الهبوط (في شهر اكتوبر) أخذ « المقوقس » يئس من ردّ العرب عن البلاد، وسعى سرّاً في عقد صلح معهم في جزيرة الروضة ، فلم يرض « عمرو » منه إلاّ بنخلة من ثلاث (وهي الاسلام أو الجزية أو القتال) . ثم كتبت المعاهدة وأرسلت الى امبراطور الروم لإقرارها ، فسخط « هرقل » وأخذته دهشة من التسليم لبضعة آلاف من المسلمين . فاستدعى « المقوقس » الى القسطنطينية في الحال (نوفمبر سنة ٦٤٠م) فواصل العرب حصار الحصن بنشاط جديد . وجمع « تيودور » جيشاً جديداً في الوجه البحرى يحاول به فض الحصار عن الحصن فلم يستطع شيئاً، حتى ولا الدنو من الحصن . وفي شهر مارس سنة ٦٤١ م سمع المحصورون ضجة فرح في معسكر المسلمين ، وبان لهم أنها كانت لموت هرقل ، ففت ذلك في عضد الروم وأوهن عزائمهم

وفي ٦ أبريل سنة ٦٤١ م عمد الزبير الى تسور الحصن بسلم كبير ، ولما صار في أعلى السور تبعه الناس ، فلم يسع الروم إلاّ التسليم على شريطة أن ينجوا بحياتهم ، فقبل « عمرو » ذلك وأمهلهم ثلاثة أيام يجلبون فيها عن الحصن . ومن الغريب أن الأحزاب الدينية بالحصن لم يلبهم ما حاق بهم عن الخصام في الدين ، فان الطائفة « الملكانية » قضت يوماً من أيام المهلة الثلاثة في تعذيب الأقباط الذين سجنوا في الحصن قبل الحصار ، حتى أنهم قطعوا أيديهم وأرجلهم

ولما أخلى الروم الحصن بادر عمرو الى اتمام فتح البلاد ، فسار الى الاسكندرية واستولى في طريقه على مدينة « نقيوس » * . وكان « تيودور » قد جمع فلول جيشه معزراً بمدد كبير ، فالتقى بالعرب بالقرب من « دمنهور » في موقعة عظيمة دامت اكثر من عشرة أيام ، واضطر الروم بعدها الى التحيز الى الاسكندرية ، فاقتفى العرب آثارهم . وكانت الاسكندرية عظيمة التحصين وبها من الروم ٥٠٠٠٠٠

* موقعها الآن قرية اشاداي بمديرية المنوفية على فرع النيل الغربى . وقيل أيضاً انها كانت تسمى « نحو »

مقاتل ، وكان يُتوقع أن تصد العرب زماماً طويلاً : فلا هي ضعيفة التحصين حتى يأخذها العرب عنوة ، ولا هم يستطيعون في قلة عددهم حصرها برأً وبحراً . لذلك ترك « عمرو » جيشاً بظاهرها (يولييه سنة ٦٤٠ م) يرقبها ، وسار في آخر لاختضاع بعض بلاد الوجه البحري الصغيرة . وفي خلال ذلك كان المقوقس قد عاد الى الاسكندرية وتولى منصب البطريق ثانية . وفي هذه المرة نجحت مساعيه ، فانه أقنع الامبراطور الجديد (وكان ضعيفاً) بضرورة الموافقة على تسليم الاسكندرية . ثم شرع سرأً في عقد معاهدة ثانية مع « عمرو » ، فتقابلوا في بابليون وعقدا الشروط الآتية :

معاهدة تسليم
الاسكندرية

- (١) أن تُدفع الجزية للمسلمين
- (٢) أن يعقد لذلك هدنة مدة ١١ شهراً
- (٣) أن تجلو الجيوش الرومية من الاسكندرية
- (٤) أن لا يتدخل المسلمون في دين المسيحيين أو يستيحيوا كنائسهم
- (٥) أن يسمح لليهود بالإقامة بالاسكندرية
- (٦) أن يسلم الروم ١٥٠ من جندهم و٥٠٠ من رجالهم غير المحاربين رهناً وضماناً لما تقدم

وعندما سمع أهل الاسكندرية وحاميتها بذلك هاجوا غضباً وكادوا يفتكون « بالمقوقس » لولا ما أوتيه من البلاغة ، فانه تمكن بها من اقناعهم بأن ما وقع خير لهم من أى شىء . وفي أول المحرم سنة ٢١ هـ (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ م) دُفعت الجزية . ودخلت الاسكندرية في قبضة العرب . ويُعتبر تسليم الاسكندرية من الوجهة الحربية أمراً لم يكن في الحسبان ، فانها كانت تستطيع المقاومة ثلاث سنوات أو أربعاً حتى يرسل اليها القيصر المدد الكافي لاقاذاها . ولكن الاسكندريين كانوا قد سئموا تقلبات الروم وسوء حكمهم في الأربعين سنة الأخيرة ، فسهل عليهم التأثر ببلاغة المقوقس ورجوا أن ينالوا في ظل المسلمين هدواً وسلاماً

ولاشك أن المقوقس كان اكبر مساعد على تسليم الاسكندرية ، وربما كان

له في ذلك مأرب خاص وهو جمل بطريقته مستقلة عن « القسطنطينية » ، فرأى أن ذلك أسهل في عهد المسلمين منه في عهد أمة مسيحية

(هـ) كلمة في الأمويين والعباسيين

(١) دولة بني أمية

٤١ - ١٣٢ هـ (٦٦١ - ٧٥٠ م)

تمت الخلافة لمعاوية (٤١ - ٦٠ هـ : ٦٦١ - ٦٨٠ م) فكان بذلك مؤسساً لدولة بني أمية^{*} ، وأقام بدمشق فبقيت دار الخلافة العربية ٩٠ عاماً . وكان موقعها أوفق لمقر الملك من سابقتها « المدينة » و« الكوفة » ، لاتساع أملاك المسلمين التي كان « معاوية » يرمى الى مداها شمالاً حتى يستولى على القسطنطينية ، ومع أنه لم يتم له ذلك وأُحرق أسطوله في حصار تلك المدينة ، فُتحت في عهده بعض بلاد التركستان وبلاد الأفغانستان وشمالى الهند وبلاد البربر (الجزائر وراكش) وروودس . ثم حمل الناس على البيعة لابنه « يزيد » ، فقبها العرب لأن الغلب والعصبية كانا لبني أمية ، والمصلحة تقتضى ذلك . وخالف بعض الصحابة ، فلم يستطيعوا اخراج الخلافة من بيت بني أمية بل بقيت فيهم ملكاً عضواً . وأعظم خلفاء بني أمية بعد معاوية « عبد الملك بن مروان » (٦٥ - ٨٦ هـ : ٦٨٥ - ٧٠٥ م) ، فهو

عبد الملك
ابن مروان

المجدد الثانى لملكهم والمستخلص له من يد الخليفة عبد الله بن الزبير الذى دانت له الممالك الاسلامية عقب موت معاوية . وبلغت دولة بني أمية أقصى مبلغها في عهد

الوليد

« الوليد بن عبد الملك » (٨٦ - ٩٦ هـ : ٧٠٥ - ٧١٥ م) . ولى الخلافة والملك ثابت الدعائم ، فسهر على توسيع الأملاك الاسلامية ، فجذت جيوشه في الفتوح شرقاً

حتى مدينة « سمرقند » ونهر « السند » . ولما ثارت برابرة المغرب بالمسلمين بعث اليهم الوليد « موسى بن نصير » بجيش عظيم فتح به عامة بلاد المغرب وثبت فيها

* نسبة الى « أمية بن عبد شمس » جد هم

سلطان العرب الى المحيط . ثم بعث موسى بمولاه « طارق بن زياد » في جيش الى « الأندلس » ، فقهروا جيوش « القوط » (قبائل القوط الغربية) في موقعة « شريش » سنة ٥٩٢ هـ (٧١١ م) ، ودخلت الأندلس بأسرها في الأملاك العربية

وبينما كانت جيوش الوليد تجدد في فتح البلاد وتطهر للعالم مهارة العرب في الحرب كان هو ياتفت الى داخل بلاده وتهيئة ما يلزمها من أسباب التقدم وال عمران . وكان له ولع شديد بالعمارات العظيمة ، فبنى جامع بنى أمية العظيم وداراً للمعزة والمرضى بدمشق ، وجدد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة . ويمكن اعتباره في الحقيقة المحرض الأول على انشاء العمارات العربية . ومات الوايد سنة ٥٩٦ هـ (٧١٥ م) وسلطان المسلمين يمتد من المحيط الأتلتى الى الصين وجبال الهند ، ومن بلاد السودان واليمن الى سهول سيبريا ، وهي أكبر مساحة وصلت اليها المملكة العربية

وبعد وفاة « الوليد » دخلت الدولة في طور تقهقر ووقفت الفتوح العربية العظيمة ولما خلف الوليد أخوه « ساجان بن عبد الملك » سير جيشاً وأسطولا عظيمين الى « القسطنطينية » ، فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها . على أن الجيوش العربية في الأندلس كانت سائرة في فتح جنوبي فرنسا حتى وصلت الى نهر « اللوار » ، ولكنها التقت بجيوش شرل مرتل في موقعة « بواتيه » (تور) سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) فقتل قائدها واضطر المسلمون الى التراجع الى الأندلس ، ولم يفكروا بعدها في فتح فرنسا ومن ذلك الحين كثرت الفتن الداخلية في دولة بنى أمية وقويت الأحزاب المشايعة لأهل البيت ولبنى العباس . ثم أخذ أمر دعاة بنى العباس يستفحل في « خراسان » بزعامه « أبي مسلم الخراساني » حتى أفلت جيوشه من « خراسان » والتقت بجيوش « مروان بن محمد » آخر خلفاء بنى أمية على نهر « الزاب » أحد فروع « دجلة » ، فانهزم مروان وتبعته جيوش العباسيين الى الشام فمصر ، حتى لحقته بقرية « بوصير » من مديرية الجيزة وقتلته . وبذلك انقرضت دولة بنى أمية سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م)

ساجان
ابن عبد الملك



الدولة العربية

والبلاد التي خضعت لسلطانها

في سنة ١٠٠٠ م

العراق الكبير

بلاد الشام أو الكورة

صناعات

غانس

لبنان

قزاق

افرنج

الجزيرة العربية

البحر الأحمر

البحر المتوسط

البحر الأبيض المتوسط

البحر

وكانت دولة بنى أمية من أعظم دول الاسلام . وهي الدولة العربية المحضة التي حافظت على الشعار العربي في لبسها وبعيشتها وحكومتها ، وكانت السلطة في زمانها كلها بيد العرب . ويرجع سقوط هذه الدولة الى جملة أمور منها :

أسباب سقوط
الدولة الاموية

(١) مزاحمة بيتين عظيمين لهم في الخلافة : هما بيت العلويين والعباسيين ، ولكل شيعة عظيمة تنصره لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢) كثرة الخوارج الذين لا يرون وجوب انتخاب الخلفاء من قريش

(٣) تهاون الطبقة الثانية من أبناء خلفائهم بأمر الملك واستغلامهم باللهو ومشاحة

بعضهم لبعض وتنازعهم في الخلافة

(٤) ترفعهم على الأجناس المحكومة من الفرس والترك والروم وغيرهم ، فقلما

كانوا يتخذون منهم ولاية أو قواداً أو يتزوجون منهم ، مما بغضهم فيهم وجعلهم ينصرون العباسيين عليهم

(٢) الدولة العباسية

(١٣٢ - ٦٥٦ هـ : ٧٥٠ - ١٢٥٨ م)

السفاح

مبدأ أمر هذه الدولة ان الأمويين اضطهدوا جد العباسيين (علي بن عبد الله ابن عباس) ونفوه الى قرية من بادية الشام ، فمرّ بولده محمد فيها أحد زعماء العلويين مريضاً ، فتنازل لمحمد عن حقوق المطالبة بالخلافة . وأقرب محمد بالإمام ، فسبّل ذلك عليه وعلى أولاده دعوة الناس سرّاً الى بيعتهم ، فعظم شأن شيعتهم في خراسان بزعامة « أبي مسلم الخراساني » . ثم زحفوا على العراق ، فظهر « عبد الله السفاح » بن محمد وبايعه أهل الكوفة سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) فكان بذلك مؤسساً للدولة العباسية . ثم تتبع بنى أمية قتلاً وحبساً ، فهاموا على وجوههم في أنحاء البلاد . واتخذ السفاح

« وهرب منهم » عبد الرحمن بن معاوية « ابن الخليفة « هشام » فسار الى « الاندلس » حيث وجد كثيراً من عسكر آباءه وشيعتهم فتغلب على تلك البلاد وأسس بها دولة أموية مستقلة كانت تضارع العباسية في العلم والحضارة وعاصمتها « قرطبة » . ومن أشهر خلفائها « عبد الرحمن

مدينة الأنبار بقرب الكوفة داراً للخلافة ، وهو أول من اتخذ الوزراء ، وكانت مدته القليلة مدة تأييد لدعائم الملك وترتيب لنظام حكومته . ومات بالانبار بعد ٤ سنين وعمره ٣٣ سنة

ثم ولى الخلافة بعهد منه أخوه « أبو جعفر المنصور » ، وهو شيخ العباسيين وأعظم خلفائهم والمؤسس الحقيقي لدولتهم : لم يكد بلى الخلافة حتى خرج عليه أشرف العلويين وبعض أعمامه وتفاقت الثورات والفتن ، وطمع « أبو مسلم الخرساني » نفسه في انتزاع الملك من بيته ، فاحتال عليه بمحسن سياسته ودهائه وقتله ، وأخذ الفتن والشور ، حتى إذا صفاله الجوّ أقبل يرغب العلماء في التأليف والتصنيف ، فكان عصره أول عصور وضع العلوم الإسلامية العربية وفيه تُرجم كثير من كتب الفرس وغيرهم . وبني « المنصور » مدينة « بغداد » وجعلها عاصمة له ، وبقي ملك أبنائه بها حتى صارت أزهى وأخفم مدينة في الدنيا . وكان رجل جدّ واقتصاد وعلم وفضل . مات سنة ١٥٨ هـ (٧٧٥ م) وترك خزائن الدولة مفعمة بالأموال ، فكان ذلك سبباً في مساعدة الخلفاء من بعده على تنمية الآداب والعلم والحضارة

وبلغ هذا الرقيّ أقصاه في عهد « هرون الرشيد » (١٧٠ - ١٩٣ هـ : ٧٨٦ - ٨٠٩ م) الرشيد والمأمون وابنه « عبد الله المأمون » (١٩٨ - ٢١٨ هـ : ٨١٣ - ٨٣٣ م) ، فانه في عهدهما بلغ العرب أقصى مبلغ من الحضارة وتمتعوا بأعظم أسباب النعيم والرفاهية . وظهر في بغداد شغف بالعلوم والآداب والفنون والفلسفة لا يكاد يكون له نظير في تاريخ العالم بأسره

وبعد أيام « المأمون » أخذ الانحلال يتسرّب الى جميع أنحاء الدولة باتخاذ المعتصم جنوداً عظيمة من مماليك الأتراك يستعزّ بهم على العرب والفرس ، فعظم الدامر « الذي نافست قرطبة في عصره بغداد . ووقيت دولتهم الى سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ثم ورثهم ملوك الطوائف من العلويين وغيرهم فأحد الاسبان ينقصون الاندلس من أطرافها بلداً بلداً . ثم استولى عليها ملوك البربر من « المائمين والموحدين ثم بنو الاحمر » من العرب حتى سقطت في يد الاسبان سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م)

شرم في زمنه حتى خرج بهم من بغداد وبنى شمالها مدينة « سُرَّ مَنْ رَأَى »
فاستفحل أمرهم بها ، واستطالوا على الخلفاء من أولاده وأحفاده : يخلعونهم ويقتلونهم .
ويسلمون أعينهم . وسقطت مهابة الخلفاء من أعين الولاة ، فاستبدوا بنواحيهم
وكثر الخوارج والمفسدون من الزنج^(١) والقرامطة^(٢) ونشأت الدولة السامانية ببخارى
والديلمية بفارس والعراق ، وبنو حمدان بالجزيرة ، والطولونية ، ثم الإخشيدية
(مع الاعتراف بسيادة الخليفة) ثم الفاطمية ثم الايوبية بمصر والشام

ثم ورث السَّاحُوقِيُّونَ الإمارات الشرقية ، أى ما عدا مصر والشام ، واستولوا
على ديوان الخليفة ببغداد حتى أصبح لآخِلٌ له ولا عقد ، واستمر ذلك الى زوال
الخلافة، حتى أغار التتار بقيادة زعيمهم «هولاكو» فاستولوا على بغداد سنة ٦٥٦ هـ
(١٢٥٨ م) بمساعدة الخائن « مؤيد الدين بن العلقمي » وزير المستعصم
آخر خلفاء بغداد ، وقتلوا الخليفة وأهله ومثلوا بهم . وبموت المستعصم سقطت الخلافة
العباسية من بغداد . وفرّ بعض الخلفاء الى مصر في زمن الملك الطاهر بيبرس .
فأنزلهم وخصص لهم بعض وظائف لمعاشهم ، وبقوا فيها حتى جاء السلطان سليم الى
مصر وافتتحها من يد المماليك ، فبايعه الخليفة المتوكل آخر خلفاء العباسيين بمصر
بالخلافة ، فانتقلت بذلك الى العثمانيين سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م)

سقوط بغداد

وكانت الدولة العباسية دولة عظيمة الشأن، قوية السلطان طويلة العمر، انتشرت
في مدتها العلوم والمعارف واتسع نطاق الفنون والصناعة والزراعة ، وبلغت من
الحضارة مبلغاً لم تصل اليه دولة اسلامية بعدها . وقد كان قيامها بمساعدة الفرس
فلذلك كانت حكومتها فارسية الصبغة ، وآثر خلفاؤها الفرس ثم الترك على العرب
بالمناصب والعطاء

ومن أهم أسباب سقوطها :

- (١) جمع أحد المدعين الانتماء الى عليّ حيوشاً من الزنج وخرج بهم على العباسيين
- (٢) فرقة دينية مبدؤها التشيع لعليّ أيضاً ولكنها معتبرة عند أكثر الناس خارجة على
أصول الاسلام

- (١) اقطاع خلفائهم الولايات القاصية ابعض الولاة وذراريهم مكافأة لهم على أسباب سقوط الدولة العباسية خدمة ، فاستقلوا بها
- (٢) ابعادهم أهل العصبية من العرب لتوهمهم ميلهم الى العلويين واستعاضوا عنهم بالفرس والترك ، فكانوا معهم كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فخرجوا عليهم
- (٣) عدم سنّ نظام لولاية العهد ، فوُلّي أصحابُ الفوة في الدولة من الترك والديالم الصبيان والأطفال منصبَ الخلافة واستبدّوا هم بها
- (٤) انتشار مذاهب الشيعة بتعزيد المستبدّين بالملك من الفرس والديلم وغيرها ، حتى آل الأمر الى استدعائهم التتار لنزع الخلافة من العباسيين وجعلها في يد العلويين ، فاكسحوا الطائفتين
- (٥) تكوين الدولة العباسية من عدة شعوب قوية ذات حضارة قديمة كل منها يعمل على إعادة دولته ، فسهّل ذلك انقسام الدولة الى عدة ممالك وإمارات أعقبتها الفناء

الفصل الثاني

مصر

في عهد الخلفاء الراشدين وبنى أميَّة وصدّر بنى العباس

٢١ - ٢٥٤ هـ (٦٤١ - ٨٦٨ م)

فُتحت مصر فيما بين سنتي ١٨ و ٢٠ هـ (٦٣٩ - ٦٤١ م) . وبعد قليل أُحرق بها جزء من بلاد النوبة ثم بلاد برقة ثم بلاد إفريقية (تونس)

✽ شكل حكومة مصر ولو احقها ✽

كانت هذه البلاد منذ افتتاحها المسلمون الى أن تولّاها أحمد بن طوأن سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ولاية بحتة ، أي معتبرة جزءاً من أملاك الخلافة يحكمها والٍ يُرسل من قبل

الخليفة ، مطلق التصرف غالباً فيما يوافق سنن الاسلام وتقتضيه العدالة ، ولأهل
الرأى من قواد العرب ووجوه الناس وأكابر العلماء والفقهاء عنده قول مستمع ، ورأى
متبع . ولم يغير المسامون في بدء فتحهم كثيراً من شكل النظام الإدارى ، وهو فى
الجوهر تقسيم مصر الى كُور أو أعمال يرأس كلًّا منها حاكم خاضع فى إدارتها لإشارة
الوالى ويصدر أوامره الى من تحت إدارته من رؤساء القرى ، وذلك شبيه جداً
بالنظام المتبع الآن . كذلك لم يغير العرب كثيراً من طرق الرى وجباية الخراج
وكتابة الدواوين ، غير أنهم جرّدوا بقايا الروم من أعمال الحكومة ووضعوها فى أيدي
الأقباط لعظيم تقمهم بهم ، وأبقوا لأنفسهم المناصب السياسية والدينية . ولما تعلم
العرب فنون الإدارة وكتبوا الدواوين بالعربية بدل القبطية فى ولاية «عبد الله بن
عبد الملك بن مروان» سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) ، وزاحموا القبط بعض الشئ
وحرموهم بعض مزاياهم تآلبوا مراراً وخرجوا على العرب وحاربوهم ، وقابلهم هؤلاء
بالقوة فلم يسمعهم إلاّ تعلم العربية واعتناق الإسلام ، فأسلم كثير منهم وصابروا
العرب وامتزجوا بهم وانتظموا فى سلك الحكومة . ثم أخذ نظام الحكومة الإدارى
يتغير بعد ذلك بمناسبة الأحوال

حفظ النظام
القديم

أنواع الولاية
وحقوقهم

وكان الولاية بحسب مقدرتهم وثقة الخليفة بهم : اما ولاية مطلقة لهم الحرية ،
يقومون بأعمال جميع المناصب الثلاثة العظيمة التى تدور عليها رضى الولاية ، وهى إمامة
الناس فى الصلاة وجباية الخراج وقيادة الحرب ، وإما ولاية خاصة مقصورين على
واحدة أو اثنتين منها . وكل والٍ خاص يرسل بعهد خاص من الخليفة ولا يملك
أحدهم عزل الآخر ، وإن كان صاحب الحرب أو صاحب الصلاة له الزعامة
والإشراف على غيره غالباً

وربما ولّى الخليفة والياً عاماً على ولايات الغرب كلها أو بعضها ، فينيب هذا عنه
بعهد منه والياً على مصر كما كان يقع فى عهد بنى العباس

ومن حقوق الولى المطلق الصلاة بالناس فى الأوقات الخمسة والجمعة والعيدى ،
والخطبة بهم فيها وفى الحوادث العظام ، وانتخاب أعوانه من الحكام وجباة الخراج

وقادة الجيوش ، ونصب القضاة وأصحاب الشرطة والمظالم وغيرهم من كبار العمال ، بشرط انتخابهم من أشرف العرب أو أفاضل الموالى^(١) المسلمين ، وتنفيذ الأحكام والحدود من القصاص وغيره . ولا يرجع الى الخليفة غالباً في شيء من ذلك . فالوالى مستقل في الحقيقة نوع استقلال داخلي ، إلا أن حكمه مؤقت قصير المدى ، فكان الخليفة يستبدل به غيره عند ظهور أى عيب فيه ولو صغيراً أو وقوع ظلم منه ، وربما كان ذلك سبباً في انصراف كثير من الولاة المصلحين عن القيام بالأعمال النافعة العظيمة

بنى عمرو بن العاص عقب الفتح مدينة « الفسْطاط^(٢) » (وموضعها الآن جامع مقر الحكومة عمرو وما جاوره) وجعلها مقراً للإمارته . وبقيت كذلك الى العصر العباسى ، فبنى « أبو عَوْن » قائد جيش العباسيين المقتنمين أثر مروان (آخر خلفاء الأموية الهارب الى مصر) « مدينة العسكر » شماليّ الفسْطاط حيث نزل عسكره ، فسكنها أكثر ولاة بنى العباس الى زمن « ابن طولون »

﴿ الخَرَاجُ وَالنَّفَقَاتُ ﴾

لما فتح العرب مصر ضربوا على أهلها الجزية : جزية الرؤس والأرض . فأما جزية الرؤس فكانت دينارين (جنهما واحداً) على كل رجل قادر على العمل ،

(١) الموالى هم سكان البلدان الاصليون أو من جرى عليهم رق ثم اعتقوا

(٢) قال « المقرئى » فى وصف موضع الفسْطاط ما يأتى :

« اعلم أن موضع الفسْطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان مضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بالجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بمضه بقصر الشمع والمملكة ، يزل برشحنة الروم المتولى على مصر من قبل القباصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ، ويقيم فيه ما شاء ، ثم يعود الى دار الامارة ومنزل الملك بالاسكندرية . وكان هذا الحصن مطلاً على النيل ، وتصل السفن فى النيل الى بابه الغربى الذى كان يعرف بباب الحديد وكان بجوار هذا الحصن من بحريه وهى الجهة الشمالية أشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق . وفيها بين الحصن والجبل عدة كنانس وديارات للنصارى »

وأعفى منها الصبيان والشيوخ والرهبان والنساء . وأما ضريبة الأرض فكان على كل قرية نصيب يختلف باختلاف غاتها وعمراتها وخرابها ، وعلى أهل القرية من ذلك ضيافة من يمرّ عليهم من جند الحامية ثلاثة أيام . وكان مجموع ما يجبيه المسلمون من الجزية وخراج الأرض أقل كثيراً مما كان يجبيه الرومان ، ولذلك أحب القبط وملأك الأرض من الروم أنفسهم حكم المسلمين ونصحوا لهم في خدمتهم . وكان لكل قرية مجلس محلي من رؤسائها يقررون ارتفاع القرية (أموال ضرائبها السنوية) ويوزعون أرضها على القادرين على زرعها . ويقومون بتأدية خراجها الى عمال الخراج . وكان ذلك في أول الفتح . ثم صاروا يؤدونها إلى أصحاب الالتزام وهم الذين يرسو عليهم خراج النواحي مدة ثلاث سنوات بعد اعلان التزايد فيها بمسجد عمرو ، وهؤلاء يجمعون الخراج بواسطة أعوانهم ومعاونة الحكومة أحياناً ، ثم يقدمونه الى صاحب الخراج (شبيه بوزيرى المالية والأشغال)

أرض مصر
وعدد سكانها

وكان أكثر الخراج يجبي من جزية الرؤوس التي تضرب على أهل الذمة فقط ويرسل جزء كبير منه للخليفة لقلعة جالية العرب بمصر يومئذ . وبلغ مجموع ما جباه عمرو من الخراج في السنة ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار جمعت على الأرجح على الوجه الآتي :

(١) جزية الأراضي عن الف الف وخمسمائة الف من الفدادين المزروعة (مليون ونصف)

(٢) جزية الرؤوس على أربعة آلاف الف من الذكور البالغين (أربعة ملايين)

(٣) ضرائب ستنى ١,٠٠٠,٠٠٠

فلما فشا الإسلام في القبط وكثر ورود قبائل العرب الى مصر وزاد عدد مقاتلتهم بها قلّ المتحصل من جزية الرؤوس ، وكثرت النفقة على جنود الديوان ، فكان صافي الخراج بعدئذٍ دون ثلاثة آلاف الف ، واذا حسنت وجوه العمارة واستقصيت أبواب الجباية بلغ أربعة آلاف الف ، وقلما زاد على ذلك

﴿ القضاء والشرطة والمظالم ﴾

كان من حق الوالى بمصر تنصيب القضاة وعزلهم من غير مراجعة الخليفة . واستمر ذلك الى أوائل الدولة العباسية إذ وُلِّي « أبو جعفر المنصور » ابن لَهَيْمَةَ القاضى بأمره ، وأجرى عليه ثلاثين ديناراً فى الشهر

وكان قاضى الفسطاط ينيب عنه قضاة البلدان الأخرى . أو يعينهم الوالى رأساً . وكان مجلس القاضى إما فى المسجد الجامع غالباً ، وإما فى داره ، وقلماً يجلس فى دار الإمارة . ولم يكن يُشترط فى القاضى أن يقضى بمذهب خاص ، بل يكون مجتهداً أو على مذهب أحد الأئمة . وكان منصب القاضى فى ذلك العهد من أهم المناصب وأكثرها عملاً ، وكان من أعماله الفصل فى الدعاوى والأوقاف والنفقات ونصب الأوصياء ، وأحياناً تضاف اليه الشرطة والمظالم وبيت المال ، ولذلك كان القضاة يُختارون من أغزر الناس علماً وأكثرهم فضلاً . ومن أعظم من اشتهر منهم بالفضل والاستقامة والعدل القاضى « غوث » بن سليمان المتوفى سنة ١٦٨ هـ ، ولى قضاء مصر مراراً ، ولم يُمنع عن الوصول اليه متظلم قط . ومنهم أيضاً « المفضل » خلفه ، وهو أول من أمر بتدوين الأسباب المبنى عليها الحكم بأكلها . وقد كان الكثير من القضاة يتنحى عن تقلد هذا المنصب لكثرة أشغاله وخطورة مسئوليته ، ولم يقبله « أبو خزيمة » إلا بعد أن نادى الحاكم بالجلاد

أما الشرطة فكان يليها غالباً عامل خاص يسمى « صاحب الشرطة » (حَكَمَدَار البوليس) وله ما لهذا فى زماننا تقريباً

• وأما صاحب المظالم فهو الذى ينظر فى القِصَص والشكاوى التى ترفع اليه من الرعية تظلماً من عمال الحكومة أو غيرهم ، فيفصل فى بعضها بنفسه أو يحيل النظر فيها على القاضى . ونظيره الآن النائب العمومى وأقلام قضايا المصالح

المقاتلة

كانت تعرف رجال الجيش بالمقاتلة ، ويسمون أيضاً « أصحاب الديوان » أى أصحاب الأعطيات التى تصرف لهم فى الديوان كل سنة . وكان كلهم من العرب ، بل كان كل عربى ينزل الى مصر يُفرض له ولأولاده وعياله فرض فى الديوان . وكانوا يُنهبون عن الاستغال بالزراعة . ويُعاقبون على ذلك لثلاً ينسوا ملكة الحرب . ويقودهم فى الحرب والى مصر . ولكن لما وفر عددهم وزادوا على حاجة الديوان زاولوا الزراعة ودخلوا فى غمار الفلاحين بالتدريج . وبقي العرب هم أصحاب الفروض فى الديوان الى عهد الدولة العباسية ، فاستتركت معهم فيه المقاتلة من الفرس والترك حتى أمر « المعتصم » الخليفة العباسى (جازاه الله) بإخراج العرب من الديوان وحرمانهم من العطاء ووضع الترك بدلهم ، فحلّت الجيوش العربية ، وثاروا على الحكومة مراراً قهرتهم . ومن ذلك تضعضع سلطان العرب فى مصر وزالت دولتهم واشتغلوا بالزراعة وصاروا مزارعين ، وكان جزاء الدولة العباسية من الترك فى مصر أن خرجوا عليها واستقلوا بها

✽ الرى والزراعة والتجارة ✽

كانت الأعمال الخاصة بهندسة الرى ، من كرنى الخلجان وإقامة الأحواض والقناطر والجسور وتقدير الأقنية ونحو ذلك ، تقوم بشؤونها الحكومة نفسها فى مبدأ الفتح ، ويتولى ذلك صاحب الخراج (صاحب المالية والأشغال) جرياً على النظام الذى كان متبعاً زمن الرومان

ثم لما ضعف شأن الولاة أضيفت هذه الأعمال الى أصحاب الالتزام ، فأهلوها وقلّ بذلك العمران تدريجاً . وكان أكثر ربيها بالحياض النيلية فتقتصر على الزراعة الشتوية . وبعض أرض الفيوم والوجه البحرى تروى بالترع والسواقي فتُخرج الزراعة

الصيفية أيضاً . وكان يزرع بمصر الكتان والقمح وباقي الحبوب وكثير من الكروم والنخيل والفاكهة

وكانت تجارة مصر الى الخارج في الحبوب والمنسوجات الكتانية التي كانت تضارع فيها وقتئذٍ اصنع أهل الدنيا

ومما كان يساعده على انتشار التجارة بين مصر وغيرها البحرين الاحمر والابيض ، ونهر النيل ، وكثرة الترع ، خصوصاً خليج أمير المؤمنين الذي كان يصل النيل بالبحر الاحمر ، وبقي الى صدر الدولة العباسية حتى ردمه المنصور

﴿ أهل البلاد ﴾

كان أهل مصر في أول الفتح هم جمهور الاقباط وثقايا الروم ومهاجرة العرب ، فكان القبط هم المزارعين وأرباب الوظائف الصغرى والوسطى . وكان العرب هم الحامية وأهل الحرب . ثم اشتغل العرب بعد نحو قرن بالزراعة . وأسلم كثير من القبط وصاهروا العرب ، فضربت على العرب المزارعين الضرائب التي كانت تضرب على القبط ، فقبلوها إذ كانت معتدلة . ثم اشتط بعض العمال في زيادة الضرائب وجباية الروس ، فكان ذلك سبباً في كثير من الفتن

وكان القبط حينئذٍ على حال عظيم من الرخاء ، ومما قيل في وصف ذلك ان عجوزاً منهم من أهل طاء النمل أضافت المأمون بجيوشه ثلاثة أيام ، وقدمت له هدية أربعة آلاف دينار من ضرب سنة واحدة*

﴿ أشهر الولاية وأهم الحوادث في هذا العهد ﴾

أول ولاية مصر من المسلمين فاتحها العظيم « عمرو بن العاص » القرشي ، ولأه عمرو بن العاص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولاية مطلقة . وكان « عبدالله بن سعد بن أبي السرح »

* الحكاية مبسطة في كتاب خطط المقرئ في فصل نزول العرب بمصر من الجزء الاول وفي غيره ببعض تغيير

عامله على الوجه القبلى . وبقى عمرو والياً على مصر ولو احقها قائماً بالعدل محبوباً عند القبط وجنود العرب، ضابطاً لبلاده أحسن ضبط طول خلافة عمر . وقد قام في هذه المدة بكثير من الإصلاحات العظيمة ، فنظم الإدارة وأصلح القضاء ، ورسم الخطة الأولى في جباية الخراج . ثم انه عني كثيراً بالأعمال الخاصة بهندسة الري من كرى الخللحان واصلاح مقياس النيل وانشاء الأحواض والقناطر والجسور ، فسخر في ذلك ١٢٠,٠٠٠ عامل لا يفتر عن العمل صيفاً وشتاءً ، وبذا تم كرى الخليج القديم الموصل بين النيل والبحر الأحمر في أقل من سنة ، وسماه « خليج أمير المؤمنين » ، فصار القمح يرسل الى المدينة بجرأ بعد أن كان يرسل بطريق القوافل . ولم تله هذه الإصلاحات السلمية عن الواجبات الحربية ، فانه في سنة ٢١هـ (٦٤١-٦٤٢م) أرسل « عبد الله بن سعد » في عشرين الف مقاتل لاختضاع بلاد النوبة . وفي سنة ٢٤هـ (٦٤٥ م) أوائل ولاية عبد الله بن سعد الآتى ذكره صد غارة لاروم عن الاسكندرية ، وكان قائدهم « منويل » ، فبرمهم سراً هزيمة وهدم أسوار الاسكندرية . على أن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » كان يأخذ عليه قلة الخراج الذى يجبيه ، فإن اكبر خراج جباه لم يزد على ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار ثم لما ولى أمير المؤمنين عثمان بن عفان عزله وولى بدله « عبد الله بن سعد بن أبى السرح » فلم يقل عن عمرو كثيراً فى ادارتها ، وجعل همه الفتح ففتح ببيعة برقة وإفريقية . وفى سنة ٣١هـ (٦٥١ م) غزا بلاد النوبة حتى « دُنُقْلَة » وفرض عليها جزية سنوية تشمل ٣٦ رأساً من الموالى ، على أن يمدّهم بمعونة من الحبوب وغيرها ، وبقى هذا الاتفاق نافذاً الى عهد المالك . وكسر الروم فى البحر كسرة شنيعة بالاسكندرية سنة ٣٤هـ (٦٥٥ م) وتعرف بغزوة « ذات الصوارى » . وتشدد فى أوجه الاقتصاد وتنمية الخراج حتى جباه ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، فكرهه بعض القبط والعرب ، وبقى الى قبيل قتل عثمان . ثم حدثت فتنة عثمان ، فطرده عرب مصر ورحل منهم فريق الى المدينة اشتركوا فى قتل عثمان

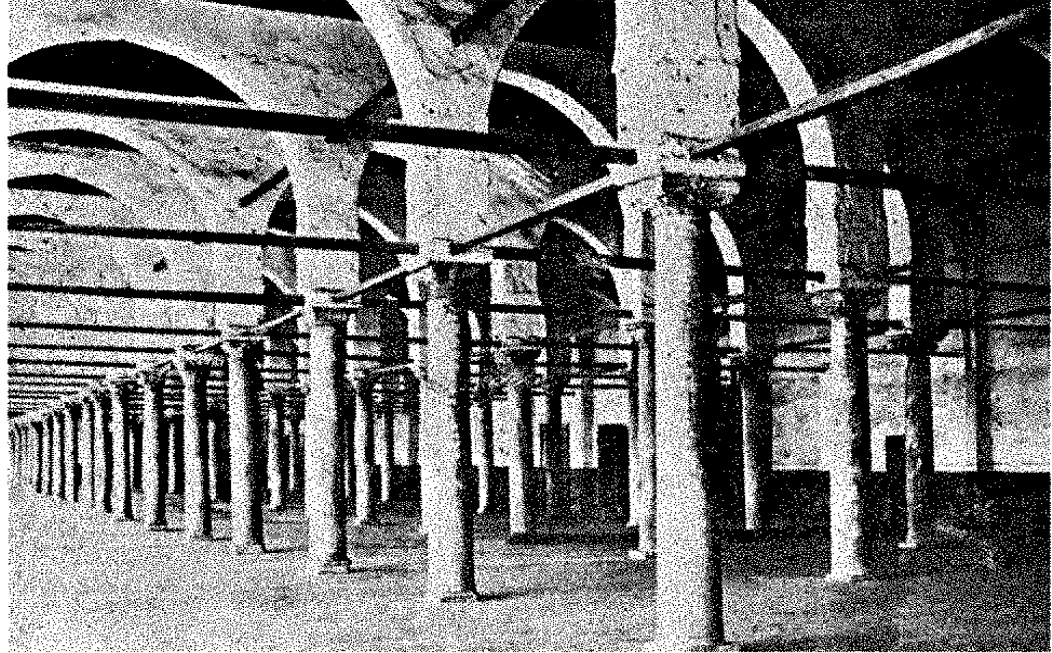
خليج
أمير المؤمنين

اختضاع النوبة
وصد الروم
بالاسكندرية

عبد الله
ابن سعد

تولية
عمرو ثانية

وولى أمير المؤمنين « عليّ بن أبي طالب » والياً من قبله، ثم صرفه وولى « محمد بن أبي بكر الصديق »، فقتله جيش معاوية الداخل الى مصر بقيادة عمرو بن العاص ثم تولى « عمرو بن العاص » ثانيةً بتنازل من معاوية له عن مصر بأن تكون طُعمة له ولولده من بعده في نظير نُصرتة له على عليّ بن أبي طالب، فبقي والياً عليها وقواده يمجّدون في فتح افريقية والمغرب الأقصى حتى مات سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ م)، ودفن بسفح المقطم، وكان عمره إذ ذاك ٩٠ سنة. ومن آثاره مسجده العظيم بالقرب من مصر القديمة



(جامع عمرو)

رسم: علي افندي يوسف

وولى بعده ولده « عبد الله بن عمرو »، فعزله معاوية بعد سنتين، وولى مكانه أخاه « عتبة بن أبي سفيان » وكان خطيباً مَفْوَّهاً، فكث ستة أشهر. ثم ولى « عتبة بن عامر الجهتي » المشهور قبره بالقرافة، فصُرف بعد سنتين وثلاثة أشهر

وجُعل أميراً للبحر، ففتح «رودس». وهو أول من وضع الأعلام على السفن من المسلمين. وولى بعده «مسلمة بن مخلد»، وفي امارته نزلت الروم البرُّس، فطردهم الى البحر. وهو أول من بنى منارات المساجد. وتوفى بعد ولايته بخمس عشرة سنة وأربعة أشهر. وكان من خيرة الولاة علماً وقراءة وعدلاً وجهاداً. ثم ولى «سعيد بن يزيد» ثم «عبد الرحمن بن عتبة» من قبيل عبد الله بن الزبير، ثم «عبد العزيز ابن مروان» من قبل أبيه مروان بن الحكم، ثم من قبل أخيه عبد الملك بن مروان فكانت ولايته قريباً من احدى وعشرون سنة. وحدث في مدته طاعون في القسطنطينية فسكن حلوان وجعل بها الأعوان وبنى بها الدور والمساجد وعمرها أحسن عمارة وغرس بها النخيل والكروم، فكانت القاعدة الثانية للديار المصرية مدة من الزمان ثم ولى «عبد الله بن عبد الملك بن مروان» وفي مدته نُسخت دواوين مصر بالعربية بدل القبطية على يد «ابن يعفور الفزارى». ثم تولى بعده عدة ولاة من قبل بني أمية كان آخرهم «عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير». وفي مدته هرب «مروان بن محمد» آخر خلفاء بني أمية الى مصر، فلحقه «صالح بن علي ابن عبد الله بن العباس وأبو عون عبد الملك ابن يزيد» بجيشهما، فقتلوه ببوصير من اقليم الجزيرة، فكانت ولاة مصر منذ الفتح الى آخر بني أمية ٢٨ والياً كلهم من العرب

عبد العزيز
ابن مروان

نسخ الدواوين
بالعربية

انتهاء عهد
بني أمية

وتولى مصر «صالح» من قبيل ابن أخيه أبي العباس السفاح سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) وسكن القسطنطينية وأقام بها سبعة أشهر. ثم استخلف أبا عون بها. فانتقل الى مدينة بناها شمالي القسطنطينية سماها «العسكر» موضع نزول عسكره*، فكانت مقر الولاة العباسيين حتى بنى احمد بن طولون «القطائع» شرقيها

العسكر

ثم توالى ولاة بني العباس على مصر، فتم انتقالها من يد الأمويين الى يد العباسيين

* ومحلها الآن أبنية خط فم الخليج وأبي السعود الحارثي والماوردي وزينم والبغالة الى طولون والصحراء فبال كيمان البغالة وجبل قلعة الكباش

بدون صعوبة كبيرة ، بل أن كثيراً من العمال والموظفين بقوا في مناصبهم وأخلصوا للعباسيين في خدمتهم

وفي عهد العباسيين كثرت الفتن والفتن في البلاد ، ولم يكن للأقباط يد فيها كثرة الفتن أكثر مما كان للمسلمين أنفسهم بسبب الخلاف بين الشيعة والسنيين : وكان بمصر لكل من العلويين والحوارج طائفة تعزهم ، وتفاقت العداوة بين الاثنين حتى أدت الى اضطراب مستمر . وساعد على اضرام تلك النيران أهل « الحُوف » ، وهم عرب من قبيلة « قيس » كان قد أنزلهم « عبيد الله بن الحَبَّاب » والى الخراج سنة ١٠٩ هـ (٧٢٧ م) في الحُوف الشرقي (الأراضى التى شرقى فرع النيل) ليساعدوا على انتشار الإسلام فى مصر

فمن ذلك ان الحوارج ثاروا سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤ م) ، إذ كان أبو عون فى ثورة الحوارج « برقة » لإخضاع البربر ، فاضطُر إلى الرجوع الى مصر ، فقهر الثائرين وأرسل ثلاثة آلاف رأس من قتلاهم الى الفسطاط

وفى سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) خرج الأقباط بجمعة « سخا » وهزموا جيوش الحكومة وطردها جباة الخراج . وكانوا قد خرجوا قبل ذلك مراراً على بنى أمية بسمنود وبالصعيد فلم يفلحوا . ولكن أمرهم استفحل هذه المرّة حتى عمّت الثورة جزءاً عظيماً من الوجه البحرى ، واستمر الحال كذلك عدة سنوات . ثم سلكت معهم الحكومة مسلك الشدة والاضطهاد تأديباً لهم حتى انتهى الأمر بكبح جماحهم

ومن الولاة الذين اتخذوا الشدة وسيلة لتوطيد الأمور « أبو صالح » المعروف « بابن ممدود » ، وهو أول من ولى مصر من الأتراك ، وليها سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م) ، فكان غاية فى الشدة : ضرب على السَّرقة وقطاع الطريق من عرب الحوف وغيرهم بيد من حديد ، حتى أصبح الناس يتركون منازلهم مفتوحة ولا يخشون عليها من سوء

وفى سنة ١٦٦ هـ (٧٨٢ م) حدثت فتنة سياسية كبرى بالصعيد ، فإن سنة ١٦٦ هـ

« دِحْيَةَ ابن مُصْعَب » الأموي ادعى الخلافة ، فانضمَّ اليه معظم الوجه القبلي وهزموا جيوش الحكومه . وانهز عرب الحوف هذه الفرصة فخرجوا ، فانهمزمت حيوش الحكومه وقتل والي . ولم تنزل الأحوال في اضطراب حتى ولي مصر « الفضل بن صالح » بن علي العباسي . فانه أتى بجيش من الشام فهزم الثائرين عدة مرات في الصميد وقض على المطالب بالخلافة ، ثم ضرب عنقه بالفسطاط وصلبه ، وأرسل رأسه للحليفه ببغداد

ومن سوء الحظ ان « الفضل » خالجه الغرور لما رأى من انتصاراته ، فعزله الخليفة « المهدي » . ومن بعده عاد الاضطراب وكثر عزل الولاة حتى أنه في عهد « الرئيد » تولى مصر ١٦ واليافي اتى عترة عاماً

عرب الحوف

وفي هذا العهد كثر خروج عرب الحوف : ففي سنتي ١٨٦ و ١٩١ هـ (٨٠٢ و ٨٠٦ م) ثاروا وامتنعوا عن دفع الضرائب وسلبوا أموال التجار والمسافرين ، ثم انضمت اليهم قبائل البدو النازلة على الحدود ، وأغاروا على الشام . ثم تجددت ثورتهم بعد وفاة « الرئيد » عندما تنازع « الأمين » و « المأمون » بسبب الخلافة ، فرأى الأمين اتقاء لشرهم أن يعين رئيسهم والياً على مصر ، فزادت بذلك شوكتهم وكبر شأنهم

ومما ساعد على ازدياد قوتهم أنه في سنة ١٨٢ هـ (٧٩٨ م) جاء الى الاسكندرية ما يزيد على ١٥٠٠٠٠ رجل من الأندلس عدا أطفالهم وسائهم ، طردهم من أسبانيا الأمير الاموي « الحكم » عقب فتنة كبيرة حدثت بقُرطبة . ولم يمض زمن طويل حتى تدخلوا في شؤون مصر السياسية ، وانضموا الى عرب « لَحْم » ، واستولوا على الاسكندرية سنة ١٩٩ هـ (٨١٥ م) . ومارالوا في حرب مستمر ، مع الحكومه تارة ، ومع الساخطين من عرب الحوف أخرى ، حتى أرسل اليهم « المأمون » سنة ٢١١ هـ (٨٢٦ م) قائداً من أعظم قواده وهو « عبد الله بن طاهر » * فاستولى على

مهاجرو
الاندلس

* يقال ان نوع القنء المعروف بعبد اللادى سمي بهذا الاسم نسبةً الى عبد الله بن طاهر لانه أول من أدخل زرعه بمصر

الاسكندرية بعد أن حاصرها أربعة عشر يوماً، فخرجوا منها بنسائهم وأطفالهم ونزلوا
بجزيرة « إقريطش » (كريت) سنة ٢١١ هـ (٨٢٧ م)

عبد الله
ابن طاهر

وكان ابن طاهر قد بدأ بقتال الوالى السابق فتغلب عليه وأخرجه من «الفسطاط». ثم عمل على تنظيم الجيش ونشر الأمن حتى دانت له البلاد . وأراد « المأمون » مكافأته على ذلك فوهب له الجزية سنة بأكملها، وكانت إذ ذاك ٣,٠٠٠,٠٠٠ دينار وكان «عبد الله» من أحسن الحكام الذين ولوا مصر: له ولع بالعلوم، حريص على إكرام العلماء والشعراء . ومن أعماله أنه جدّد بناء جامع عمرو

ولم يكد يخرج من مصر ويذهب الى موطنه بخراسان حتى جدّد أهل الحوف ثوراتهم وهزموا الحاكم الجديد بجهة المطرية . ثم جاء المعتصم أخو الخليفة في ٤٠٠٠ مقاتل من الأتراك ، فبدّد شمل العرب (سنة ٢١٤ هـ : ٨٢٩ م) وفنك بزعمائهم ، غير أنه لم يمض على عودته الى بغداد أكثر من خمسة أشهر حتى تجددت ثورة العرب وخرج معهم القبط سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) خروجاً عاماً

خروج العرب
والقبط خروجاً
عاماً

وبعد قسمة طويلة جاء المأمون بنفسه سنة ٢١٧ هـ (٨٣٢ م) وحارب القبط وأنزلهم من حصونهم ، فلم يجرّدوا بعدها سيفاً ، وأخذوا يعتنقون الإسلام أفواجا . ومن ذلك العهد ابتداء الطور الحقيقي لانتشار الدين الاسلامى فى مصر حتى صبغت صبغة اسلامية محضة

وبقيت البلاد هادئة بعد مجيء المأمون لم يعكر صفوها شئ . من القلاقل ، اللهم إلا اختلاف قليل بين العلماء ورجال الدين من المسلمين أنفسهم . وبقيت ولاية بنى العباس تتوالى على مصر من العرب والموالى حتى ولى « عنبسة بن اسحق الضبى » سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) ، فكان آخر أمير عربى ولى مصر ، وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد الجامع . وهو من أحسن ولاية مصر عدلاً ، وأكثرهم فضلاً واكبرهم ورعاً وفى مدته هوجمت مصر من جهتين ، فدخل الروم دمياط سنة ٢٣٩ هـ (٨٥٣ م) ، فردم عنها وحصنها بحصون منيعة كان لها الفضل الأكبر فى الحروب الصليبية .

عنبسة آخر
وال عربى

وفي سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) أراد « علي بابا » ملك النوبة أن يزحف على مصر فهزمه « عبّسة » وحمله على دفع الجزية ، وإن كان قد أكرم مشواه وردّه معزّزاً الى بلاده بعد أن زار الفسطاط وبغداد . وعُزل « عبّسة » سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) وخلفه من الموالي والأتراك عدّة كان آخرهم « أرجوز بن اولغ طرخان » التركي ، ثم صُرف بأحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ، فخرج على الخلافة واستقلّ بملك مصر وأسس الدولة الطولونية

الفصل الثالث

الطولونيون والاششيديون

(١) الدولة الطولونية

٢٥٤ - ٢٩٣ هـ (٨٦٨ - ٩٠٥ م)

بقيت مصر بعد سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) ولاية للعباسيين ، يقلدها خلفاؤهم من أحبوا من الموالي والأتراك ، فيقيم هؤلاء ببغداد ويستخلفون عليها نواباً يحكمونها لهم ويرسلون الخراج اليهم

ابن طولون
فلما كانت سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) قدم اليها « احمد بن طولون » التركي نائباً عن الأمير « باكباك » الذي قلّد مصر من قبل الخليفة . وأصل أبيه « طولون » مملوك للمأمون . فنشأ ابنه احمد نشأً حسناً ، فتعلم وتأدب وأحبّ الغزو ، وظهر فضله وشجاعته . فوقع اختيار « باكباك » عليه ، وخصه بأعمال القصبّة* (الفسطاط) بحيث لا يدخل في دائرته الاسكندرية وغيرها

وكان بمصر « احمد بن المدبر » والياً على الخراج ، وقد تحكّم في البلد ، فما زال به ابن طولون حتى كفّ يده ، فعظم بذلك شأنه

--- * قصبّة الملكة حاضرتها الكبرى الاصلّة

ثم أخذ « ابن المدبر » يشى بابن طولون ويطلب من الخليفة عزله فلم ينجح . ومن حسن حظ « ابن طولون » أنه لم مات « باكباك » وُهبَت مصر للأمير « ماجور » حتى * « ابن طولون » ، فأبقاه في منصبه وزاد على أعماله أعمال الاسكندرية وغيرها من الجهات التي لم تكن من أعماله ، وذلك سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ م)

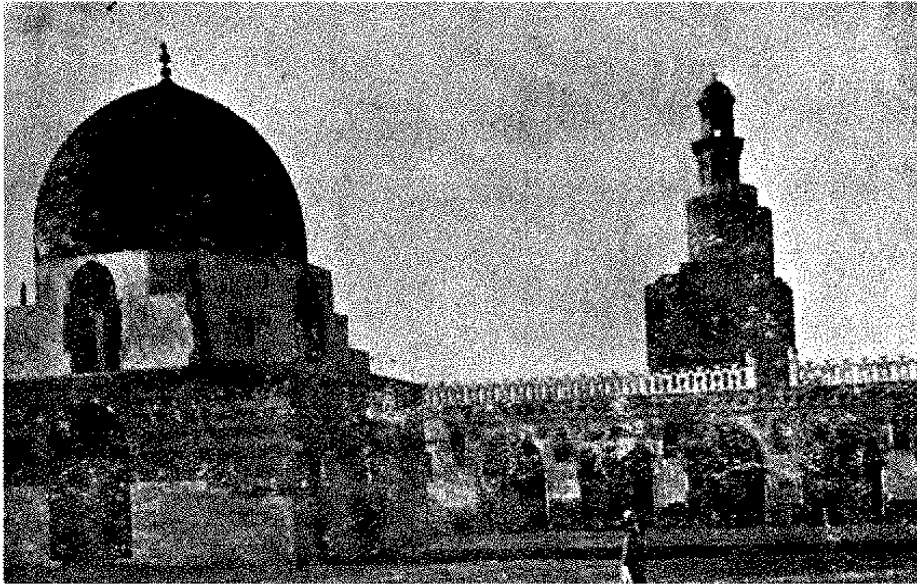
فعمم بذلك شأن ابن طولون . وكثرت أعداؤه حتى أنه لما انتهى تقليد ماجور سنة ٨٧٢ م أرادوا أن يوقعوا به ، وكاد « الموفق » أخو الخليفة وصاحب الكلمة إذ ذاك أن يعزله ، ولكنه تمكن بدهائه وماله من دفع ذلك ، وقويت شوكته وخشيه « ابن المدبر » وقبل بعظيم الارتياح نقلته الى منصب والى الخراج بالشام ، فخلا لابن طولون جو مصر

فأخذ في الإكثار من الجند والخدم والحتم . ولما رأى أن بيت الإمارة بمدينة القطن « العسكر » أصبح غير كاف لجميع ذلك بنى له مدينة جديدة تمتد من المقطم الى جبل الكبش ، سماها « القطن » لأنه جعل فيها لكل طائفة من أصناف خدمه « قطيعة » ، وبني قصره تحت « قبة الهواء » (القلعة الآن) ، واتخذ غريبه ميداناً عجيباً للعب الصوالة ومسابقة الخيل

وبني مسجده المشهور سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م) ، وهو من أقدم مساجد مصر وبني كذلك مارستاناً للمرضى ، وقرَّب العلماء والزهاد والقراء ورتب الصدقات والمبرات ، فكثرت بذلك نفقاته ، فمغ ارسل الخراج الى « الموفق » ، فسير اليه « الموفق » جيشاً ليعزله فلم يصل الجيش . وعند ذلك ازدادت ثقة « ابن طولون » بنفسه وأراد توسيع نطاق ملكه ، فأغار على الشام سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) ودانت له معظم مدنها ، وعاد منها بعد سنة بعد أن ثبت بها دعائم ملكه

فلما وصل الى مصر وجد أن ابنه « العباس » قد اتهم فرصة غيابه وحاول الاستيلاء على الملك ، فتغلب عليه وسجنه باقى حياته

• أى أبى زوجته



(جامع ابن طولون) (رسم لكعبان)

قطع الملائق
مع الخلافة

وأراد « ابن طولون » الاستيلاء على مكة فلم يفلح ، ولعنَ بالمسجد الحرام
فزاد كل ذلك من كراهته للموق ، فحذف اسمه من الخطبة سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٣ م)
فقطع بذلك كل صلة بالخلافة . « ومات ابن طولون » سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٤ م) وله
ملك لا يعدله ملك الخليفة : يشمل الشام والجزيرة وبرقة

وقد كان لقوة « ابن طولون » وسطوته خير أثر في مصر ، فسادت السكينة في
البلاد ونمت ثروتها . وتوفى وخزائنه مفعمة بالأموال

وكان مع ذلك طائش السيف : يقتل ويحبس بالظنة ، ولما اشتد عليه المرض
قبيل وفاته غضب على أطبائه فأعدم كثيراً منهم وعذب آخرين

وخلفه ابنه « خُمارويه » فسار سيرة أبيه في الاحسان ، وبالغ في العمارة وأنواع
الترف ، فجعل ميدان أبيه (مكان الرميطة الآن) بستاناً لم يُسمع بمثله : جمع فيه
غرائب الأشجار والأزهار ، واتخذ حظيرة للسياح والوحوش ، وأعدَّ بقصره بحيرة

خمارويه

عظيمة من الزئبق يبلغ مسطحها مائة قدم في مثلها

ولما ولي هذا الملك الشاسع استولى الحسد على أميرى «الموصل» و «الأنبار» النزاع مع أميرى الموصل والأنبار ووالى «دمشق»، واتفقوا جميعاً على أن يخرجوا الشام من حوزته ويسلموها للخلافة . وكانت حجتهم فى التعدى على «خارويه» أنه استولى على أملاكه بعد أبيه من غير أن يقلده الخليفة إياها . وساعدهم «أبو العباس» بن «الموفق» ، وأغاروا جميعاً على الشام ، فدخل «أبو العباس» دمشق سنة ٢٧١ هـ (٨٨٥ م) وبعد ان دارت بينهم وبين «خارويه» عدة مواقع انتصروا فى بعضها وهُزموا فى أخرى هزمهم «خارويه» بجهة دمشق سنة ٢٧١ هـ (٨٨٦ م) فى موقعة فاصلة ، فدخل دمشق وساق أمير الموصل الى مدينة «سُرّ من رأى» على نهر دجلة

وعند ذلك عقد صلحاً مع الموفق ، وقلده الخليفة حكم مصر والشام وأطراف الصلح مع الموفق بلاد الروم مدة ثلاثين سنة . ثم وقع فى مشاحنة مع أميرى الموصل والأنبار ، فكانت نتيجة ذلك أن نودى به فى الخطبة حاكماً على الموصل والجزيرة

وفى سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) مات «الموفق» وتبعه الخليفة «المعتد» بعد سنة واحدة ، فحسنت العلاقات بين خارويه والخليفة ، واتفق «خارويه» ان يدفع الجزية ٣٠٠٠٠٠٠ دينار سنوياً ، وتزوج «المعتد» ابنة خارويه «قطر الندى» ، فجهزها زواج قطر الندى خارويه جهازاً يضرب به المثل ، فلم يُبق نفيسة ولا تحفة من كل لون أو جنس إلا حملها معها : فكان من جملة ذلك ٤٠٠٠ منقطة مرصعة وعشرة صناديق مملوءة بالجواهر وألف هاون من الذهب . ولما فرغ خارويه من جهازها أمر فبني لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد ، فاذا وافت المنزل وجدت قصرأ أعدّ فيه من أسباب الراحة والترف ما يصلح لمثلها فى حال الإقامة

كل ذلك وما تناكله من أنواع الإسراف الأخرى التى تعودها أضعف حاله المالية وكاد يفضى بخزائنه الى الخراب . ثم قتل خارويه بدمشق ، ذبحه بعض خدمه على فراشه ، وحمل تابوته الى مصر فدفن فيها سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٦ م)

- ابو العساكر
حبش
ثم تولى بعده ابنه « أبو العساكر جيتس » ، فلم يحسن السيرة مع أهله وقواده
فخلعوه بعد ستة شهور ، ومات بعد أيام في السجن
- هرون
ثم خلفه أخوه « أبو موسى هرون » ، وفي أيامه ضعف نفوذ مصر في الشام ،
فأغارت القرامطة عليها وحاصروا دمشق بعد ان حملوا الجيوش المصرية خسائر
كبيرة . ثم رأى الخليفة أن يدخل بينهم ، فقهر القرامطة ، وزاده هذا النصر إقداماً
فساق الى مصر جيشاً وأسطولاً . وجمع « هرون » جيشه بالقرب من حدود الشام
ابتغاء الالتحام بجيوش الخليفة ، فقتله عمه غدرآ في فراتسه سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م)
- شيبان
فولّى بعده « شيبان » (عمه وقاتله) ، فبقي أياماً . وخالفه القواد فكتبوا الى
« محمد بن سليمان » قائد الخليفة ، فدخل مصر بعسكر جرار ، فهرب « شيبان »
وأخرج محمد بن سليمان بقية آل طولون الى بغداد ، وهدم القصر والميدان وخرّب
البيستان وأحرق أكثر القطائع . وبذلك انقرضت دولة آل طولون سنة ٢٩٣ هـ
- انقراض
آل طولون
(٩٠٥ م) بعد أن ملكت ٣٧ سنة

(ب) الدولة الإخشيدية

(٣٢٢ - ٣٥٨ هـ : ٩٣٥ - ٩٦٩ م)

- عودة النفوذ
للعباسيين
بعد أن انقرضت دولة آل طولون عادت مصر ولاية عباسية ، يتوارد عليها الولاة
من بغداد مدة ٣٥ سنة كانت فيها في غاية من الارتباك والاضطراب . وذلك لأن
الخلفاء كانوا قد استولى عليهم الضعف وزال بعض السلطة من أيديهم ، وصارت
القوة الحقيقية بيد الجند من الأتراك ، فأصبحت الكلمة في مصر للجيوش التي ترسل
من وقت لآخر لتوطيد النظام . وازدادت الحالة حرجاً بتوارد غارات الفواطم على البلاد
وبينما البلاد تن تحت عبء هذه الفوضى ولي حكمها « محمد بن طنج الإخشيد »
- الاخشيد
سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) . وهو من اسرة ملوك « فرغانة » القدماء الذين كان

* كانت بلدة عظيمة ببلاد التركستان ولها كورة تسمى باسمها

يُطلق عليهم لقب « إخشيد ». فمنحه الخليفة هذا اللقب تشجيعاً له ومكافأة له على جدّه . وكان قد تقلّد من قبل منصباً في مصر ، فأبدى كفاءة كبيرة حتى أنه نُصّب حاكماً لدمشق سنة ٣١٨ هـ (٩٣٠ م)

ولم يكد يدخل مصر سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) حتى أخذ الفتن وسكّن الخواطر ثم التفت الى الفاطمية فأخرجهم من الاسكندرية ، ولم تأت سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) حتى قبض على كل شيء ، وصار أتبه بملك مستقل شأن باقي الولاة اذ ذاك في الولايات الأخرى للدولة

وأهم غرض كان يرمى اليه « الإخشيد » حماية الشام من اغارة الولاة المجاورين وأول ما حدث من ذلك ان « ابن رائق » أغار على « جِمص » و « دمشق » ، ثم هزم جيوش الإخشيد سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) وعقد معه صلحاً على أن يبقى شمالي الشام في قبضته . ولما مات « ابن رائق » بعد ذلك بسنتين استرد « الإخشيد » ما فقد ودخل دمشق دون أن يلقى مقاومة . وفي سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م) قلده الخليفة أيضاً حكم « مكة » و « المدينة » . وأراد الإخشيد أن يجعل ملكه وراثياً فأخذ البيعة من قواد مصر لابنه « أونوجور » من بعده . وفي سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) أغار « الحمدانيون » (امراء الموصل وأعلى الجزيرة) على شمالي الشام ، فهزموهم « الإخشيد » وعقد معهم صلحاً على أن تبقى حلب وشمالي الشام بأيديهم ، وأن يدفع لهم اتاوة نظير نزولهم عن « دمشق » . ولعل السبب في تساهله هذا أن سته كانت قد بلغت الرابعة والستين ، وأصبح لا يقدر على مناوأة المزارحين له في شمالي الشام . ولم يلبث بعد ذلك سنة واحدة حتى مات بدمشق سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) ودُفن بيت المقدس

ولم يبق للآن شيء من آثاره بمصر يدل على حالة البلاد في عهده ، ولكننا نعلم أنه أوجد في البلاد هدواً وسكينة لم تعهدهما منذ ثلاثين عاماً

وخلفه ابنه ابو القاسم أونوجور (٣٣٥ - ٣٤٩ هـ : ٩٤٦ - ٩٦١ م) . وكان أونوجور

صغيراً ، فأقيم الاستاذ « أبو المسك كافور الإخشيدى » الخصىّ الأسود قيماً عليه .
فقام مع رجال الدولة بتدبير الملك حتى مات أونوجور بعد ١٤ سنة : سنة ٣٤٩ هـ
(٩٦١ م) . ثم تولى بعده أبو الحسن على بن الإخشيد . ولم يقتصر الخليفة « المطيع »
على توليته مصر والشام ، بل أضاف اليه ولاية الحرمين . ولم يكن لأبي الحسن مع
كافور من الأمر شيء ، ثم فسد ما بينهما ، فنع « كافور » الناس من الاجتماع به ،
فبقى كذلك حتى مات سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) ودفن في القدس

فتولى الاستاذ ابو المسك كافور الإخشيدى بدله ، وجاءه التقليد بولاية مصر
والشام والحجاز . وأصله عبد حبشى خصىّ اشتراه الإخشيد من بعض أهل مصر
بثمانية عشر ديناراً ، فما زال يتقدم عنده لعقله وحسن رأيه وشجاعته إلى أن صار
من اكبر القواد الذين أسسوا له دواته . ولم يبلغ أحد من الحصيان ما بلغه كافور
هذا : ملك أنفس ممالك الإسلام ، وخدمه كبار العلماء ، ومدحه المتنى (وكان قد
طمع أن يوليه منصباً ، فلما لم يحقق أمله هرب من مصر وهجاه) . وولى كافور الملك
سنتين . ومات سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) . فولى أهل مصر « أبا الفوارس أحمد بن
على بن الإخشيد » وهو صغير ، فقام شهوراً حتى أتى « جوهر الصقلى » قائد
جيوش المعز الماطعى ، فدخل مصر بلا قتال ، وانتزعها من الدولة الإخشيدية
سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) بعد أن ملكت ٣٤ سنة

كافور

الفصل الرابع

الدولة الفاطمية^(١)

٣٥٨ - ٥٦٧ هـ . (٩٦٩ - ١١٧١ م)

تمهيد في
أصل الشيعة

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بويع أبو بكر بالخلافة ، وامتنع عليّ ونفر قليل عن بيعته مدة لاعتقادهم أنه أولى منه بها لقرابته وصهره من رسول الله ، ثم لم يلبث عليّ أن بايع ودخل فيما دخل فيه المسلمون . ثم لما انتهت خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وجاءت نوبة خلافة عليّ تارت عليه عواصف الفتن والدسائس ، وانقسم المسلمون : طائفة معه (وسميت شيعة عليّ) وطائفة عليه (وسميت شيعة بني أمية) . ثم انتهى الأمر بقتله غيلة ، ثم بموت ابنه « الحسن » وقتل أشياخ بني أمية ابنه « الحسين » المطالب بالخلافة بعد أخيه ، فحُرم نسله من الخلافة . وكان ذلك سبباً في استفحال العداوة بين شيعة عليّ وشيعة أمية التي انضمت إليها جماعة المسلمين . فاضطرت شيعة عليّ أن تعمل في السر لإعادة الخلافة للعلويين ، وغلا أكثرهم حتى ادّعى أنها لم تصح وإن تصح لغير أهل البيت من أولاد عليّ ، فانكر عليهم بقية المسلمين ذلك ، ولا يزال بين الفريقين خلاف كبير في الرأي والمذهب إلى الآن واختص الفريق الأول باسم الشيعة ، والثاني بأهل السنة والجماعة . ولما عجز العلويون عن الاستحواذ على السلطة من طريق السياسة والقوة ، لقتل من خرج من أئمتهم ، التمسوها من طريق الدين ، فقالوا إن الله لا يترك خلقه بدون إمام حق ، واعتقدوا بأن ذلك الإمام هو المهدي المنتظر الذي يُبئد المغتصبين ويحيي مجد بيت رسول الله ، وعملوا على نشر هذه العقيدة بين الناس بكل الوسائل^(٢)

في سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) ذهب أحد دعاة الشيعة المدعو « أبا عبد الله الشيعي » منشأ الفاطميين

(١) وتسمى أيضاً الدولة العبيدية نسبة إلى رأسها عبيد الله المهدي ، والدولة المصرية ، ودولة المصريين ، ودولة العلويين المصرية

(٢) وكان من هؤلاء الشيعة طائفة تعرف بالقرامطة سأتى على بعض أخبارها فيما بعد

الى بلاد البربر (شمالي افريقية) داعياً لعبيد الله بن محمد من نسل جعفر الصادق ،
فنجح في دعوته وطرد الأمير الأغلبيّ الحاكم لتلك البلاد التابع للدولة العباسية
سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) . ثم أعلن أن الخليفة الحقيقي للمسلمين ورئيس دينهم المنتظر
هو إمامه « عبّيد الله » المذكور الملقب بالمهدى . ولما كان « عبّيد الله » يقول انه
من نسل السيدة « فاطمة » بنت رسول الله سُميت سلالة بالفاطميين ، وإن كان
بين المؤرخين خلاف كبير في صحة نسبه

عبيد الله

فحضر « عبّيد الله » الى بلاد المغرب وحكمها أربعة وعشرين عاماً (٢٩٧ -
٣٢٢ هـ : ٩١٠ - ٩٣٤ م) كان الأمر فيها كله بيده . وأخضع قبائل العرب والبربر ،
ودان له الحاكم المسلم الوالى على جزيرة « صقلية » وكان من أهم شواغله العمل
على نشر الدين الصحيح ، فلم يذر مجهوداً في سبيل ابادة البدع والإباحات التي ظهرت
إذ ذاك في تلك الجهات . ولما قويت شوكته وخشى أن ينازعه « أبو عبد الله » في
السلطة فتك به ، مع أنه هو الذى أتى به الى تلك البلاد . وكان من أكبر أمانيه
فتح مصر ، فأرسل لغزوها ثلاثة جيوش على مرات ، اثنين منها بقيادة ابنه « أبي القاسم »
فحال دون نجاحه عدة أمور ، منها مجاعة في المغرب سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) ووباء
فشا في أحد هذه الجيوش وانتقل منه بالعدوى بعد عودته الى أهل المغرب . وشغل
« عبّيد الله » بالأمور الداخلية باقى حياته

القائم

وفى سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٤ م) خلفه ابنه الأكبر « القائم بامر الله أبو القاسم محمد »
فبذل غاية همته في توسيع نطاق ملكه ، فأرسل أسطولاً أغار على شواطئ ايطاليا
وفرنسا والأندلس ، وأرسل جيشاً الى مصر هزمه الإخشيد . ثم صرف باقى أيامه في
التغلب على « أبي يزيد » الخارجي الذى ثار عليه وأراد أن ينزع الملك منه

وخلفه « المنصور اسماعيل » سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) ، فقهر ذلك الخارجي
سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ م) ، غير أنه لم يحاول الاستيلاء على مصر

المُتم

ثم تولى الخليفة الرابع ابنه « المعز لدين الله » أبو تميم معّد سنة ٣٤١ هـ (٩٥٣ م)

فكانت أيامه مبدأ عصر جديد في تاريخ الفاطميين . وهو يمتاز عن سالفه بتريبيه العالية وبلاغته النادرة ، وكانت له دراية عظيمة بكثير من اللغات : يتكلم اللغات البربرية والسودانية والإغريقية ، وقيل إنه تعلم اللغة الصقلية أيضاً . وكان يقول الشعر العربي . وكان سياسياً كبير الدهاء ، كريماً حريصاً على العدل شديد التمسك بالدين

اتبع « المعز » في سياسته خطة اسلافه ، فبدأ بتوطيد الأمور في بلاده حتى دانت له جميع رؤساء القبائل المغربية ، وخضعت له مراكش بأكملها حتى شواطئ المحيط الأتلنتي

ثم صرف همه لفتح مصر ، فحفر الآبار وبنى أماكن للاستراحة في الطريق غزو مصر الموصل إليها . وكانت مصر وقتئذ في اضطراب لحقها عقب وفاة « كافور » ، ولم يكن في وسع خلافة بغداد مساعدتها لاستغلالها بصد غارات « القرامطة » . فسير « المعز » لمزونها أكبر قواده « جوهَر الصَّقَلِي » (وهو رومي الأصل) في مائة ألف مقاتل ، وأعدهم بأفخر العدد ، ووضع تحت تصرف « جوهَر » ٢٤٠٠٠٠٠٠٠ دينار . فدخلوا مصر بلا ضرب ولا طعن ، وسلمت لهم « الاسكندرية » و « الفسطاط » سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) . ومن ذلك العهد ابتدأت دولة الفاطميين في مصر . وشرع « جوهَر » في الحال في توطيد الأمور في مصر . وكانت قد فشت بها مجاعة ، فأرسل « المعز » إليها سفناً محملة بالقمح ليخفف وطأتها على الناس ، وأمر بأن لا يبيع تجار القمح شيئاً إلا بإشراف الحكومة

وخط « جوهَر » في ليلة نزوله شمالي الفسطاط مدينة جديدة على نحو ميل من انشاء القاهرة النيل بين « الفسطاط » و « عين شمس » وسماها « القاهرة » . وموقعها الآن وسط مدينة القاهرة الحالية . ثم وضع على كل مصلحة من مصالح الحكومة موظفين ، أحدها مصرى والآخر مغربي ، ليكفل بذلك المساواة بين الناس ، وبنى بالقاهرة « الجامع الأزهر » العظيم سنة ٣٥٩ - ٣٦١ هـ (٩٧٠ - ٩٧٢ م) و « القصرين » تاريخ (٢٥)

استعداداً لقدم الخليفة « المعز » ، فزادت بذلك القاهرة جمالاً وبهاءً ، وفتحت
العامةُ مورد رزق للعمال العاطلين

ثم خضعت بلاد النوبة للخليفة الفاطمي ، فدفعت الجزية ، ودانت له مكة والمدينة ،
واعترف له الأمير الحمداني الوالي على شمالي الشام بالسيادة على « حلب » . وأرسل
« جوهر » أحد قواده للاستيلاء عنوة على « دمشق » ، وكان أهلها شديد الكراهة
للسيعة منذ خلافة معاوية ، فاستولى عليها ونشر عقيدة الشيعة فيها كرهاً

وبينا الفاطميون تزداد شوكتهم داخل مصر وخارجها إذ ألم بهم خطر كاد
يقضي عليهم سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) . وذلك ان زعيم « القرامطة » كان يأخذ
ضريبة من « دمشق » ، فمنعت منه باستيلاء الفاطمية على المدينة . فغضب لذلك ،
ولم يمنعه انفاقه مع الفاطمية في العقيدة من الإغارة على المدينة وإخراجها من يد
الفاطميين ، ثم سار بجيشه الى مصر فهزم أمام القاهرة وفر هارياً

عند ذلك رأى « المعز » انه قد حان وقت قدومه الى مصر ، فسار اليها في
موكب حافل ومعه بنوه واخوته وعشيرته وجثت أسلافه ، ووصل إلى القاهرة سالماً
سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) ، فأقنع النسابة من سلالة علي بصحة نسبه

وفي سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) زحف « القرامطة » على مصر ثانية ، وطاردوا
حيوش « المعز » الى داخل القاهرة ، فاستمال « المعز » أحد رؤساء خلفائهم من
البدو بالمال (وكان أكثره زائغاً) فانتصر بذلك على القرامطة وردهم على أعقابهم .
وفي سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) مات « المعز » فخلفه ابنه « العزيز »

زهراء عصر المعز وكان عهد « المعز » على قصره من أزهى عصور مصر ، وأزهرها ، وزادت فيه
ثروة البلاد زيادة كبيرة . وكانت القاهرة إذ ذاك تسمى « المدينة » ، وكانت في
الحقيقة عبارة عن قصرين عظيمين ولواحقهما : بهما من السكان ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ،
وكان بين القصرين ميدان عظيم يكفي لاستعراض ١٠٠,٠٠٠ جندي ، وكانت ثروة
الأسرة المالكة زمن المعز وبعده فوق ما يتصور ، فإن إحدى بناته ماتت وتركت

وراءها ما يعادل ٢٠٠٠٠٠ و٢٠٠٠ دينار، وأخرى تركت خمسة أكياس من الزمرد ومقادير وافرة من الأحجار الكريمة الأخرى علاوة على ٣٠٠٠ إناء فضي مطعم وقد بذل « المعز » غاية وسعه في استجلاب محبة الناس واحترامهم له بعدله وحسن إدراته والتفاته الى جميع دقائق شؤونهم . فكان يرأس بنفسه حفلة قطع الخليج ، وزاد من محبتهم له ارساله كسوة فاخرة للكعبة كل عام . ومنع جنده من البقاء في المدينة بعد الغروب اجتناباً لما عساه أن يحدث من الهياج ، وألقى نظام جباية الخراج بواسطة الملتزمين ، للخسارة التي كانت تلحق البلاد من وراء أرباحهم الباهظة ، وبذلك زاد الخراج بدون أن يضر بمصلحة المزارعين . وكان « المعز » شديد التسامح مع الأقباط ، وقد كثيراً من رجالهم مناصب راقية في الحكومة بهذه الطريقة ثبتت قدم المعاطمين في مصر ، وإن كانت ثقايلد الشيعة لم ترق يوماً ما في أعين السواد الأعظم من المصريين

العزير

ولى « العزير بالله أبو منصور نزار » (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ : ٩٧٥ - ٩٩٦ م) بعد وفاة أبيه ، فأظهر من الرفق ولين العريكة ما أرضى العباد . وكان العزير شهماً ، عظيم الجسم مولعاً بالصيد ماهراً فيه ، وكان قائداً شجاعاً وحاكماً مدبراً ، وكان مثل أبيه شديد التسامح مع المسيحيين ، وكثيراً ما كان يجلس للمناقشة معهم في الأمور الدينية . وجدد لهم كنيسة « أبي سيفين » خارج القسطنطينية بعد أن كانت مستترة في شكل مخزن للبضائع . ومن تسامحه في الدين أن كان أكبر وزرائه « يعقوب بن كلّس » و « عيسى بن نسطورس » ، وأولها اسرايلى أسلم والآخر مسيحي . وكان كل شئ في قصره فخماً ؛ من حاشية وموائد ودواب ، وقد قيل : « إن خيوله كانت تُكسى الزرد المطعم بالذهب ، وتغطي بأقمشة مرصعة بالجواهر ومعطرة بالعنبر » ، الى غير ذلك من أنواع الفخامة والترف . وبذل « العزير » الكثير من المال على إقامة المباني وحفر الترع وانشاء الجسور (الكبارى) ومرافئ السفن . وبدأ بناء الجامع الذي يعرف بجامع « الحاكم » (لأن الحاكم هو الذي أتمه) بجوار باب الفتوح . وهو أول من

سار في موكب الى الجامع في كل يوم جمعة من رمضان للصلاة بالناس ، وأول من استخدم من الخلفاء الفاطمية جند الترك . وسادت في عهده السكينة في البلاد ، فبرهن بذلك على مقدرته في الإدارة . أما مملكته فيكفي في وصفها أنها كانت تمتد من المحيط الأتلنتي الى شرقى الحجاز ، ومن اليمن الى أعلى الفرات

الحاكم

وخلفه ابنه « الحاكم بأمر الله أبو علي منصور » (٣٨٦ - ٤١١ هـ : ٩٩٦ - ١٠٢١ م) وعمره ١١ سنة ، فنشأ مطلق الأمر في آرائه وتصوراته . وتعلم علوم الشيعة فغلا فيها ، كما تعلم علوم الفلسفة والنجوم فكان له بها ولع شديد . وكان على طرفي الغلو في كل أعماله : فاذا عاقب أفرط وسفك الدماء وقتل الأعوان والأقارب والعلماء ، واذا أثاب أو أحب بذل ما لم يبذله ملك . وكانت أعماله متناقضة ، يفعل اليوم ما ينقضه غداً : استتدت به غيرته على النساء فمنعن من الخروج الى السوق والحمام والتطلع من نوافذ البيوت ، وقتل منهن في ذلك كثيراً ، وعاقب على شرب الخمر أتد العقاب ، ثم غلا وقلع جميع الكروم في أرض مصر ، واضطهد النصارى واليهود فهدم كنائسهم ، ثم أعادها . وانتهى به الأمر ان صار يخبر بالمغيبات من جواسيس كانت تطلعه على الأخبار ، فاغتر به قوم واعتقدوا أن روح الله حلت فيه ، وآلف رجل منهم كتاباً في ذلك ، فثار به الناس فخرج الى الشام ولا يزال أتباعه بها الى الآن . وكان مع سفاهته ونزقه شديد العناية بجمع الكتب ومعاودة العلم ، وأتم الجامع الحاكمي (بين باب الفتوح وباب النصر) . ولما استطار شره ركب حماره يوماً وخرج على عادته الى جبل المقطم بناحية حلوان للخلوة بنفسه ولرصد الكواكب فلم يعد ، ووجدوا بعد أيام ثيابه مضرجة بالدماء وحماره مجروحاً ، فعلموا أنه قد قتل ، وقيل ان اخته عملت علي قتله وذلك سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م)

الظاهر

فتولى مكانه ابنه « الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي » (٤١١ - ٤٢٧ هـ : ١٠٢١ - ١٠٣٦ م) ، وكان صبياً لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، فلم يكن بالرجل الذي يقدر على انتشال البلاد مما أصابها من جزاء أعمال والده . وكان في

أول أمره في قبضة عمته ، فدام ذلك أربع سنوات ، ثم غلبه على أمره بعد ذلك ثلاثة تسيوخ حكموا البلاد باسمه زمنًا . وفي سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٥ م) حصلت مجاعة كبيرة في البلاد . وكاد المصاب يكون أليماً لولا ارتفاع النيل في سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٧ م) ومن ذلك العهد أخذت قوة الخلفاء الفاطميين في الاضمحلال ، وتحوّلت جميع السلطة الى الوزراء . وكان هؤلاء كلمات خليفة اختاروا مكانه من أسرته من كان أكثرهم ليناً وأقرب الى التشكل في أيديهم حسب أهوائهم . وفي عهد « الظاهر » قامت على الحاكم الفاطمي لمدينة « قيسارية » عدة فتن في أنحاء الشام ، فتغلب عليها جميعاً وأصاف الى أملاك الفواطم « حلب » ومعظم شمالي الشام ثم خلفه ابنه « المستنصر بالله أبو تميم معد » (٤٢٧ - ٤٨٧ : ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م) المستنصر وعمره سبع سنين ، فأقام في الخلافة ستين سنة لم يقمها ملك غيره في الاسلام . وكان حكمه هذا على طوله عهد تدهور سريع في الدولة الفاطمية ، قُضى أوله في مشاحنات بين عدة وزراء قبضوا على زمام الأمور بالتوالي (٤٢٧ - ٤٤٢ : ١٠٣٦ - ١٠٥٠ م) وفي مدتهم خرجت ولايات شمالي افريقية من يد الفاطميين ورفضت التشيع وعادت سنية . وخرجت عليهم الولايات السورية ، وانقسمت الى ولايات عديدة وقعت غنيمة باردة للأتراك السلجوقيين سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) . ومن الغريب ان الدعوة الفاطمية في عهده بلغت أقصى العراق ، فخطب له ببغداد نحو أربعين خطبة وهرب خليفتها العباسي . ثم آلت في عهده أيضاً الى ما ذكرنا وكانت مصر ذاتها بالرغم من ذلك في رخاء وسعة ، وكان القصر الملكي بها من أنعم وأعظم ما عُرف في الاسلام ، يُعلم ذلك من قول سائح فارسي يصف القاهرة في ذلك العهد : « يضم القصر بين جدرانه ٣٠٠.٠٠٠ نسمة ، ويحرسه كل ليلة ألف حارس ما بين فارس وراجل . ويبلغ عدد المساكن نحو ٢٠٠.٠٠٠ بيت متقنة البناء ، يفصل بعضها عن بعض الحدائق والبساتين ، ويبلغ عدد الحوانيت ما يقرب من ذلك ، ويدخل متحصل الجميع للخليفة . ويمشي في موكب الخليفة يوم فتح الخليج نحو

١٨٠٠٠٠ من الجنود والأعوان من أجناس مختلفة ، وكثيراً ما كان يوجد بين

حرس الخليفة الأمراء وأولاد الملوك من أقاصى البلاد حتى من الهند »

ثم هدأت حالة البلاد نحو ثمانية أعوام بعد سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) ، وكان

القباض فيها على زمام الأمور وزير عامل يدعى « اليارورى » ، فقام باصلاحات

عديدة ، وآبأن الحال رجعت بعده الى ما كانت عليه من الفوضى والنزاع بين الوزراء

اضطراب البلاد وزادت الفتن بين الجند السوداى والأتراك حتى كان لذلك أسوأ أثر فى البلاد .

وبالع « ناصر الدولة » القائد العام للحينس فى الظلم والاستبداد حتى خرج عليه بنو

جلدته من الأتراك ، ففر من القاهرة ، ولكنه عاد اليها ومعه ٤٠٠٠٠ مقاتل من

العرب والبربر ، فأفسدوا الترع والجسور فى الوجه البحرى ومنعوا الزاد عن القاهرة

والفسطاط . وصادف ذلك خطأ كان قد بدأ بالبلاد سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م)

بسبب انخفاض النيل . فمنع هذا الهياج المزارعين من مزاولة أشغالهم ، فاستفحل

أمر القحط حتى استمر سبع سنوات (٤٥٧ - ٤٦٥ هـ : ١٠٦٥ - ١٠٧٢ م)

مات الناس فيها جوعاً وأكل بعضهم بعضاً ، وحدث من الولايات ما يضيق المقام

القحط الهائل

عن ذكره . ولم يقدر الخليفة على دفع الأذى عن نفسه ، إذ اضطره قواد حرسه

من الأتراك الى بيع تلك القناطير المقنطرة من النقائس التى ورثها عن آتائه وأجداده

مما لا يدخل تحت حصر ، ففسموا بعضها على أنفسهم وباعوا الآخر بأبخس الأثمان .

ولم يُجِدِ ذلك نفعاً بل انه تقي محاصراً بالقاهرة يتكبد آلام الفاقة حتى فتح

« ناصر الدولة » المدينة ، فوجد رسوله الخليفة فى قصره جالساً على حصير بال ولا

قوت له سوى رغيفين أجرتهما عليه كل يوم احدى المحسنات

دخل « ناصر الدولة » القاهرة سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) ، وأكن لم يلبث ان

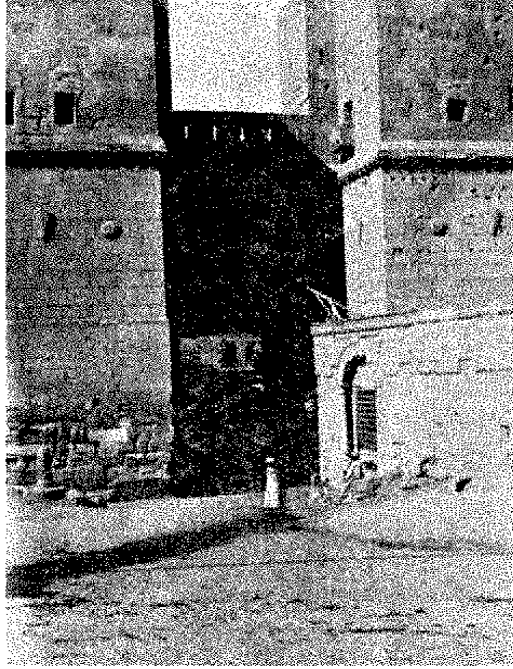
بدر الجمالى

حقد عليه مناظروه وقتلوه ، فاستراح منه الخليفة . ثم أرسل الى « بدر الجمالى »

الأزمى الأصل حاكم « عكّا » يسأله القدوم الى مصر لتنظيم أمورها واصلاح ما فسد

فيها . فقبل « بدر الجمالى » رجاءه ودخل مصر فى جيش من أهل الشام ، ففتك

بالتقوُّاد الأتراك . ثم انصرف الى اصلاح البلاد وإخضاع الخارجين من أهلها ، فساد



الأمن وازداد الخراج وعمَّ الخير

جميع الناس . وبنى حول المدينة

سوراً جديداً ، وتيّد فيه ثلاثة

أبواب ضخام لا تزال الى الآن

• موضع إعجاب الناظرين ، وهي

باب النصر وباب الفتوح (ستة

٤٨٥ : ١٠٨٧ م) وباب زويلة

(المتولى) (سنة ٥٤٨٤ : ١٠٩١ م) .

وأعجب الخليفة به كثيراً فلقبهُ بأير

الجيوش ومات في سنة واحدة مع

الخليفة (سنة ٥٤٨٧ : ١٠٩٤ م) (باب النصر) (رسم الشيخ محمد زكى)

بعد أن قصى في مصر عشرين عاماً امتلأت فيها البلاد هدواً وسلاماً

وتولى الخلافة من بعد « المستنصر » ستة وهم :

(١) « المستعلى » (٤٨٧ - ٤٩٥ : ١٠٩٤ - ١١٠١ م)

(٢) « الأمير » (٤٩٥ - ٥٢٤ : ١١٠١ - ١١٣١ م)

(٣) « الحافظ » (٥٢٤ - ٥٤٤ : ١١٣١ - ١١٤٩ م)

(٤) « الظافر » (٥٤٤ - ٥٤٩ : ١١٤٩ - ١١٥٤ م)

(٥) « الفائر » (٥٤٩ - ٥٥٥ : ١١٥٤ - ١١٦٠ م)

(٦) « العاضد » (٥٥٥ - ٥٦٧ : ١١٦٠ - ١١٧١ م)

وكلهم كانوا في شدة الضعف . وتلوا الخلافة جميعاً وهم أطفال ما عدا « الحافظ » ضعف الخلفاء فانه وليها وعمره ٥٧ سنة . وكان الوزراء في عهدهم هم الحكام الحقيقيين للبلاد ، ولذلك كان شأنهم في التاريخ أهم من شأن الخلفاء أنفسهم . ولما كان تاريخ مصر

في هذا العهد مند مجآكل الاندماج في تاريخ النزاع بين المسلمين والإفرنج في الاستيلاء على الشام والأراضى المقدسة ، مما أفضى الى تأسيس دولة اسلامية جديدة هي الدولة الأيوبية ، رأينا أن نورد كل ذلك في فصل واحد فنقول :

الفصل الخامس

تأسيس الإمارات الصليبية بالشام وعلاقتها بمصر

٤٨٩ - ٥٦٧ هـ : (١٠٩٦ - ١١٧١ م)

* مبدأ الحروب الصليبية *

بينما الدولة الفاطمية آخذة في التدهور في أيام المستنصر كانت الأخطار قد أحذقت أيضاً بالدولة العباسية . وذلك ان الأتراك السلجوقيين واصلوا زحفهم غرباً حتى استولوا على جميع العراق وأرمينية والشام حتى حدود الدولة الرومانية الشرقية ، ولم يبقوا للحليفة العباسى ببغداد سوى الزعامة الدينية . وكان هؤلاء الأتراك شديدي التمسك بالإسلام عظيمى الغيرة على مذهب أهل السنّة ، يعدّون التشيع بدعة يجب القضاء عليها ولذلك لم يألوا جهداً فى استئصال شأفة الفواطم مما بقى بأيديهم من الشام ، بل كادوا يفتزون مصر ذاتها . واستولت فرقة من هؤلاء الأتراك فى هذه النهضة على معظم آسيا الصغرى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) وكوّنوا لهم فيها دولة عظيمة سميت « مملكة الروم » لأنها كانت من قبل جزءاً من بلاد الروم

السلجوقيون

فساء ذلك قيصر الرومان ، وخاصة لقرب عاصمتهم « نيقية » من القسطنطينية

« يطلق هذا الاسم على عدة حروب شنها مسيحيو أوروبا على المسلمين لاخذ بيت المقدس من أيديهم . واستمرت نحو مائتى سنة من ٤٨٩ الى ٦٧٠ هـ (١٠٩٦ - ١٢٧٢ م) وسميت بالحروب الصليبية لان المسيحيين الذين قاموا بها اتخذوا الصليب شعاراً لهم ورسومه على ملابسهم وأعلامهم

قيصر
يستعرج البابا

حاضرة دولته، فلجأ الى البابا رئيس النصرانية يستصرخه على صد هؤلاء الأعداء، فلم يقصر هذا في اجابته، ورأى في ذلك فرصة لبسط نفوذه على ملوك أوروبا وامراتها اذا هم اشتركوا في حركة أساسها الدفاع عن النصرانية واخراج بيت المقدس الذى هو مهد المسيحية من يد المسلمين . ومن أهم الأسباب التى استفزت أهل أوروبا الى تحقيق هذه الأمنية ما كانوا يسمعون من حُجاجهم عند عودتهم من الإهانة التى يلاقونها من الأتراك، والضرائب الباهظة التى يؤدونها لهم، والهوان الذى فيه مسيحيو الشرق، وغير ذلك من الأقوال المبالغ فيها التى كان ينشرها رجال الدين فى أوروبا بسرعة لشدة تعصبهم وقضاء مآربهم

وأول من هاج القلوب وأخرج هذه الرغبات من القول الى العمل راهب متعصب بطرس الناسك فرنسى يدعى « بَطْرُس النَّاسِك » ، فطاف بأوروبا باتسارة البابا يستنفر القوم الى استنقاذ بيت المقدس من الأتراك . وكان بليغاً مؤثراً، فأثارهم وملاهم حماسة وحقداً على المسلمين . وعند ذلك جمع البابا أمراء أوروبا وحرصهم على اعلان حرب دينية على المسلمين، فلبى نداءه الألاف من الناس، وقد أخذت الحمية منهم كل مأخذ . وخرجت لذلك من أوروبا سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) جيوش عظيمة بها كثير من أمراء أوروبا وفرسانها وقوادها العظام . وكانت بغية الكثير منهم الغنى والمملك فى البلاد الذاهبين لفتحها

الحرب الصليبية
الاولى

صادف هذا الوقت فترة ضعف فى شوكة الأتراك جاءت بين النهضة التى ساقتهم الى تلك البلاد والنهضة الجديدة التى أعقبت غارة الصليبيين، وذلك لضعف امراتهم فى ذلك الحين . فانقضت جيوش الصليبيين على « مملكة الروم » فهزموا سلطانها وردوا الى قيصر الرومان ما يقرب من نصف آسيا الصغرى * . وعند ذلك نقل سلطان الروم السلجوقى مقر سلطنته الى « قُونِيَّة » . وترك الصليبيون قيصر الرومان يفصل نفسه مع سلطان الروم، ومضوا الى سورية . فوصلوا اليها بعد أن مات عدد عظيم منهم ومن دوابهم جوعاً وظمأ

* وكان اتفاقه معهم على أن ترد اليه جميع البلاد التى كانت فى قبضته قبل استيلاء الترك عليها

﴿ تأسيس الإمارات اللاتينية ﴾

وجد الصليبيون في فتح البلاد ، فاستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى والشام ، وكونوا لهم فيها إمارات سُميت بالإمارات الصليبية أو «الإمارات اللاتينية» نسبة الى الأجناس اللاتينية التي كان يتألف منها الصليبيون

الرها وانطاكية
وأول ما أُسس من هذه الإمارات إمارة «أداسا» (الرها) ^(١) بوادي الفرات سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) ثم «انطاكية» سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م)

وفي هذا الوقت كان المصريون قد انتزعوا «بيت المقدس» من يد الأتراك السلجوقيين . وذلك ان الوزير «الأفضل» بن «بدر الجمالي» لما شعر بقدوم الصليبيين أمل خيراً وظن أنه إن اتحد معهم فار على أعدائه الأتراك ، فسار في جيش الى فلسطين وأخذ بيت المقدس من السلجوقيين سنة ٤٩١ هـ (سبتمبر سنة ١٠٩٨ م) غير ان أعمال الصليبيين خيبت عليه ظنه ، فانهم ما كادوا يعلمون بخروج بيت المقدس من يد حُماته البواسل (السلجوقيين) حتى انقضوا عليه وافتحوه وغنموا منه غنائم لا تحصى ، وقتلوا من أهله نحو ٧٠٠٠٠ مسلم وأتوا معهم من المنكرات والفظائع الوحشية ما لا ينسأه التاريخ . ثم كونوا به إمارة لاتينية أخرى تُعرف بمملكة بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م)

بيت المقدس

ومن ذلك العهد بقي «الأفضل» في حروب مستمرة مع الصليبيين ، ووقعت بينهم عدة وقائع صغيرة انتهت بتراجع المصريين من الشام تدريجياً ، حتى لم يبق لهم فيها سوى «عسقلان» . وفي سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) أغار «بَلْدَوِين» (بَلْدَوِين) ^(٢) ملك بيت المقدس على مصر ذاتها ، فأحرق «الفرما» ووصل الى «تَيْس» ، ثم لحقه مرض فرجع ومات . ومن ذلك الوقت اكتفى الفاطميون باتباع خطة الدفاع عن مصر

الأفضل
والصليبيون

(١) موضعها الآن «أرقة»

(٢) ويكتب في التواريخ العربية أيضا «بَلْدَوِين»

وفي سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) أمر الخليفة الفاطمي بقتل « الأفضل » حسداً له وحباً في القبض على السلطة، ولكنه لم يستطع ادارة شؤون الدولة وحده ، فكرهه الناس وقتلوه سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م)

﴿ حالة الإمارات اللاتينية ﴾

لما حلّ الصليبيون بالشام لم يكوّنوا لهم مملكة واحدة تجمع كلمتهم ، بل أسس كل قائد منهم إمارة له انفصلت بمضى الزمان تمام الانفصال عن نظائرها . ومن أهم هذه الإمارات « الرها » و « انطاكية » و « بيت المقدس » و « طرابلس » . وكانت كل إمارة تسعى وراء مصلحتها الخاصة بدون مراعاة لمصلحة الجميع ، فجرّ ذلك عليهم الضعف بالتدرج

ونرى الصليبيون (على اختلافهم وبعدهم عن المدد من أوربا) ثابتي الأقدام ، اذ كان الترك أنفسهم لا يزالون متفرقين . ولكن في سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ولى « عماد الدين زنكي » من قبّل الدولة السلجوقية حاكماً لأعلى الفرات والموصل . وكان رجلاً قوياً ، فعمل على توحيد جميع ولايات سورية الإسلامية تحت كلمته ، ولم يلبث أن بسط سلطانه على « حلب » ، وكان أهلها قد استغاثوا به من الفرنج . وفي سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) فتح حصن « الأثارب » (بالقرب من حلب) بالرغم من مقاومة الصليبيين . وفي سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) حاول الاستيلاء على دمشق فلم يتيسر له لاستنجاد حاكمها بالصليبيين . غير انه استولى في هذه الجهة على « بعلبك » سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) وعين « أيوب بن شاذي » أحد قواده العظام حاكماً عليها . وفي سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) استولى على « أذاسا » (الرها) عنوة بعد قتال شديد ، فكان لذلك أسوأ وقع على الصليبيين . ولم يعيش « زنكي » طويلاً لاستتمام فتوحه ، فقتل غيلة بعد ذلك بعامين . وتقسّمت دولته بعد مماته

اقسم دولة « زنكي » بعد مماته ولدان له : أخذ أكبرهما « الموصل » وأخذ نور الدين

الأصغر (وهو نور الدين) ولاية « حلب » . فانتهمز مجير الدين « أبق بن محمد »
حاكم دمشق فرصة انقسام الدولة واسترد « بعلبك » ، والتحق « أيوب بن شاذى »
واليها بخدمته ، ورُقى بعد قليل الى مرتبة قائد جيوشه . ووجه « نور الدين » همته
للدفاع عن « أذاسا » ، وكان الفرنج قد حاولوا استرجاعها ، وخرجت لحمايتها من
أوربا قوة حربية جديدة تحت قيادة « كُنُزاد » امبراطور المانيا و « لويس السابع »
ملك فرنسا . فرأوا أن يبدءوا بالإغارة على « دمشق » (سنة ٥٤٣ هـ : ١١٤٨ م)
ولكنهم اختلفوا وعادوا الى بلادهم بالفشل (١١٤٩ م) . وتُعرف هذه الحملة
« بالحرب الصليبية الثانية » ، ولم يكن من ورائها سوى إضعاف آمال الصليبيين في
سورية . ولما أنس « نور الدين » من نفسه القوة ورأى أن « أيوب بن شاذى »
(صديق والده القديم) نافذ الكلمة في دمشق ، وأنه أخو « شيركوه » أحد قواده
الكبار ، عمل على فتحها . ولم يظهر جيشه أمام المدينة حتى سلمت له (سنة ٥٤٩ هـ :
١١٥٤ م) فدانت له بذلك سورية الاسلامية . ثم عين « نور الدين » « أيوب
ابن شاذى » حاكماً على مدينة « دمشق » ، وعين أخاه « شيركوه » حاكماً على
ولايتها (دون المدينة)

الحرب الصليبية
الثانية

✽ . مصر والصليبيون ✽

بينما كان « عماد الدين زنكى » وابنه « نور الدين » من بعده يجردان في الاستيلاء
على الشام كان الفاطمية في مصر يعوّلون على الاكتفاء باتباع خطة الدفاع . وكان
وزراؤهم قد جمعوا كل السلطة في أيديهم حتى أن « رضوان » وزير « الحافظ »
كثرة الفتن عصر تلب « بالملك » سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) وتبعه في ذلك جميع وزراء الفواطم من
بعده . فأصبح بذلك منصب الوزارة موضع تنافس كبار الرجال في مصر . وكانت
القاهرة دائماً تشهد مذابح ومعارك ، بتفاقم العداوة والبغضاء بينهم وحلول بعضهم
محل بعض . وكثرت هذه الويلات في عهد الظافر ، فاجترأ أحد الوزراء على

الخليفة وقتله، وأجلس مكانه ابنه الفائز، وهو طفل لا يتجاوز الخامسة من عمره
(٥٤٩ هـ : ١١٥٤ م)

طلائع بن رزيك وفي هذه السنة قبض على أزمّة الوزارة رجل قوى يدعى « الملك الصالح »
طلائع بن رزيك . وكانت مصر اذ ذاك في حاجة الى حازم مثله ، خصوصاً ان
« عسقلان » آخر أملاكها في سورية كانت قد سقطت في يد افرنج بيت المقدس
سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) . وبات كل من « نور الدين » و « صاحب بيت المقدس »
يتطلع للاستيلاء على مصر ذاتها ، ولم يمنع أحدهما من الاغارة عليها إلا خوفه من
الآخر . عند ذلك أرسل « الملك الصالح » وفداً الى « نور الدين » يطلب اليه محالفته
على الصليبيين ، فلم يجبه « نور الدين » الى طلبه إماً خوفاً منه واما كراهة للشيعة .
فاكتفى « الملك الصالح » بالدفاع عن مصر وصيانة حدودها الشمالية الشرقية من
تعدّي الأعداء . وكان عهده عهد هدو وسكينة في البلاد

شاور وضرغام ولما قتل سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) تولى الوزارة ابنه العادل رزيك بوصية
من أبيه ، ولكن ذلك لم يسكن عواصف الفتن ، فقام نزاع كبير بشأن تقلد الوزارة
أدى أخيراً الى انقراض الدولة الفاطمية . وذلك ان « شاور » بن مجير السعدى
الذى كان والياً على قوص ثار على العادل رزيك بن طلائع وقبض عليه وقتله
وأجلس نفسه وزيراً مكانه ، وبقي في الوزارة حتى ثار عليه « ضرغام » أحد القواد
المحبوبين ، ففرّ « شاور » الى دمشق ، وطالب من « نور الدين » مساعدته على
الرجوع الى منصبه، ووعدّه بدفع جزية سنوية اليه إن تمّ له ذلك، فتردد « نور الدين »
وبيناهما في أخذ وردّ قام خصام بين « ضرغام » و « أمّ لريك » (مرّى) ملك بيت
المقدس بشأن جزية سنوية كان قد اتفق من قبله من الوزراء على دفعها لأمريك .
فأغار « امريك » على مصر في الحال وهزم « ضرغاماً » في « بليس » . ثم رجع
بعد أن أرضاه « ضرغام » وحالفه خوفاً من شرّه واستعانته به على « شاور »
و « نور الدين » لو اتفقا . فعلم بذلك « نور الدين » وبادر بارسال جيش من الأتراك

بقيادة « أسد الدين شيركوه » ومعه صلاح الدين ابن أخيه، وصحبهم شاوَر. فدخلوا القاهرة بعد أن هزموا الجيوش المصرية ببلييس . وانفضّ الناس من حول «ضرغام» ، ثم قتلوه

ولم يتمّ الأمر لشاوَر حتى شرع في التخلي عن حلفائه وناصريه وتقض جميع شيركوه بمصر عهدوه معهم . فاتقلبوا عليه ، وأرسل «شيركوه» ابن أخيه «صلاح الدين» للاستيلاء على ببلييس . فاستغاث « شاوَر » بأمريك . ولما قدمت الجيوش الصليبية صدها « صلاح الدين » ببلييس نحو ثلاثة أشهر . ثم خاف « أمريك » على مملكته بالشام من غارات « نور الدين » فأراد العودة إليها . وكان « شيركوه » نفسه قد سئم البقاء بمصر ، فمقد هدنة وخرج بجيشه تاركاً مصر للجيوش المصرية وحلفائهم من الفرنج ولم تأت غارة « شيركوه » هذه بالفائدة المقصودة ، ولكنها مكنته من الوقوف على حالة البلاد ، فوصفها لنور الدين عند عودته ، وهوّن عليه أمرها . وطلب إليه أن يرسله في جيش آخر لفتحها ، فرضى بذلك نور الدين مع ما طبع عليه من الحرص والحيلة

خرج « شيركوه » الى مصر لثاني مرة سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) فأسرع « امريك » بالقيام وراءه لينجد حلفاءه المصريين . فوصل « شيركوه » الى النيل قبل خصمه ، فعبر النيل جنوبى القاهرة بنحو ٤٠٠ ميلاً . فلم يكذب يبره حتى وصل « مري » الى الشاطئ الشرقى . وسار الجيشان شمالاً أحدهما أمام الآخر حتى عسكر « مري » بالقرب من الفسطاط ، وعسكر « شيركوه » أمامه بالجيزة ، وبقي الجيشان يرقب بعضهما بعضاً . وعند ذلك رأى « مري » قبل أن يبدأ فى الدفاع عن مصر أن يعقد تحالفاً رسمياً مع الخليفة نفسه ، مخافة أن يززع «شاوَر» ويصبح تحالفه معه بلا جدوى . فسمح الخليفة بذلك وقابله بعينه مندوبان من قبل «مري» ، وتمّ التحالف على أن يدفع له الخليفة ٤٠٠٠٠٠٠ دينار نظير دفاعه عن مصر وصد الأعداء عنها . وعند ذلك عبر « مري » النيل بجيشه شمالى القاهرة ، فتراجع

« شيركوه » الى الصعيد ، فلحقه الصليبيون بجهة يقال لها « الببان » بالقرب من المنية ، فانتصر عليه السوريون أصحاب شيركوه (وهم ألفا فارس) انتصاراً باهراً سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) . وفي هذه الموقعة أبدى « صلاح الدين » كفاءة عظيمة .

صلاح الدين

ثم سار « شيركوه » الى الاسكندرية فدخلها من غير مقاومة ، وترك فيها « صلاح الدين » في نصف الجيش ، ورجع هو بالنصف الآخر لإتمام فتح الصعيد والاستيلاء على القاهرة والفسطاط . فسار الفرنج وحاصروا الاسكندرية براً وبحراً فدافع عنها « صلاح الدين » أحسن دفاع (وكان هذا أول عهده بالرياسة) ، وانتهى الأمر باتفاق « شيركوه » و « مري » على أن يخلى كل منهما البلاد ، وأن يتركوا مصر للمصريين

ولكن الصليبيين طمعوا في مصر ، فأبقوا لهم فيها شحنة احتلت أسوار القاهرة ولم يلبث « مري » ان رجع بجيش آخر (يريد غزو البلاد هذه المرة لا الدفاع عنها) ففتح بلبس سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) وذبح من أهلها ما لا يحصى ، فأثار بذلك حقد المصريين . وخاف « شاور » أن يأخذ « الفسطاط » فأمر أهلها بالجللاء عنها الى القاهرة ، وأحرقها سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) كي لا يأوى اليها الصليبيون . وكانت إذ ذاك مدينة عظيمة ، فبقيت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوماً . وما زالت آثار الحريق تشهد الآن في أطلال « الفسطاط » بالقرب من مصر القديمة الحالية . وجاء الفرنج فحاصروا القاهرة ، فأخذ « شاور » يعدم بالمال ويماطلهم . واستغاث « العاضد » أثناء ذلك « بنور الدين » ، فلم يتردد وأرسل لثالث مرة جيشاً كبيراً بقيادة « أسد الدين شيركوه » مقصده الحقيقي غزو مصر لا مساعدة المصريين ، وخرج معه « صلاح الدين » وهو كاره . فأرسل « مري » جيشاً لمنع انضمام « شيركوه » الى الجيوش المصرية ، ولكن « شيركوه » فاقه في حركاته وانضم الى جيش « شاور » سنة ٥٦٤ هـ (يناير سنة ١١٦٩ م) . فلم يقدم « مري » على القتال ، ورجع الى الشام بخفي حنين

عودة امريك الى مصر

احراق الفسطاط

شيركوه بمصر لثالث مرة

﴿ دخول « شيركوه » مصر وانقراض الدولة الفاطمية ﴾

فدخل « شيركوه » القاهرة ظافراً ورَّخَبَ به الناس ، وخلع عليه الخليفة حُلَّةً ، صلاح الدين في منصب الوزارة
أكراماً له واعترافاً بجميله . وتكثرت « شيركوه » والخليفة معانَى اخلاص « شاور » فقتلاه .
وعُيِّن « شيركوه » وزيراً ، فلم يتولَّ المنصب أكثر من شهرين ثم توفى . فخلفه في
الوزارة ابن أخيه « صلاح الدين » ولُقِّبَ بالملك « الناصر » ، فكفَّ يد « العاضد »
عن كل شئ . بالتدريج . ثم قطع الخطبة للعاضد وهو مريض ، ودعا للمستضى . العباسى
ثم مات العاضد سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وبموته انقضت الدولة الفاطمية . واستولى
« صلاح الدين » على مصر مع تابعيته للخليفة العباسى أولاً ولنور الدين ثانياً تابعة اسمية

﴿ مزايا الفاطميين وأسباب سقوط دولتهم ﴾

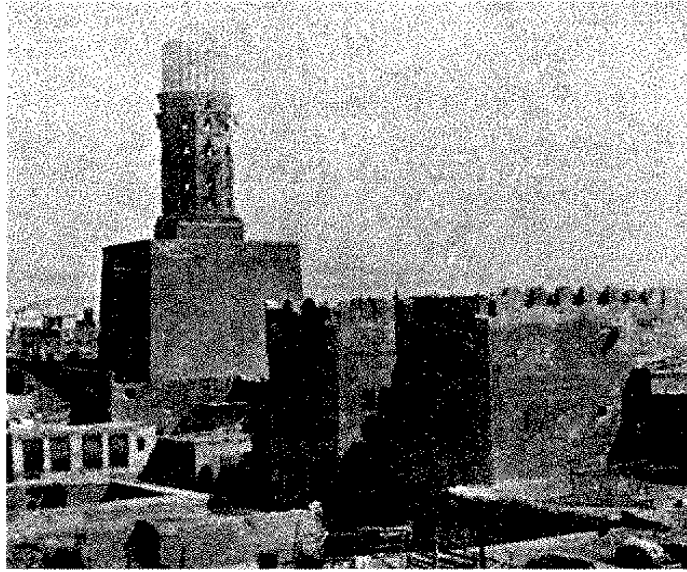
كانت دولة الفاطميين على تدهورها وابتداعها من أعظم دول الإسلام مُلْكاً
وأسدّها للعلم أزراً ، وأطولها على الناس عائدةً وفضلاً ، وأرقاها حضارةً وأدباً ، وأنبها
ترفاً وتمتّعاً

وهم الذين أحدثوا في مصر كثيراً من المواسم والأعياد والحفلات الوطنية ، كما
الاعباد
والحفلات عند
الفاطميين
أبتدعوا عادة الاحتفال بمولد أهل البيت وباحياء بعض الليالى المباركة ، وتبقى أغلب
هذه الاحتفالات الى وقتنا . وكانوا في تلك المواسم والمولد يادبون المآدب الجامعة
لجميع الطبقات كل على حسب مرتبته ، فتُقدم الموائد الكثيرة المزخرفة بالذهب
والفضة والعاج واللوان الأصباغ ، عليها من الأطعمة الفاخرة ، وأنواع الحلوى اللذيذة
ما لا يكاد يصدقه العقل كثرةً وتنوعاً ، وكثيراً ما تُقدم معها أصناف الكسوة الثمينة
والهدايا والدنانير والدرهم لأرباب الدولة والخواص ثم للخدم والجنود . فمن المواسم
موسم أول العام ، ويوم عاشوراء ، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد على بن
أبي طالب رضى الله عنه ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين رضى الله عنهما ، ومولد
تاريخ (٢٧)

سفن أسطولهم في أول دولتهم تعد بالآلاف وتقلع الى السفر من منظر المقس
(قرب جامع أولاد عنان الآن)

وجملة القول ان الدولة الفاطمية كانت ذات عظمة وتأثير صبغ مصر بصبغة
لا تزال بقيتها الى اليوم ، ولا عجب ان كانت تسمى « دولة المصريين » . ومن
آثارها الباقية مدينة القاهرة المعزية ، وباب زويلة وباب النصر والفتوح ، والجامع
الأزهر ، وجامع الحاكم ، والجامع الأحمر (بالنحاسين)
وأسبابُ زوال هذه الدولة ترجع الى عدة أمور منها :

(١) استهانة خلفائها بجماتها الأولين وأهل الدعوة والعصبة لها من العرب والبربر
واستعاضتهم عنهم بماليك الترك والديلم والسودان والأرمن والصقالبة ، مما أوقع
المنافسة بين جميع هذه الطوائف وأثار بينها الحروب الداخلية التي خربت البلاد ،
وأهلكت العباد ، وعطلت المرافق ، وأذلت الخلفاء في قصورهم . وهي الغلطة التي
غلطها العباسيون من قبلهم



(منارة جامع الحاكم وبرجا باب الفتوح)
رسم على اقتدى يوسف

(٢) تهاون أهل الحل والعقد في اختيار الخلفاء الأكفاء ، وإغضاؤهم على البيعة للأطفال بالخلافة ، مما سهّل على الوزراء والحجّاب وأمرأه الجيوش الاستبداد بالملك ، ونشأ من ذلك تحاسد أرباب الدولة وتزاحمهم على المناصب وحدوث المعارك بين أشياعهم

(٣) تغالى الفاطميين في التشيع وإحداث البدع فيه ، حتى اعتلت عقائدهم ، وخالفوا في بعضها جمهور المسلمين ، ففرت عنهم قلوب أهل السنّة ، بل كثير من معتدلة الشيعة ، وناذتهم الممالك المجاورة لهم وعمت على محو دولتهم ، واستقلت عنهم بعض أطراف بلادهم

(٤) مصادفة خروج الصليبيين لأيام ضعفهم ، واشتداد المجاعات والطواعين في أيامهم

(٥) غفلة وزراءهم ، باستماعة بعضهم بالصليبيين على بعض ، وتكالب الصليبيين عليهم ، مما أوجب تدخل نور الدين في أمر مصر وإرساله الجيوش مع أسد الدين شيركوه وابن أخيه يوسف صلاح الدين إليها ، فقضوا على البقية الباقية من استقلالهم

إفصل النافس

كلمة

في الحضارة العربية* بالشرق

قد أشرنا فيما سبق أن جاهلية العرب كان لها بعض حضارة وعلوم مناسبة لحالة بلادها ، ولا سيما ما كان منها في اليمن وعمان والبحرين وسقي الفرات والشام . ونشرح هنا حال حضارة العرب بعد اسلامها وبسط سلطانها على أنفس ممالك العالم القديم فنقول :

* نقصد بالعرب هنا كل من كان لغة العرب ودينها وآدابها تأثير في طبيعته الوجودية ولو لم يكن عربى الاصل . فمثلا حضارة الامة المصرية في عهد المماليك عربية الصبغة

﴿ الآداب ﴾

حفظت العرب بعد اسلامها لغتها وشعرها، حرصاً على بقاء قرآنها مفهوماً، وشرعها معلوماً، فوضعوا النحو والصرف ومثنى اللغة والبلاغة والعروض والقوافي، وجمعوا دواوين الشعر والخطابة واخبار جاهليتهم، وألّفوا فيها ألوف الألوف من الكتب والرسائل، فخدموا بذلك لغتهم وأدبها خدمة قلما تُعهد في غيرها. وقد مضى على انقراض قدمائهم وفصحائهم اكثر من اثني عشر قرناً، وما زالت لغتهم تُقرأ وتُكتب بين اكثر من مائتي الف الف نفس

﴿ علوم الشرائع والقوانين ﴾

ولا تقلُّ براعتهم في حفظ شريعتهم وعلوم قرآنهم عن حفظ لغتهم وأدبهم، بل ان عنايتهم بعلوم اللغة والأدب لم تكن إلا وسيلة الى حفظ الشريعة المستنبطة من القرآن الكريم والحديث الشريف. فوضعوا الأصول والأقيسة لأن يستنبطوا منها ألوف الألوف من الأحكام العامة والشخصية، مما ملأ دور الكتب في أنحاء العالم. على أن الباقي منها ليس إلا نقطة من بحر مما أحرقه الصليبيون والتار والاسبان ويعرف المطلع على الشريعة أن المسلمين لم يقفوا في فهم شريعتهم عند حد ما أُجمل في قرآنهم وسنة رسولهم، بل استعملوا ذكاهم العظيم واجتهادهم المطلق في استخراج ما يناسب الشعوب وأحوال الزمان والمكان، غير مُقتاتين على الدين، ولا خارجين عن أصوله^١

﴿ العلوم الإلهية والحكمية ﴾

استخرج العرب أصول دينهم واعتقادهم من الكتاب والسنة، ثم لما دخل في الإسلام كثير من أهل الملل والنحل المختلفة، اعتقاداً او خديعة، شاع في الإسلام

بعض الشبه ، خصوصاً بعد ما أطلق العباسيون الحرية للشعوب الأعجمية ، فجرّأهم ذلك على مناوأة الإسلام ومجادلة أهله بالأقيسة والبراهين العقلية . فأمر الخليفة المهدي العباسي بوضع الكتب في علم الكلام والجدل بطريقة الاستدلال بالأدلة العقلية ، فجرّ ذلك علماء المسلمين الى مناظرتهم من جنس كلامهم ، فترجموا كتب اليونان والفرس والهنود زمن الرشيد والمأمون والواثق ، ونقلوا المنطق والفلسفة ، ومزجوا مباحثها بمباحث علم الكلام والدين ، فنبت منهم أئمة أعلام أربوا على سقراط وأفلاطون وارسططاليس . واقترقوا في ذلك عدة فرق ، أشهرهم «المعتزلة» و «أهل السنة» والفلاسفة

فمن الأولى : أبو الهذيل وتامة بن أشرس والنظام والجاحظ والحبائي . ومن الثانية : أبو الحسن الأشعري والباقلاني والفخر الرازي والغزالي . ومن الثالثة : الكندي وأحمد بن الطيب وأبو زيد البغلي والفارابي وابن سينا

بعض فلاسفة
المسلمين
وأئمة دينهم

✽ العلوم الرياضية والفلكية ✽

أخذ العرب هذه العلوم عن الكتب اليونانية في العصر الذي لم يكن الروم سلائل الإغريق يعرفون منها إلا قليلاً . وكذلك أخذوا عن الهنود الأرقام الحسائية ، ولكنهم لم يقتصرُوا على القليل المنقول ، بل توسعوا في الحساب والهندسة وابتدعوا الجبر : اخترعه « محمد بن موسى الخوارزمي » ولم يُعرف منه قبلهم إلا مبادئ أخذت عن اليونان والهنود في استخراج القوى ، فوصل العرب فيه الى حل معادلات الدرجة الثالثة ، ووصلوا في القرن الرابع الى نهاية حساب المثلثات الكروية وعن العرب أخذت أوروبا هذه العلوم . ولا تزال أرقام حسابهم هي الأرقام العربية . وبقاء اسم الجبر عندهم بلفظه العربي شاهد أنه من عمل العرب

علم الجبر

أما الفلك والهيئة فلأعرب اليد الطولى في تهذيبهما وتحقيق مسائلهما ، فقد كان عصر المأمون والواثق وغيرهما من خلفاء بغداد والملوك التي اشتقت من الدولة العباسية

العلك والهيئة

عصور ازدهاء وعناية عظيمة بهما ، فنقلوا في زمن الرشيد والمأمون كتب اليونان من القسطنطينية، وحققوا مسائلها، وأصلحوا خطأها . فعملت الأرصاد والأزياج الفلكية ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وقدرُوا مِيلَ منطقة فلك البروج ، وقاسوا الدرجة الأرضية ، فمسحوا الكرة الأرضية وعرفوا مقدار قطرها . ومراصدهم في بغداد والقاهرة وغيرهما مشهورة

ونبع في هذه العلوم أبناء موسى بن تاسكر والفزاري والخوازمي والبلخي وبعض الرياضيين والفلكيين وأبو معشر الفلكي وثابت بن قرّة وابن يونس المصري، ثم البتّاني والبيروني والطوسي وابن الهيثم الرياضي وكثيرون

﴿ الجغرافيا والتاريخ ﴾

وبرع العرب في أكثر أنواع الجغرافيا . فكتب « المسالك والممالك » لايزال الجغرافيا فيها كثير مطبوعاً في أوروبا وغيرها، ومنها المكتبة الجغرافية الشهيرة . ووضعوا بأنفسهم جغرافية بلادهم، وترجموا عن بطليموس وغيره آراءهم، فصنعوا المصورات والكرات الأرضية على المعادن والورق والجص والثياب ، وكان لهم سياحات عظيمة في القارة القديمة ، وكفى دليلاً على اهتمام العرب بأحوال الأرض وسلوكها واستعمارها ان الأوربيين لما ذهبوا الى شرقي افريقية وجنوبيها الى جزائر الأوقيانوسية وجدوا العرب قد سبقوهم اليها من مئات السنين

ومن أشهر جغرافيي العرب ابن حوقل والإصطخري وابن خرداذبة والمسعودي وبعض الجغرافيين وأبو الفداء والشريف الإدريسي

ولم تنفخ أمة في التاريخ ما تفنن العرب، فكتبوا تاريخ الدول، وتاريخ الأنبياء ، التاريخ وتاريخ الأفراد من العلماء والشعراء والكتاب والوزراء والمفسرين والمحدثين ، وتاريخ البلدان فأفردوا لكل بلد تاريخاً . وكتبوا في آخر دولهم في فلسفة التاريخ ، فرسموا بذلك خطتها للأوربيين الذين برعوا فيها في الأزمنة الحديثة

بعض المؤرخين ومؤرخو العرب لا يمحسون كثرة ، من أشهرهم الطبري والمسنودي وابن الأثير
وابن خلكان وابن شاكر والخطيب البغدادي وابن خلدون

﴿ العلوم الطبيعية ﴾

الطبيعة

أما العلوم الطبيعية فلا تُجدد أعمالهم العظيمة فيها، فانهم فوق استظهارهم ما عرفوه
من اليونان زادوا فيه مسائل تستحق الذكر ، فكشفوا كثيراً من قوانين ثاقل
الأجسام ، وجعلوا لها الجداول الدقيقة، وقوانين الضوء ، كما عرفوا علم السوائل الثابتة
(الأيدروستاتيك) وأظهروا براعة فائقة في الأمور العملية الخاصة بالسوائل المتحركة
(الإيدروليك) ، مثل حفر الآبار وانشاء الخزانات وحفر الترع ووضع الأقنية والبرامخ
وما شاكل ذلك، مما لا تزال آثاره باقية في العراق والجزيرة والشام ومصر وشمالى
إفريقية والأندلس

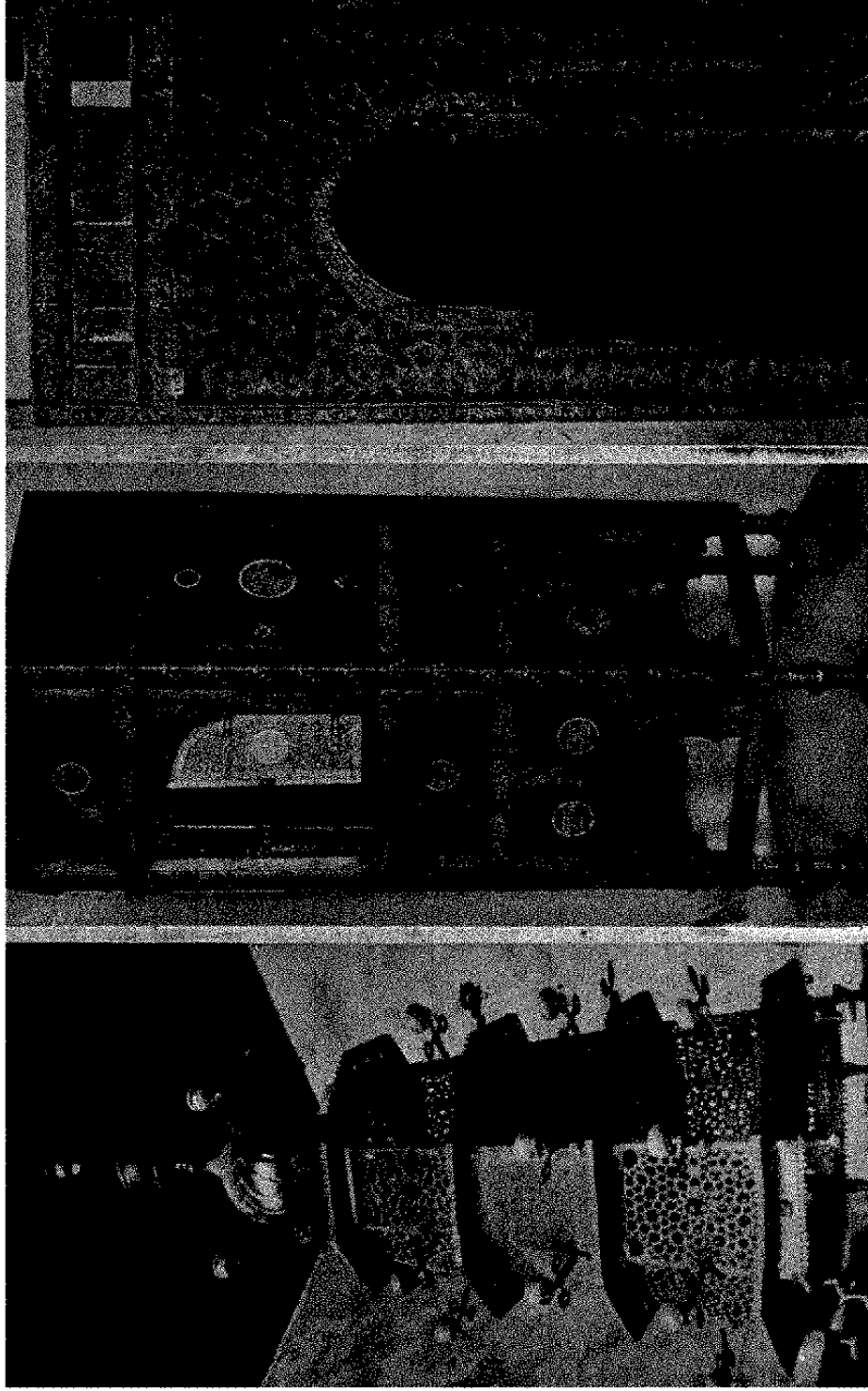
الكيمياء

ولا ينكر الاوريون أن علم الكيمياء الحقيقي هو من نتائج بحث العرب وتجاربهم .
ويسمى العرب الكيمياء الحديثة « صنعة جابر » (جابر بن حيان) إشارة الى أن
جابر هو الذى زاولها وكشف مفرداتها ومركبها . واكثرُ إطلاق لفظ « الكيمياء »
اليونانى عندهم كان على الكيمياء الكاذبة التى نقلوها عن اليونان ، وهى استخراج
الذهب من غير معدنه . وهم الكاتفون لزيت الزاج والماء الملكى وروح النشادر والزاج
الأخضر وحجر جهنم والراسب الأحمر والغول (الكحول) وملح البارود وملح الطرطير
والسليمانى والزرنبخ . وهم المهتمون لأكثر طرق الترشيح والتقطير والإذابة والتصعيد .
نعم أن الأوربيين كشفوا العناصر البسيطة ، واستنبطوا التقسيم والتحليل والتراكيب
باعتبار الذرات ، فسهلوا دراسة هذا العلم وطرق الاختراع ، إلا أن ذلك لا يمنعنا
من الاعتراف بأن الفضل للمقدم . ومن أشهر الكيمائيين جابر والكندى والرازى
أما الطب فأخذوه عن اليونان والهنود ، ثم زادوه بتجاربههم وبمخبرتهم . فهم أول
من استعمل أغلب الكاويات المعروفة الآن ، وأول من اشتغل بعلاج الجذام

الطب

أشهر صناعات المريية

(رسم تخطيطي)



مخرب من الخشب (من عصر التواطم)

كرسي من المعدن (من عصر المايك)

تور من المعدن (من عصر المايك)

والحصبة والجُدريّ ، وأول من كشف عملية قدح العين (الكتركتا) ، وأول من استعمل السكر في الأدوية بدل العسل ، وأول من وصف الأمراض الجلدية الدورية وصفاً علمياً . ولئن كانت الجراحة عندهم ليست في التقدم على ما هي عليه الآن لإحجامهم كثيراً عن تشريح الآدميين ، لقد وضعوا فيها كثيراً من آلات وحسنوا أخرى

ولم يكن علمهم بالنبات وخواصه وعلم العقاقير والصيدلة أقل منه بالكيمياء وقد أداهم نشاطهم وإقدامهم الى الوصول الى معظم الحيل (الميكانيكا) المستخدمة الآن في أصعب الصناعات . والعرب هم المخترعون للرقاص (البندول) وبيت الإبرة (البوصلة)

﴿ الصناعة ﴾

وللعرب فضل عظيم في تقدم الفنون الصناعية، فتفننوا في صناعة المعادن، وبرعوا في طلائها بالمينا ، وعالجوا عمل الصلب الصناعي . ولم تعرف الدنيا في تلك الأزمان سيوفاً تفوق سيوف دمشق ، ولا نحاسين فاقتوا نحاسي بغداد ، ولا صاغة خيراً من صاغة عمان ، ولا نَسَاجاً أحذق من نَسَاجِ تَنيس . ونجارتهم العربية الدقيقة لا تزال موضوع تنافس الأوربيين في اقتنائها . وشاهدها في الأبواب والمنابر والمشربات . وهم الذين أدخلوا صناعة الحرير والقطن والورق بأوروبا

﴿ التجارة ﴾

أما تقدمهم في التجارة فلا تزال آثاره شاخصة الى الآن ، فتجارة أواسط افريقية بيد العرب ، وكانت قوافلهم تصل في الشمال الى الأصقاع القطبية : يدل على ذلك ما وُجد من آثارهم ودنانيرهم فيها . وسفنهم تبلغ الصين واليابان والأوقيانوسية قبل كشف البخار بأكثر من ألف سنة

﴿ فن العمارة ﴾

نقل العرب أكثر فن العمارة من مباني البوزنطيين والفرس ، ولكنهم ما لبثوا أن غيَّروا فيها تغييراً امتازوا به كما امتازوا في غيره . فهم المخترعون للمقود ذات الزوايا . ومما اكتسب المباني العربية جمالاً ورونقاً القباب الشاحخة المزينة ، والمنارات الشاهقة ، والأبواب العالية مع صغر المدخل ، ثم رونق النقوش والزخرفة العربية ، مما سنذكره

﴿ الفنون الجميلة ﴾

الرسم والزخرفة لما كان من المحرَّم أو المكروه عند المسلمين تصوير الأحياء ، وجَّهوا عنايتهم الى إبداع رسوم جميلة خالية منها ، مكوَّنة من أشكال نباتية غير حقيقية متداخل بعضها في بعض ، وأشكال هندسية مركبة من خطوط مستقيمة ومنحنية . فكانت أبداع ما صنع الإنسان

ومن أهم ما استعانوا به في الزخرفة أيضاً تأليف الألوان وكتابة آي القرآن الحكيم بأنواع الخطوط الكوفية والثائبيَّة المختلفة الأشكال ، وصناعة الفُسَيْفِساء والخزف المطلى (القاتاني) والزجاج الملون ، والزخرفة بالجنس . ومبانيهم بالقاهرة والشام والأندلس ورسومهم في جلود الكتب أوضح دليل على نبغهم في ذلك

الموسيقى وبالرغم من تحريم دينهم العكوف على الملامى وعزف آلات الطرب لم يقصروا في إجادة فن الموسيقى إجادة جعلت الموسيقى العربية ضرباً مستقلاً متميزاً بمزايا جميلة . وآلاتهم الموسيقية على خشوتها وسداجتها تأتي من النغم بما هو جدير بالإعجاب ، بل منها ما لم يستطع الأوروبيون أن يحاكوه في تميم أجزاء النغم . وكان لعصر الرشيد والأمين والمأمون والواثق والمتوكل أثر عظيم في تقدم صناعة الغناء والموسيقى عندهم

وجملة القول ان علوم العرب وآدابهم وفنونهم هي الحلقة الموصلة بين حضارة

الأقدمين والحضارة الحديثة . ومما يلاحظ ان ما كانوا ينشرونه من التمدين في البلاد التي يفتتحونها يبقى وراءهم فيها زمناً طويلاً . وللعرب الفضل (بالذات أو الواسطة) في إحياء العلوم والفلسفة في أوروبا : أخذت ذلك عنهم شرقاً أثناء الحروب الصليبية وغرباً من الأندلس . وللعرب من كرم الأخلاق ، ورقة العواطف ، والرحمة ، والرفق بالحيوان ، نصيب لم يقلّ عن أنصبا الأمم الفاضلة

فصل السابع

الدولة الأيوبية

٥٦٧ - ٦٤٨ هـ (١١٧١ - ١٢٥٠ م)

(١) صلاح الدين الأيوبي

هو « الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب » مؤسس الدولة الأيوبية منشؤه الكردية . وُلد بتسكريت من بلاد الكرد سنة ٥٢٢ هـ (١١٣٧ - ٨ م) والتحق بخدمة « نور الدين » أسوةً بأبيه وعمه ، فبقى خاملاً الى الخامسة والعشرين من عمره ، شديد الميل الى الانزواء والعزلة . ثم رافق عمه « شيركوه » في الحملتين الأوليين الى مصر سنتي ٥٥٩ و ٥٦٢ هـ (١١٦٤ - ١١٦٧ م) فكان له في موقعة « البابين » وفي الدفاع عن الاسكندرية ما استهرأمره . ولم يرافقه في الحملة الثالثة إلا بعد احجام واعتذار (لعظيم ما لاقى في حصار الاسكندرية) مع ان هذه الخرجة كانت فاتحة لتأسيس ملكه وتكوين مجده . وربما لم يُقلِّده المصريون منصب الوزارة في مصر بعد عمه إلا لما كان يدلّ عليه ظاهره من سهولة اتقياده

ولى « صلاح الدين » وزارة مصر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) فقام بها احسن قيام . ولما رأى أنه صار وزيراً للخليفة الفاطمي الشيعي وعاملاً لنور الدين صاحب

تقلده وزارة
مصر وانقراض
الفاطميين

دمشق السني في وقت واحد، دعا لهما معاً في الخطبة، وبذلك مهد الطريق للقضاء على ما بقي من السلطان للخليفة الفاطمي. وعمل على استجلاب محبة أهل مصر ليشتد بهم ازره في الانسلاخ من « نور الدين »، وفي التغلب على الفاطميين وتكوين دولة مستقلة له بمصر، فعزل من المناصب الكبيرة من يخشاهم من المتشيعين للماض ونصب مكانهم اخوته ووالده. وثار عليه جند الخليفة السودان وكتبوا للصليبيين يستنصرونهم، فعجل صلاح الدين باخماد ثورتهم وطردهم الى الصعيد. ثم اغار الصليبيون على «دمياط» فأسرع الى صدهم، فرجعوا خائبين الى بيت المقدس. فكان ذلك ابتداء طور جديد في تاريخ النزاع بين مصر والفرنج، فبعد ان كانوا يوالون الفارات على مصر في عهد الفاطمية اصبحوا ولا حيلة لهم إلا الدفاع عن إمارة بيت المقدس. إذ قد أتبع صلاح الدين هذا الفوز باغارة على « فلسطين » غنم بها مغنم كثيرة، فأحبه الناس واحلوه في قلوبهم محل المدافع عن الدين الآخذ بناصره. ولذلك لم يجد صعوبة في حذف اسم الخليفة الفاطمي العاضد من الخطبة والدعاء للخليفة العباسي مكانه. وكان « العاضد » قد احتجب في قصره منذ قدوم صلاح الدين، وكان عند حذف اسمه في مرض الموت، فحُجس عنه الخبر حتى مات. ولم يأخذ صلاح الدين لنفسه شيئاً من خزائنه ونفائسه، بل ارسل جانباً منها الى « نور الدين » واهدى بعض خزانة الكتب الى وزيره « القاضي الفاضل »، وباع الباقي على ذمة بيت المال. ولم يتخذ لنفسه قصرًا من قصور الخلفاء، بل بقي بمنزله وانزل القصور رؤساء جيشه، فباتت تلك القصور الجميلة بعيدة عن عناية الملوك، وتسرب اليها الخراب حتى لم يبق لها اثر الآن

ويمكن تقسيم ما بقي من سيرة « صلاح الدين » الى ثلاثة اطوار:

(١) تحصينه لمصر وتوطيد ملكه فيها

لما أن تمَّ الأمر لصلاح الدين أخذ في تحصين مصر ليأمن شرَّ غارة الأعداء ،
فعمز على بناء سور عظيم يضمُّ الفسطاط والمعسكر والقطائع والقاهرة، وتشييد قلعة منيعة
على جبل المقطم تشرف على الجميع . فبدأ في بناء السور، ولكنه لم يتمَّ قط
وأرسل «صلاح الدين» عدة جيوش الى البلاد المجاورة لمصر، قيل : كان الغرض
منها حفظ مكان تتراجع اليه جيوشه اذا طاردها الصليبيون أو نور الدين نفسه
(وقد كان صلاح الدين لم يُبق له سوى سيادة اسمية فحنق عليه) . فوجَّه أحد هذه
الجيوش الى سواحل افريقية الشمالية، والثاني الى السودان ، والثالث الى بلاد العرب
حيث أخضع أخوه جميع بلاد اليمن وأسس بها دولة حكمت هنالك نحو خمس
وخمسين سنة

ثم تأمر جماعة الشيعة بمصر على الوثوب بصلاح الدين، فلم يفلحوا وفتك بزعمائهم .
وكان الفرنج قد عزموا على مساعدة الثائرين ، فهاجموا الاسكندرية باسطول من
« صقلية » أواخر سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) فرُدوا عنها بالفشل

وفي هذه السنة مات « نور الدين » ، فخلا لصلاح الدين الجو، وعمد الى بسط
نفوذه على جميع الممالك الإسلامية وتكوين دولة واحدة عظيمة منها ، حتى اذا
توحَّدت كلمة المسلمين عمل الى استئصال شأفة الصليبيين من الشرق

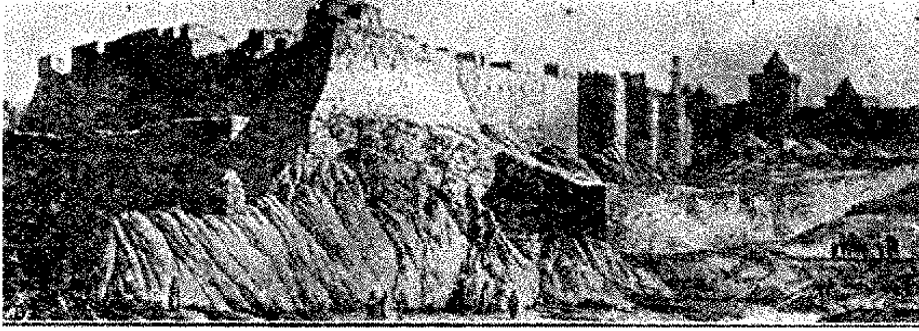
(٢) توسيع نطاق دولته

ترك « نور الدين » ملكه لطفل صغير، فاستحوذ على السلطة نفر من الأمراء .
فاتهز صلاح الدين هذه الفرصة وذهب الى « دمشق » وملكها باسم ابن سيده
نور الدين . ثم سار الى « حلب » فأقفلت ابوابها في وجهه ، وأرسل صاحب الموصل
(ابن أخي نور الدين) جيشاً لينضم الى جيش حلب، فسار الجميع للقاء صلاح الدين،
نطاق الدولة

فانتصر عليهم انتصاراً باهراً بجمعة «فُرُون حَمَاة» سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٥ م). وانتصر في موقعة اخرى في السنة التالية، فاعترف له بالسيادة على جميع أنحاء الشام من مصر الى قرب الفرات

قلعة الجبل

ثم قضى «صلاح الدين» ست سنين (من ١١٧٧ الى ١١٨٢ م) في ضبط نظام املاكه ومواصلة تحصين القاهرة. فبدأ في سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) ببناء «قلعة الجبل» على سفح المقطم، وبنى فيها قصراً لسكنه، وحفر فيها بئراً عميقة تعرف الآن ببئر يوسف او «الخلزون». ولم يتمّ بناء القاعة إلا بعد موته. وقد عدل بناؤها وزيد عليه بعد ايامه مراراً، حتى أخذت تسكها الخالي في عهد المرحوم «محمد على باشا» رأس الأسرة المحمدية العلوية الكريمة، ولا يزال جزء من بناء صلاح الدين باقياً بها الى الآن



(القلعة قبل عهد محمد على باشا)

وبذل صلاح الدين عنايته في هذه المدة ايضاً باصلاح أعمال الري ونموها بمصر، واكثر من انشاء المدارس لنشر مذهب الامام الشافعي ومحو مذهب الشيعة من مصر. ولم يمكث اثناء ذلك عن الحرب جملة، بل حدثت بينه وبين الفرنج بعض مناوات رجعت منها الى القاهرة بكثير من الأسرى سخرهم في بناء القاعة وما زال يعمل على توحيد كلمة المسلمين وبسط نفوذه عليهم، حتى لم تأت

وبذلك تم له ما أراد ، وصار أمراء المسلمين من كل جانب رهن اشارته ، يمدونه بالخيول والرّجل اذا قام بدعوتهم الى حرب دينية لسحق الصليبيين وإعلاء كلمة الإسلام

(٣) صلاح الدين والصليبيون .

كانت بين صلاح الدين والصليبيين هدنة في هذه المدة ، ولكنها كانت هدنة ظاهرة : فكان كلا الفريقين في أثنائها ساهراً على الاستعداد للحرب للأخذ بناصر دينه . وقامت بأوربا نهضة جديدة لتأييد المسيحيين بالشام ، ولم يبق إلا ظهور شرارة صغيرة تلتهم بها نيران حرب دينية عظيمة . فأوقد هذه الشرارة القيم على ملك بيت المقدس (وكان ملكها طفلاً صغيراً) بتعرضه لإحدى قوافل صلاح الدين وسلبها ، فنشبت الحرب ودامت خمس سنوات (٥٨٣ - ٥٨٨ : ١١٨٧ - ١١٩٢ م) واكتسح صلاح الدين في أول الأمر كل شيء ، أمامه : فقهر جيوش إمارة بيت المقدس في موقعة فاصلة بجهة « حطّين » لم يُنكب الصايبيون منذ خرجوا الى الشام بمثلاً . ثم توغل الى فلسطين ، ففتح « عسقلان » وكثيراً من الحصون والمعازل وفادى أسراها بالمال ومبادلة الرجال ، فانهزمت طائفة منهم الى « بيت المقدس » وطائفة الى « صور » . ورأى صلاح الدين أن الفرصة قد حانت لاستنقاذ بيت المقدس ، فنزل عليه بجيوشه في منتصف رجب (سنة ٥٨٣ هـ : ١١٨٧ م) ، وكان محصناً تحصيناً منيعاً ، فدافع الفرنج مستبسلين ، وجدّ المسلمون في الزحف فاجتازوا الخنادق وتقبوا الأسوار ، ولما رأى الفرنج أنهم أترفوا على الهلاك اتفقوا مع صلاح الدين أن يسلموا اليه المدينة ويخرجوا منها بأموالهم وأولادهم وأثقالهم نظير فدية بضعة دنانير على كل انسان ، فقبل ذلك صلاح الدين ، ولم يعاملهم بمثل ما عاملوا به المسلمون عند ما فتحوه زمن الفاطمية من الفظائع . وفي سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) هادن صاحب « انطاكية » وفتح « الكرك » وجميع مدن الساحل شمالي « صور » .

وفي سنة ١١٨٩ م لم يبقَ بأيدي الصليبيين سوى « صور » و « بلقرت * ». وقضت مكارم صلاح الدين أن يسمح لحامية البلاد التي فتحها بالتراجع الى « صور » بعد أن أقسموا له أن لا يجردوا عليه سيفاً ، ولكنهم تجمعوا هناك وكونوا قوة جديدة ، ثم حملوا عليه

فبدوا بحصار « عكا » ، وساق صلاح الدين عليهم جيشاً ليحاصرهم سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) . وبقى الحال كذلك سنة ونصفاً الى أن أتى « قلب » ملك فرنسا و « ريكارد قلب الأسد » ملك الانجليز بمدد كبير للصليبيين ، فسلمت لهم المدينة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) . ثم وقع الخصام بين الصليبيين انفسهم ، فتسرب اليهم الفشل ، وعاد « قلب » الى بلاده . وسار « ريكارد » الى « بيت المقدس » فلم يستطع الاستيلاء عليها . وكان الفريقان قد سئما القتل وشرعا يتخبران في الصلح . وفي سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) أصاب « ريكارد » مرض ، وحدثت في بلاده أمور تستدعي عودته ، فعقد صلحاً بجهة « الرملة » مع صلاح الدين على أن يبقى الساحل بين « صور » و « يافا » بأيدي الصليبيين ، وان يسمح للمسيحيين بحج البيت المقدس بلا ضريبة

هذه هي نتيجة الحرب التي قام بها صلاح الدين على الصليبيين مدة خمس سنوات : فبعد ان كان المسلمون لا يملكون قبل موقعة « حطين » في سنة (١١٨٧ م) شبراً من الأرض غرب نهر « الأردن » أصبحوا بعد معاهدة « الرملة » سنة (١١٩٢) يملكون جميع البلاد عدا ساحل ضيق يمتد بين صور و يافا . رأى صلاح الدين كل ذلك ، ورأى انه قد وُحِدَ كلمة المسلمين ما بين صحراء لوية وجبال الكرديستان ، ونصر بهم الاسلام ، فطاب خاطره وتم له ما اراد . وكانت قد انهكت صحته الحروب المستمرة ، فأصيب بحمى وتوفي بدمشق سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م)

ويعتبر صلاح الدين من اعظم رجال التاريخ ، فقد كان قائداً عظيماً وسائساً

تأريخ حروب
صلاح الدين

صفات
صلاح الدين

* وتسمى في كتب العرب « شقيف أرنون » . كانت قلعة بين دمشق والساحل

محنكاً، جمع بين الشجاعة والمروءة وعلو الهمة ، وبين الشدة والتواضع والثقوى والزهد والورع والعدل والرحمة . وكان الفرنج يُعجبون بأخلاقه ويعدونه مثال الشهامة الشرقية وفي مقدمتهم في ذلك « ريكارد » ملك الانجليز الملقب بقلب الأسد ، فانه وان لم يقابله قط كان يعجب بشهامته كل الإعجاب

وقد ساعد صلاح الدين في ادارة شؤون دولته الشاسعة جماعة من النبغاء ليسوا بالقليل ، منهم والده (وهو صاحب الفضل في تمكين العلاقة بينه وبين نور الدين) ، ومنهم أخوه « العادل » ووزيره « بهاء الدين قراقوش » ، ووزيره « القاضي الفاضل » عبد الرحيم البيساني صاحب اليد الطولى في الأدب والحكمة ، ثم « عماد الدين » الكاتب وكانت له شهرة فائقة في البلاغة

(ب) خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين

لما توفى صلاح الدين تولى أولاده حكم الثلاثة الأعمال العظيمة من دولته وهي دمشق وحلب ومصر . وتولى الأعمال الأخرى العادل وبنو اخوته

فخلفه في مصر ابنه السلطان الملك « العزيز » عماد الدين ، إلا أنه حدثت بينه وبين أخيه « الأفضل » ملك دمشق منازعات وحروب انتهت بتفنى الأفضل عن دمشق ، وتولاها « العادل » سيف الدين أخو صلاح الدين الذي كان وقتئذ حاكماً على الجزيرة . وكان « العادل » من أكثر الناس سياسة وحزمًا ، فبعد أن قبض على أزمئة الأمور بدمشق أسرع لتنظيم شؤون أملاكه بالجزيرة ، فدانت له جميع البلاد السورية والجزرية . ثم مات « العزيز » سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، فحضر « العادل » الى مصر وتغلب على ابني صلاح الدين ، وعزل « المنصور » بن العزيز من مصر (وكان طفلاً صغيراً) وتولى هو ملكها . ودانت له معظم دولة صلاح الدين (٥٩٦ هـ : ١٢٠٠ م) ، وصارت مصر صاحبة الشأن الأكبر في هذه الدولة . ووقع بمصر في زمنه (٥٩٧ - ٥٩٩ هـ : ١٢٠١ - ٢ م) قحط شديد ثم وباء عظيم تاريخ (٢٩)

أضعفا شأن المملكة . إلا أن (العادل) لم يفتر عن توطيد دعائم ملكه ، وجمع كلمة المسلمين وجعلهم يداً واحدة ليستعين بهم على استئصال شأفة الصليبيين وكان الصليبيون أثناء اشتغال العادل بتثبيت ملكه بالشام قد جاءتهم امداد من ألمانيا سنة ٥٩٣ هـ : ١١٩٧ م ، وأرادوا أن ينتهزوا فرصة تفرق المسلمين للاستيلاء على بيت المقدس ، فانتصروا على العادل وأخذوا منه « بيروت » . ولكنهم تفرقوا بعد ذلك ، وعقد العادل معهم صلحاً بالانزول لهم عن « يافا » و « الرملة » اعترافاً منه أن الصلح خير له لتعزيز قوته

وفي سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) منح « العادل » أهل مدينة « البندقيّة » زوايا تجارية بالنيل وبالإسكندرية نظير تعهدهم بمساعدته على صدّ غارات الصليبيين على مصر

وفي سنة ٦١٤ هـ (١٢١٨ م) نهض الصليبيون نهضة جديدة ، وبدا لهم أن يحولوا ربحي الحرب الى مصر قلب دولة المسلمين ، فقصدوا « دمياط » وكانت حصينة ، فملكوها بعد قتال شديد . وكان العادل في الشام فمات في رجوعه كمداً عليها . وكان العادل من أنبل الناس واكبرهم حرصاً على الاسلام : خدم صلاح الدين باخلاص نحو ٢٥ سنة (من ١١٦٨ الى ١١٩٣ م) وجمع كلمة دولته بعد موته ، فكان أكبر واقف بعده في وجه الصليبيين

ثم تولى السلطان الملك « الكامل » (٦١٥ - ٦٣٥ هـ : ١٢١٨ - ١٢٣٨ م) ، فعمل على طرد الصليبيين من دمياط : قاتلهم عليها ليلاً ونهاراً ، إلا أنه وصلت اليهم امداد جديدة كثيرة ، فعرض عليهم الصلح على ان يرد اليهم إمارة بيت المقدس كما كانت قبل الحرب التي شنّها عليهم صلاح الدين في سنة ١١٨٧ م نظير جلائهم عن دمياط ، فأغرام البابا برفض هذا العطاء الجميل ، فكان نصيبهم الفشل بعد ذلك ، فإن اختلافهم وجههم حال البلاد الجغرافية حالاً دون تقدمهم . ولما شرعوا في الزحف نحو القاهرة في شهر يولييه سنة ١٢٢١ م اعترضتهم الترع من كل جانب

واضطروا الى محاربة المسلمين بمكان كان قد حصنه الكامل بالقرب من المنصورة وجمع اليه الجيوش والأمراء من جميع أنحاء الدولة الأيوبية . ولما علا النيل هدم المسلمون السدود، فانطلقت المياه على موقع الأعداء وأحاطت بهم من جميع الجهات، ولم يبق لهم منفذ سوى ممر ضيق يفرون منه الى دمياط . وبينما هم يهيمون بالفرار ليلاً اتقض عليهم المسلمون من كل جانب وأخذوا يحصدونهم حصداً . ثم أمر الكامل أن يكفوا عنهم ، وأطلق سراحهم بعد ان عاهدوه على أن يخلوا دمياط ويحلوا عن الديار المصرية، وان لا يجردوا على المسلمين شيئاً مدة ثمانى سنوات . فحلوا عن مصر فى شهر سبتمبر سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) بعد أن قضوا فيها أربعين هلالاً

وفى سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) خرج الإمبراطور « فرديريك الثانى » من أوربا فى بضع مائة من الفرسان يطالب بملك امارة بيت المقدس، وكان على وشك الخروج مع جيوش أوربية ، إلا أنه أغضب البابا وغيره من أولى الشأن من المسيحيين لاستقلاله عنهم فى الرأى ، فتركوه يخرج وحده لجهاد المسلمين . وكان « فرديريك » قليل التعصب الدينى، يميل الى المسلمين، حتى ظن البابا انه دخل فى دينهم . وكان « الكامل » قد خشى ازدياد قوة أخيه « المعظم » صاحب دمشق، ففقد مخالفة مع « فرديريك » على أن ينزل له عن بيت المقدس وعن طرق حجاجه المؤدية الى عكا ويافا ، وان يطلق سراح الأسرى من الفرنج ، ويقوم فرديريك نظير ذلك بمساعدته على رد كل مهاجم ولو كان مسيحياً، وأن يمنع المدد عن أمراء الصليبيين الآخرين فى الشام مدة عشر سنين ونصف . فأخذ « فرديريك » بيت المقدس بلا ضرب ولا قتال، فعد المسلمون ذلك من أشنع غلطات الكامل، فان طمعه فى بلاد إخوته وأقاربه وشفاء غل صدره منهم حمله على النزول عن بيت المقدس، وهو بيت القصيد من كل هذه الحروب الشعواء التى أريقت فيها دماء مئات الألوف من الطائفتين . وبمهادنة الكامل لفرديريك وحّد قواه لانتزاع أملاك أقاربه حتى تمت له السيادة على جميعها، ولم يبق له منازع من آل أيوب . وعاش نحو تسع سنين لم يجارب

فيها أحدًا من الصليبيين . وآخر عهده بالحروب انه خرج سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) للاستيلاء على دمشق فتم له النصر ، إلا أنه مات بعد الواقعة بقليل على إثر تعرّضه للبرد في ميدان القتال . فعاد النزاع بين ملوك بني أيوب الى أشد ما كان عليه في اقتسام البلاد

• وكان « الكامل » يحسن الإدارة والسياسة ، ولا يفتر عن العمل . وتقدمت مصر في عهده كثيراً بفضل ما قام به من الأعمال لإصلاح الري وتحسين حالة الزراعة . وأتم « الكامل » بناء قلعة صلاح الدين ، وأسس كثيراً من المعاهد العلمية . وكان كمعظم أفراد أسرته يحب العلم والعلماء ويجلس اليهم في ليالي الجمعة لسماع حديثهم والمناقشة معهم

العادل خلفه ابنه السلطان الملك « العادل » سيف الدين أبو بكر الثاني ، فاشتغل باللهو عن التدبير ، فأنكر الأمراء ذلك وخلصوه بعد سنتين

العالم وولى أخوه السلطان « الملك الصالح » أيوب سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) فكان من خيرة السلاطين : دبر المملكة أحسن تدبير ، وأخذ الفتن . وبني قلعة الروضة (بجزيرة الروضة) ، ونزلها وحشد فيها المماليك من الترك وبالغ في شرائهم (فكان ذلك من أكبر غلطاته ، فانهم سلبوا الملك من أولاده كما سلبوه من أولاد المعتصم العباسي) . وكان عمه « الصالح اسماعيل » من أكبر أعدائه ، فانه استولى على دمشق واتحد مع الصليبيين ونزل لهم عن بعض المواقع ، فاستعان « الصالح أيوب » بقبائل الخوارزمية وهزم الأعداء ، وأعاد « بيت المقدس » للمسلمين سنة ٦٤٢ هـ : سبتمبر سنة ١٢٤٤ م . فبقي بعد ملكاً لهم ، واسترد أيضاً دمشق سنة ٦٤٣ هـ : ١٢٤٥ م وعسقلان سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) ، ورجعت دولته الى ما كانت عليه في عهد جده . وفي آخر مدته (٦٤٧ هـ : ١٢٤٩ م) نزل الصليبيون في أكثر من مائة الف الى « دمياط » فلكوها بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وكان من أبطال الصليبيين . فرابط الملك الصالح بالمنصورة ومرض مرض الموت ، فأرسلت سُرّيته

السيدة أم خليل « شجرة الدر » الى ولده « توران شاه » بالجزيرة تستدعيه .
ومات الصالح فأخفت السيدة موته وأصدرت الأوامر بما يشبه توقيعه ، وجمعت قواد
الجيش وأرباب الدولة وزعمت أن السلطان يأمرهم بالبيعة لولده توران شاه ففعلوا
ووقع الفرنج في نفس الخطأ الذي وقعوا فيه في عهد «الكامل» ، فنهزم بدل أن يأتوا
مصر من طريق صحراء سيناء مارين بالفرما ، شأن الفاتحين قبلهم ، أتوها من طريق
دمياط والمنصورة حيث تعترضهم الترغ والخلجان ، فزحفوا على المنصورة سنة ٥٦٤٨ هـ :

١٢٥٠ م وكادوا يملكونها ، فحضر « توران شاه » وقت اشتباك الحرب ، فقاتل
الفرنج ودارت عساكره حولهم ، فاستولى على أكثر مراكزهم وأخذتهم السيوف من
كل جانب وقتل منهم نحو ٣٠ ألفاً ، وغرق كثير منهم في النيل ، وأسر ملكهم
« لويس التاسع » وسجن في دار ابن لقمان (ولا تزال باقية بالمنصورة الى الآن) ،
ثم فدى نفسه وبقيته أهله وعساكره بمبلغ ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك وخرج من دمياط
وكانت واقعة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) ، وتعتبر من الوقائع الفاصلة بين
المسلمين والصليبيين . وكان الملك الصالح من أعظم بني أيوب ملكاً وأحزمهم أمراً
واكثرهم عمارة وأشدهم استقلالاً بالدولة

ولما ولي السلطان الملك المعظم « توران شاه » وفرغ من الصليبيين طالب السيدة
بمال أبيه وتهنئتها وتهنئته المماليك ، فقتلوه بعد سبعة أيام من ملكه ، وولوا مكانه
الملكة أم خليل « شجرة الدر » . ولم يل المسلمين امرأة قبلها ، فأقامت في المملكة
ثلاثة أشهر وعزلت نفسها . واتفق المماليك أن يولوا « الأشرف موسى » من بيت
الملك ، فملكوه وعمره ٨ سنوات ، وجعلوا « عز الدين أيبك التركماني » أحد مماليك
الصالح قيماً عليه ، وتزوج شجرة الدر ، ولم يلبث أن خلع الأشرف واستبدت بالملك ،
وانتهت دولة آل أيوب من مصر . وبقيت دول منهم بالشام دخلوا بعد في طاعة
المماليك مع نوع استقلال

﴿ مزايا الدولة الأيوبية ﴾

وأسباب سقوطها

كانت الدولة الأيوبية دولة فتح وجهاد من مبدئها الى منتهاها . فمؤسسها صلاح الدين وآخرها توران شاه كُلتا حياتهما بالانتصار الباهر على الصليبيين ، وكان بينهما ملوك لم يقصروا عنهما في رد غاراتهم ، فكانت هذه الدولة وجدت لتكون عقبة في سبيل تغلب أوروبا على الشرق ، أو لتأخير ذلك أكثر من ستمائة سنة وعوده بشكل آخر ، وكأنها كانت برفقها وقلة تعصبها ووفائها استاذاً ناصحاً أرتد أخلاف الصليبيين الى حسن معاملة البشر والتظاهر بالتسامح الديني ونبذ التعصب الوحشي الذميمة وتقض العهود والغدر القبيح . ولولا وقوف الدولة الأيوبية في وجه أوروبا المسيحية (المتعصبة في ذلك الوقت) لاتقرض الاسلام من جميع بقاع الشام والجزيرة ومصر وشمالى افريقية كما انقرض من الاندلس . والفضل في ذلك للواقعتين الفاصلتين اللتين قامت بهما هذه الدولة ، وهما واقعة حِطِّين (وبطلها صلاح الدين) وواقعة المنصورة (وبطلها توران شاه) . وكان أكثر عمارات الدولة ومصانعها الضخمة هي القلاع والحصون التي منها قلعة الجبل بالقاهرة ، وأسوارها المنيعة ، ويايها أبنية المدارس للشافعية والمالكية . وأخذ عمل قامت به فوق ذلك نسخ مذهب غلاة الشيعة من مصر والشام ونشر مذهب الامام الشافعي وعلوم السنة فيها . وقد تقدمت البلاد في عهدهم باهتمامهم بالزراعة وسهرهم على نشر العدل وتوطيد النظام

وأسباب سقوط هذه الدولة ترجع الى عدة أمور منها :

(١) تقسيم صلاح الدين الملكة العظيمة التي افتتحها بين أولاده واخوته وأقاربه ، فأوجب تنافسهم وتحاسدهم وتباغضهم وتعدى بعضهم على بعض ، فتفككت عصبيتهم وأصبح بأسهم بينهم شديداً

(٢) العهد بالملك الى الصغار منهم ، مما أوجب اقامة أوصياء عليهم من أقوياء رؤساء الجند والوزراء

(٣) الاستكثار من اتخاذ المماليك التركية أنصاراً وأعواناً ، وتنازلهم لهم عن كل شئ ، في الدولة حتى تدبير القصر ، وتغاليهم في جلب هؤلاء وهجر الأكراد أصول الدولة والعرب أهل البلاد

الفصل الثامن

دولة المماليك

٦٤٨ - ٩٢٢ هـ (١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

(١) - دولة المماليك البحرية

٦٤٨ - ٧٨٤ هـ (١٢٥٠ - ١٣٨٢ م)

انقرضت الدولة الأيوبية بقتل « توران شاه » ، ودخلت مصر بعدها في حوزة منشا المماليك ممالك هذه الدولة . وكان خلفاء الدولة العباسية قبلهم قد اعتادوا استخدام عدد كبير من المماليك في الجند والحرس ليحتموا بهم من قبائل العرب وبخاصة أنصار العلويين والأيوبيين منهم ، وليخضعوا بهم حكام الأقاليم اذا استفحل أمرهم . فأخذت قوة هؤلاء المماليك تزداد شيئاً فشيئاً حتى صاروا بالنسبة الى الخلفاء أقرب الى الشجان منهم الى الحراس . واقضى بالعباسيين نور الدين وصلاح الدين في استخدام المماليك وعُنِيَ بتدريبهم واعدادهم . وبقي ذلك في عهد الأيوبيين حتى ولى الملك « الصالح أيوب » ، فاشتري عدداً كثيراً من أشداء المماليك ، وبالغ في تدريبهم وأنزلهم في قلعة الروضة التي شيدها بجزيرة الروضة ، فسُموا لذلك « المماليك البحرية » ووصلوا في آخر أيام الدولة الأيوبية الى درجة عظيمة من البأس . ولما أغضبهم

توران شاه قتلوه واستولوا هم على الملك ، فبقي في أيديهم نحو مائة وثلاثين عاماً
وعدددهم ٢٤ سلطاناً أولهم السلطان عز الدين « أيبك » التركمانى : ولى
سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) وتزوج الملكة تنجيرة الدرّ ، ثم سلب منها كل سلطة واضطهدها.
فقبل انها أمرت مماليكها بخنقه سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م)

ايك

فقتلها ابنه وتولى الملك بعده، ولُقّب بالملك « المنصور » وهو صبي لا يزيد عمره
على ١١ سنة ، فقام بأمر الدولة الأمير سيف الدين « قُطز » ، فوَقعت في مدته
(سنة ٦٥٦ هـ : ١٢٥٨ م) النكبة العظيمة وهي سقوط بغداد في يد التتار وزوال
الخلافة العربية . فجمع « قطز » القضاة وكبار العلماء لذلك ، فأفتوه بخلع السلطان
الصبي وولوه مكانه

فتولى سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) ولقب بالملك « المظفر » ، فجمع المماليك تحت
كلمته وصاروا كلهم وقبائل العرب بمصر معه يداً واحدة على التتار الزاحفين على
مصر . فالتقى بهم على عين « الجالوت » بفلسطين ، ثم لاقاهم أيضاً ببيسان فانتصر
عليهم في معركة هائلة . وكان ذلك بحسن قيادة الأمير رُكن الدين « بيبرس » الذى
طاردهم حتى أخرجهم من دمشق وحلب وانتزع أكثر امارات الشام من أيدي
بنى أيوب، فوَعده « قطز » بولاية حلب، ثم أخلف وعده، فقتله بيبرس وهم عائدون
الى مصر، واختاره زملاؤه سلطاناً مكانه

قطز

تولى السلطان الملك الظاهر رُكن الدين « بيبرس » البندقدارى
(٦٥٨ - ٦٧٦ هـ : ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) عرش مصر فكان أشهر سلاطين المماليك
البحرية ، فبدأ بتنظيم أمور الدولة واصلاح الجيوش وانشاء الأساطيل . فكان بوضع
أنظمتها الملكية الثابتة المؤسس الحقيقى لدولتى المماليك اللتين استمرتتا ٢٦٧ سنة بالرغم
من تشاخم وتنازعهن . ثم عُنى بتحصين الشام وأنشأ بريداً سريعاً بحمام الزاجل
بين دمشق والقاهرة

بيبرس

وكان « بيبرس » يرمى الى بلوغ ما بلغه صلاح الدين واپى استئصال شأفة

الصلبيين مما بقي في أيديهم بالشام . ولكي يعزز زعامته للإسلام دعا الى مصر أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار من بغداد ، وبايعه بالخلافة ولقبه بالمستنصر ، ثم استمد سلطة الملك منه نائباً عنه سنة ٦٥٩ (١٢٦١ م) . ثم ان « المستنصر » هذا ذهب لمحاربة التتار فقتل وجاء عباسي آخر يسمى أحمد وبويع بالخلافة ولقب بالحاكم بأمر الله ، وهو جد الخلفاء العباسيين بمصر

وكان أكبر خطر يهدد مصر في ذلك الوقت : غارة المغول ، وكانوا قد اتخذوا « فارس » مقراً لهم . إلا أن منهم طائفة تعرف بالطائفة الذهبية نزلوا على نهر « الوُجْجا » (إيتل) واعتنقوا الاسلام وصاروا من أعداء تتار فارس . فاتحد « بيبرس » معهم ومع قيصر الروم وعمل على مقاومة تتار فارس والقضاء على الصليبيين ، فخارب هؤلاء محاربة شديدة نحو عشر سنوات من ٦٥٩ الى ٦٧٠ هـ (١٢٦١ - ١٢٧١ م) : شتت فيها شملهم وهدم « ياقا » و « انطاكية » حتى صارتا اطلالاً بالية سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) . ثم أخضع قبائل « الباطنية » من الاسماعيلية النازلين في الشام والمسيحيين عند الافرنج بالحشاشين بعد أن كانوا آفة على ملوك مصر منذ أيام صلاح الدين . وأغار على آسيا الصغرى ، وكان التتار قد استولوا على مملكة الروم السلجوقيين ، فقهرهم وجلس على عرش « قيسارية » * ودان له أهلها (سنة ٦٧٦ هـ ١٢٧٧ م)

ولم تله غزواته في الشمال عن الالتفات للأقاليم الجنوبية ، فأرسل جيشاً الى بلاد النوبة سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) فأخضع أهلها وأعاد جزية العبيد بعد ان امتنعوا عنها . ومات « بيبرس » سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) وقد بلغ أقصى درجات المجد وحل منزلة كبيرة بين جميع من جاوره من الملوك والأمراء . وكان شجاعاً عاملاً عادلاً في الجملة حسن السيرة ، لا يشوب سياسته إلا شيء

* تسمى بهذا الاسم مدينتان احدهما ببلطين والثانية هي كرسى مملكة السلجوقيين بآسيا الصغرى . وبعض المتأخرين يكتب الاخيرة (قيسرية)

من القسوة والميل الى الغدر ، ساد في أيامه الأمن وانتشرت العلوم والمعارف . ولم تشغله الحروب وتنظيم الجيوش و بناء الأساطيل وتحصين البلاد عن اصلاح الري والزراعة وانشاء المساجد والمدارس . ولم يغال في فرض الضرائب مع كثرة حروبه ، بل خفضها الى اصفر حدكاف للقيام بمشروعاته العظيمة . وما زال له الذكر الحسن عند المصريين ومن المساجد التي شيدها مسجده الكبير بالحسينية المعروف بجامع الظاهر

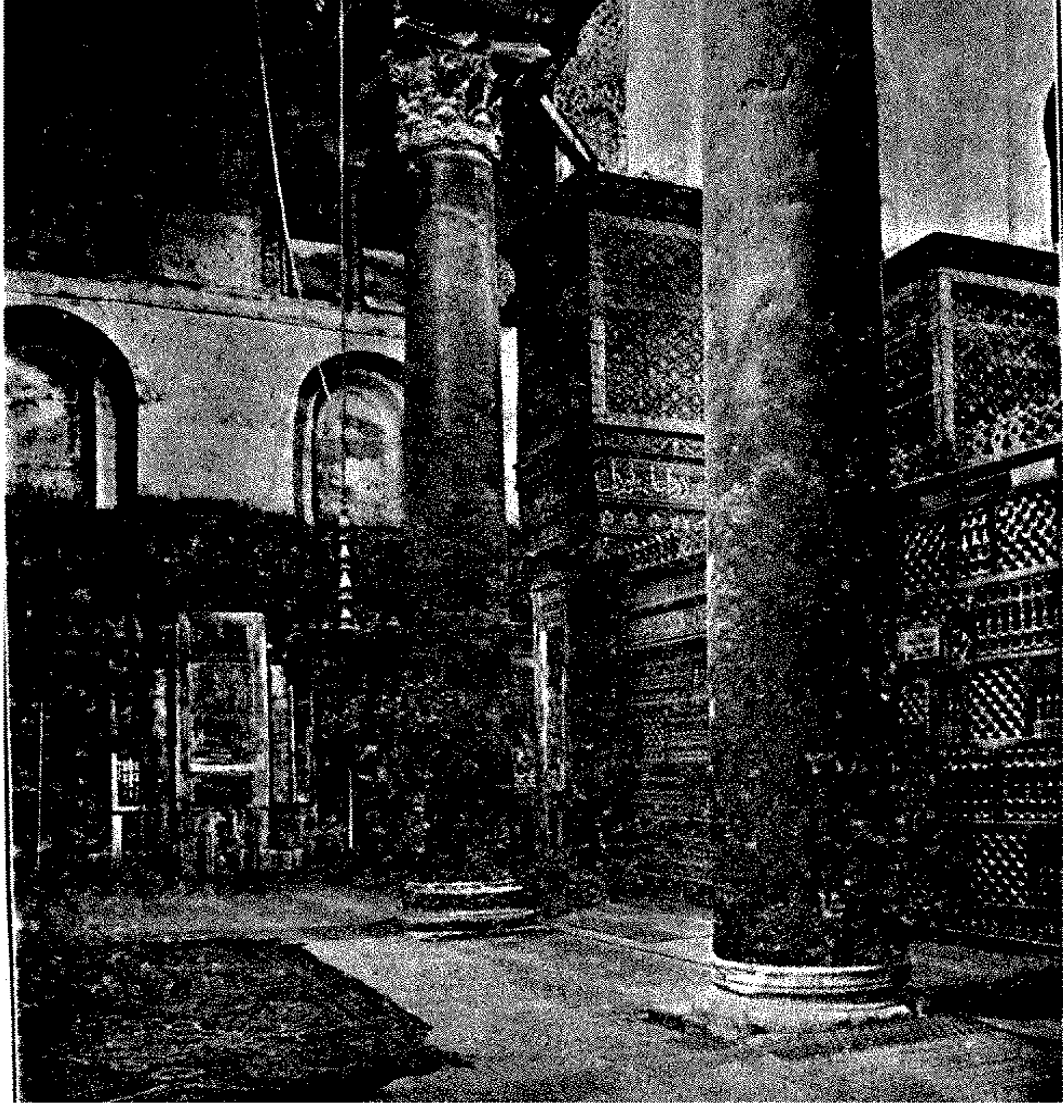
قلاون

وبعد وفاة « بيبرس » حدثت منازعات بشأن تولى الملك (شأن المالك عند وفاة أحد ملوكهم) ، فخلفه ولدان احدهما بعد الآخر ، ولم تطل مدتهما . و انتهى الأمر بتولى السلطان الملك المنصور سيف الدين « قلاون » الصالحى (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ : ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) ، فبقى الملك في بيته أكثر من مائة سنة . وبعد أن تم له الأمر عقد هدنة مع الصليبيين لمدة عشر سنوات على أن يُسمح للسفن المصرية بدخول الموانئ المسيحية بالشام ، وأن لا يقوم الصليبيون بأى تحصين جديد في مدنهم . ومن ذلك يُعلم مقدار ما وصلوا اليه إذ ذاك من الضعف والهوان وقد كان عقد الهدنة مع الصليبيين من الحكمة ، إذ أن التنازل كانوا يتأهبون للإغارة على مصر مرة أخرى ، فخرج اليهم « قلاون » سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨٢ م) في جيش عظيم وهزمهم في موقعة فاصلة في « حمص » أسكتهم عن مصر ١٧ سنة وقضى « قلاون » باقى أيامه في محاربة الصليبيين بالرغم من مهادتهم فيما سبق ، واستولى على « طرابلس » عنوة سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) . ومات سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) وهو يتأهب لغزو « عكا »

وساد في عهده العدل والسكينة . ومن مبراته الحسان انشاؤه البيمارستان الكبير بين القصرين (المسمى بمستشفى قلاون الآن بالنحاسين) وبجانبه المدرسة العظيمة والقبعة التي دُفن بها (جامع قلاون) ، ووقف عليهما الأوقاف الكثيرة وشرط في وقفه كثيراً من أنواع البر والخير مما لم يسبقه اليه أحد من الملوك

ثم خلفه ابنه « الأشرف خليل » وكان شجاعاً مقداماً مظفرأ في الحروب عادلاً

الأشرف
خليل



(داخل جامع قلاون)

رسم لكجيان

في الرعية قاسى القلب على من يتوهم مزاحمتهم له في الملك ، ففتك بكثير منهم ، فكان ذلك سبباً في اغتياله وقتله بعد ثلاث سنين . وقام باعداد الجيش الذي كان يعده والده لفتح « عكا » آخر مدينة حصينة بقيت بأيدي الصليبيين . هنالك جمع الصليبيون فولل جيوشهم للدفاع عنها ، إلا أنهم اختلفوا حسب عاداتهم ، ففتح جند

الأشرف المدينة سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) ودمروا حصونها وقتكوا بكثير من الصليبيين . ثم سقطت باقى مدن الصليبيين فى أيديهم واقترضت دولهم بالشام ثم خلفه أخوه الملك « الناصر » محمد بن قلاون (٦٩٣ - ٧٤١ هـ : ١٢٩٣ - ١٣٤١ م) ، تولى وهو صغير وخلع فى هذه المدة مرتين : الأولى سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٣ م) مدة خمس سنوات ، والثانية ، سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٩ م) مدة سنة واحدة وفى مدته أغار التتار مرة أخرى على الدولة سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠ م) وهزموا المماليك واستولوا على « دمشق » . الأ أن المسلمين هزموهم فى موقعة فاصلة بالقرب من دمشق سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) وأسروا منهم ١٠,٠٠٠ نفس ، فكانت هذه رابع مرة صدَّ التتار فيها عن الديار المصرية

وزادت فى عهده ثروة البلاد كثيراً . ومما ساعد على ذلك أنه فرض ضريبة على جميع التجارة التى تمر من مصر بنسبة ١٠٪ من ثمنها ، وكانت تجارة أوروبا مع الهند تمر من هذا الطريق

وكان « الناصر » يعنى بشؤون البلاد الداخلية ، فضبط الموازين والمقاييس ، وحدَّ الأثمان فى أوقات الشدة ، وألقى كثيراً من الضرائب الضارّة بالفقراء من الرعية واستعاض عنها بزيادة الضرائب على كبار الموسرين . ثم منع شرب الخمر ، وتشدّد فى حفظ الآداب ، وعمل على معاضدة العلم ونشر المعارف . وفى مدته بلغ فن المبانى والنقوش العربية أقصاه ، اذ اتضح ان أكثر الآثار العربية الجميلة التى فى دور تحف العالم هى من صنع هذا العصر

وقد سيّد هو وأمراء دولته من المبانى الفخمة ما لا يدخل تحت حصر . وهو المنشئ لقناطر المياه الموصلة بين القلعة والنيل ، وان كانت قد نُسبت خطأ الى صلاح الدين . ووصل بين النيل والاسكندرية بترعة ، وأنشأ طريقاً عظيماً بجانب النيل أفاد فائدة الجسور وقت الفيضان

وكان « الناصر » ضئيل الجسم ، أعرج ، أعور ، الأ أنه بالرغم من ذلك كان

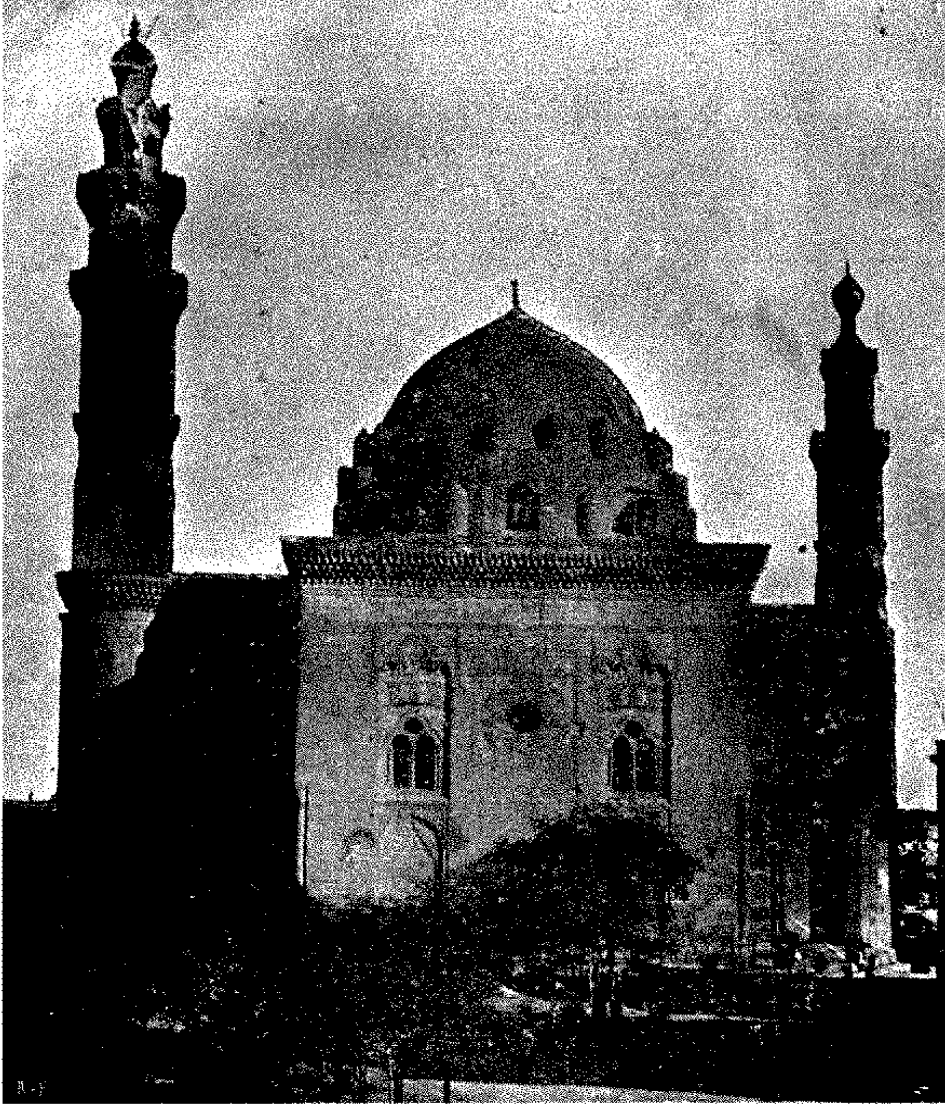
قوى البأس ، شديد البطش ، ذا رأى شديد ، وعزيمة من حديد ، وكان عصرة
بفخامة ملكه وعظم مبانيه وجمال ذوقه أرقى عصور الحضارة المصرية
ومات سنة ٧٤١ هـ (١٣٤١ م) ولم يترك خلفاً يقدر على القيام بعبء الملك ،
فوقعت البلاد في فوضى مدة ٤١ سنة تنازع الملك فيها ملك بعد ملك من أولاده
وأذوهم أثراً الى الآن ابنة السلطان حسن ، وهو باقى المدرسة العظيمة التى لم
يخلف السلاطين أعظم منها بناء ولا أتقن صناعة ، وهى المشهورة الآن بجامع السلطان
حسن (بجوار قلعة القاهرة)
وانتهى الأمر بانقراض هذه الدولة واستيلاء المماليك الشراكسة على الملك

❖ فشل الحروب الصليبية ونتائجها ❖

استولت المماليك البحرية على آخر مابقى بأيدي الصليبيين بالشام، وبذا انتهت
الحروب الصليبية بعد ان استمرت نحو قرنين ، ولم يتم للصليبيين شىء من بغيتهم
مع ما أريق فيها من الدماء وبُدد من الأموال . ولفشلهم هذا عدة أسباب منها :
أولاً - اختلاف ملوكهم وأمرائهم فيما بينهم وتظاهر بعضهم على بعض ، مما أدى
كثيراً الى وقوع القتال بينهم
ثانياً - وجود عدد عظيم من اللصوص والمجرمين والمتشردين بين جيوشهم ،
فجرّ ذلك الى الاختلال وقلة النظام
ثالثاً - اتحاد المسلمين وائتلافهم فى أكثر أزمان الحروب الصليبية وخاصة زمن
صلاح الدين وما بعده

رابعاً - حسن نظام الجيوش الإسلامية وشجاعتها

ولاشك أن الحروب الصليبية أضرت كثيراً بالشرق والمغرب معاً ، لما أزهقت
من أرواح وأفنت من أموال ، ولما استغرقت من وقت ثمين لو صرف فى الأعمال
النافعة لعاد على العالم بالخير والبركات ، غير أنها مع كل هذا كان لها فى أوربا بعض



(جامع السلطان حسن)

رسم لكجيان

نتائج حسنة ربما كانت تم بدونها مدى الأيام ، ولكنها تنسب الى الحروب الصليبية
لظهورها عقبها

ومن أهم نتائج الحروب الصليبية للأوروبيين ما يأتي :

أولاً - وقوف الغربيين على أحوال الشرق بعد جهلهم به وإدراكهم أن به حضارة

نتائج الحروب
الصليبية

تفوق حضارتهم ، فاتسعت أذهانهم وتولدت فيهم روح الاستطلاع والاستكشاف
ثانياً - تأدية اختلاط الغربيين بالشرقيين نحو قرنين من الزمان الى اقتباسهم
شيئاً كثيراً من الحضارة الشرقية ، مما أدى الى ارتقاء العلوم والآداب والفنون
والصنائع بأوربا

ثالثاً - وأنها أوجدت شيئاً من الائتلاف بين الأمم الأوربية المختلفة وأزالت ما
بينهم من النفور مدة من الزمن ، وذلك لاشتراكهم في غرض واحد وقتاً طويلاً
رابعاً - وإزالتها الفرق العظيم الذي كان بين طبقات الأشراف وغيرهم بأوربا ،
لعملهم جميعاً ككتف في ميدان القتال ، وبذلك قضت على النظام الذي كان
يُعرف في أوربا بنظام « الإقطاعات »

خامساً - وانها كانت سبباً في اتساع نطاق التجارة والملاحة بين المشرق والمغرب ،
وذلك أن السفن العديدة التي كانت تأتي بالصلبيين من أوربا كانت تعود اليها
بالبضائع الشرقية ، فقوّت روح التجارة في الشرقيين والغربيين معاً ، وساعدت في
نمو بعض المدن التجارية العظيمة مثل « جنوة » و « البندقية »

سادساً - (وهذه في اعتبار الغربيين نتيجة سيئة) - وزيادتها من نفوذ البابا
بأوربا . وذلك لأنه كان المحرك لملوك أوربا وأمرائها نحو قرنين من الزمان بسبب
ذلك الغرض الديني ، فقوى نفوذه حتى صار فيما بعد سبباً لمشاكل عظيمة بأوربا

(ب) - دولة المماليك الشركسية

أو « المماليك البرجية »

٧٨٤ - ٩٢٢ هـ (١٣٨٢ - ١٥١٧ م)

منشأ هؤلاء المماليك ان المنصور « قلاوون » اكثر من شرائهم وجعلهم في أبراج
القلعة ، فسُموا « البرجّية » . وهم يختلفون في الجنس عن المماليك البحرية لأن
معظمهم من الشركسية وأولئك من الترك . ولم يكن الملك فيهم وراثياً قط كما كان
البرجية

في بيت قلاون ، بل كان استيلاء كل ملك من ملوكهم على الدولة متوقفاً على شهرته الحربية ومقدرته على استجلاب مودة زملائه من الأمراء . وعدد ملوكهم ثلاثة وعشرون حكم تسعة منهم مدة ١٢٥ سنة ، وحكم في تسع السنوات الأخرى أربعة عشر وقد كان الكثير من ملوك هذه الدولة وأمراؤها ولع بالعلوم ، واشتهروا بالتنافس في بناء القصور الفخمة والأربطة والجوامع والمدارس والسبل وغير ذلك من المعاهد الخيرية . واكثر ما نراه اليوم في القاهرة من المباني العظيمة من آثارهم . إلا أنهم كانوا يميلون الى الظلم والعسف ، فأثقلوا كاهل الأمة بالضرائب ، وتسرب الخال في عهدهم الى جميع فروع الحكومة ، فأصبح العدل فيها يشري ويبيع . وكثرت الثورات والفتن في البلاد حتى ضجّ الناس من شر الجنود وعبثهم بالأمن . على أنهم بالرغم من شقاقتهم فيما بينهم كانوا على الأجنبي يدأ واحدة ، فحفظوا البلاد من الغارات الأجنبية نحو قرن ونصف من الزمان :

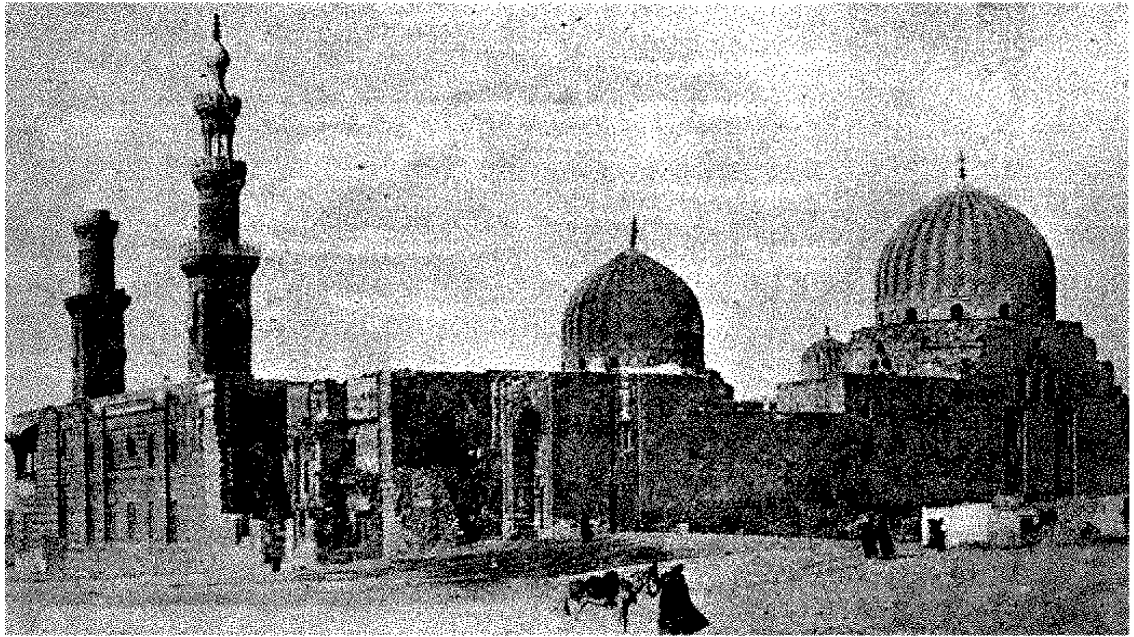
برقوق

وأشهر ملوكهم وأولهم هو الملك الطاهر سيف الدين « برقوق » ، خلع آخر المماليك البحرية وتولى الملك ، ثم ثار عليه المماليك وخلعوه وأعادوا الى الملك أحد حَمْدَةَ الناصر بن قلاون . فاشتغل باخماد فتنهم وجلس على كرسى الملك ثانية . ولم يفرغ من ذلك حتى تهدد البلاد خطر اغارة التتار يقودهم قائدهم العظيم « تيمورلنك » وكانوا قد استولوا على « بغداد » سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣ م) وخضعت لهم « الجزيرة » بأسرها سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٤ م) . فأرسلوا كتاباً الى مصر يطلبون منها التسليم اليهم فامتنع « برقوق » واتحد مع امراء شمالي الشام وسلطان العثمانيين . ثم مات برقوق سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) قبل الشروع في الحرب ، فترك ذلك لابنه الناصر « فرج » وابرقوق مبان عظيمة ومبرات جليلة ، منها مدرسته العظيمة بين القصرين بالنحاسين الشهيرة بجامع برقوق . أما المدفن ذوالقبتين بالجبانة الشرقية خارج القاهرة المعروف أيضاً بجامع برقوق فمن انشاء ابنه فرج

وفي سنة ٨٠٣ هـ خرج السلطان فرج الى الشام لمحاربة تيمورلنك الذي خرّب

فرج

حلب وزحف على دمشق ، فوقع بين الجيشين بعض مناوشات بالقرب من دمشق كان الغلب فيها للمصريين ، فطلب تيمورلنك من السلطان الصلح فأجابه اليه . وبينما هما يتفاوضان أثار الماليك فتنة في المعسكر ، وتسلبوا منه راجعين الى مصر ، فانزعج السلطان واضطر أن يعود مع بقيتهم مسرعاً اليها ، وترك دمشق يدافع عنها أهلها ، فدخلها تيمور وفعل الفظائع بأهلها كما فعل بحلب من قبل . ثم خلع الماليك « فرجاً » سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) وولوا أخاه . ثم عاد للملك ، فخرج في عدة غزوات الى الشام لتوطيد السكينة بها واخضاع الثائرين من الأمراء



(جامع برقوق بالصحراء)

واستفحل أمر اثنين من هؤلاء الأمراء وهما « شيخ ونوروز » . فتغلب « شيخ » المؤيد على « فرج » في خروجه السابعة الى الشام ، ووافق الخليفة العباسي بمصر على قتله وانهى الأمر باستيلاء « شيخ » على الملك ، فسمى « المؤيد شيخ » . وهو باني الجامع المعروف بجامع المؤيد بجوار باب زويلة

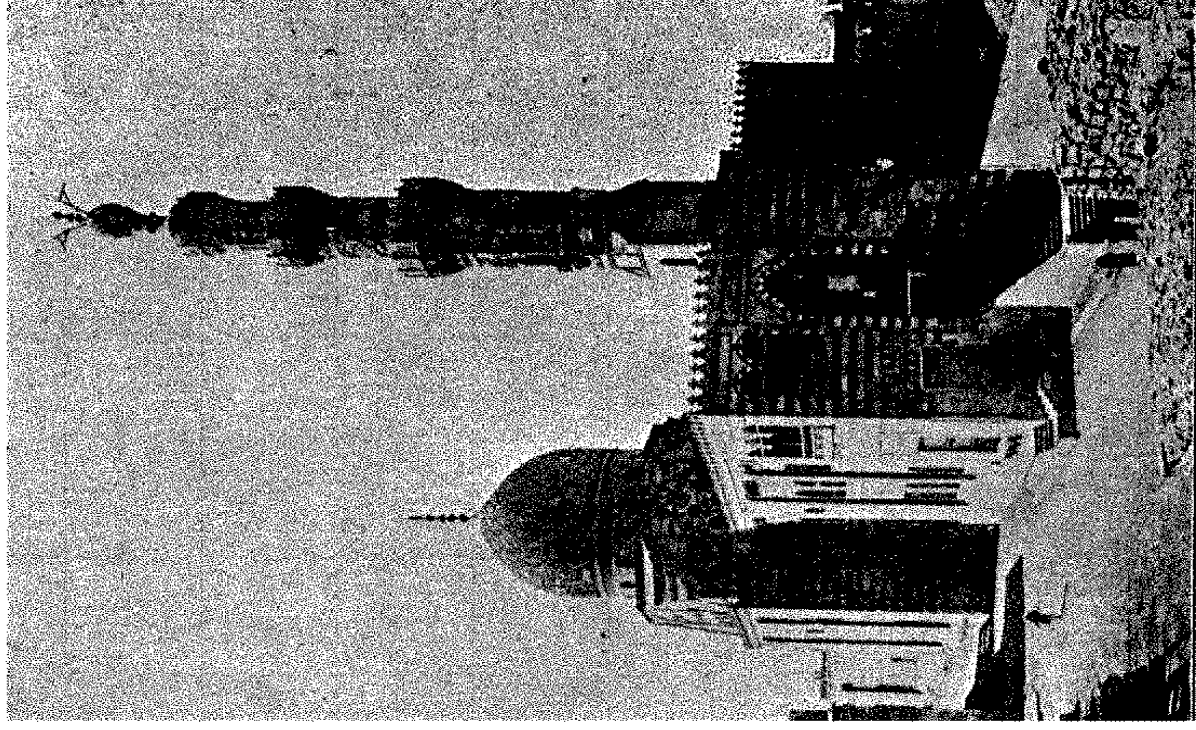
ثم تتابع بعده عدة ملوك ، فلم يكن لهم أثر في حالة مصر سوى أن الممالك لم يعيشتوا بهم ، فساءت حالة الناس ، واضطربت الحكومة ، وبقي الحال كذلك حتى ولى الملك « الأشرف برّسبای » سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م)

برسبای

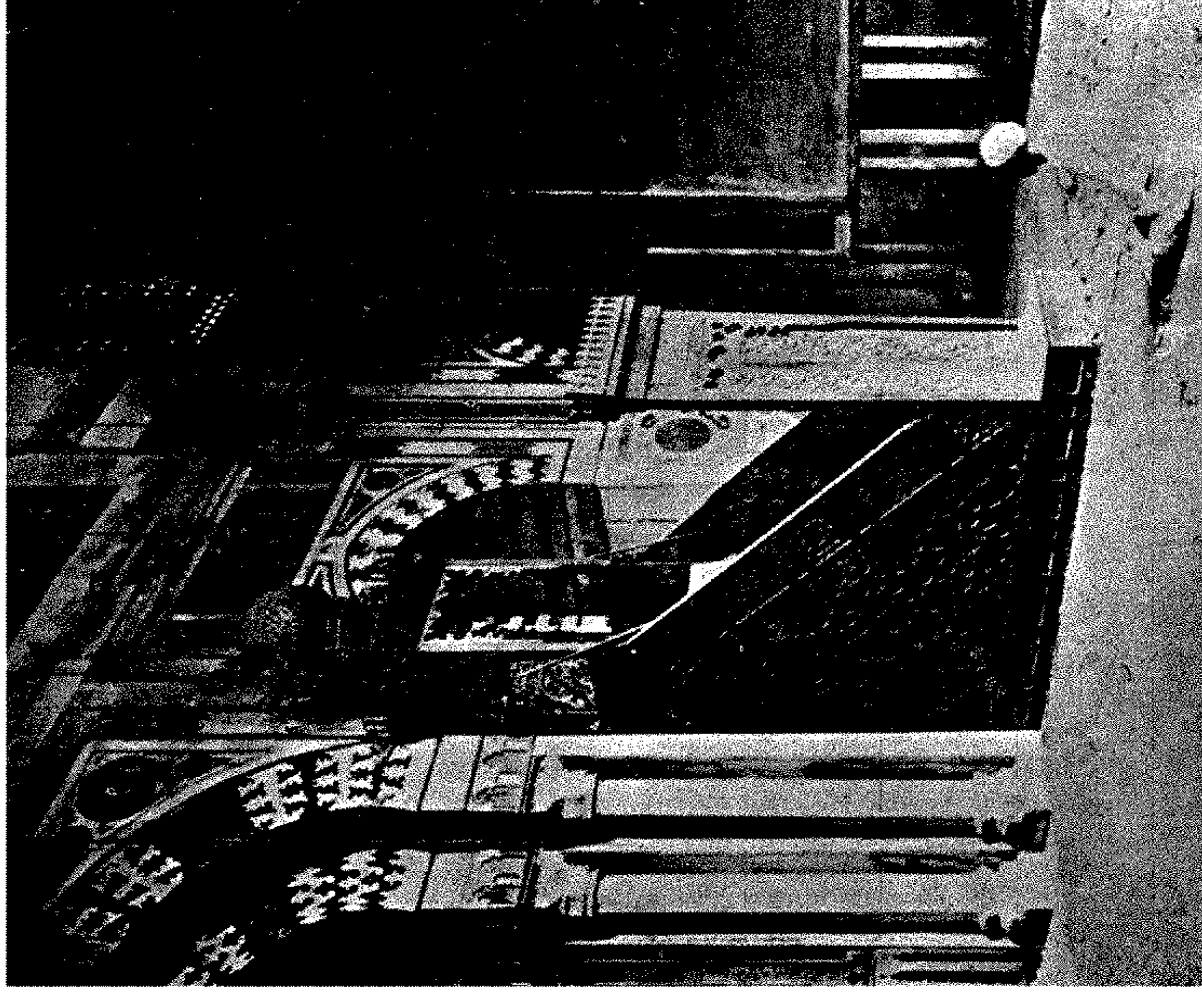
حكم « برّسبای » نحو ١٦ سنة (٨٢٥ - ٨٤١ هـ : ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م) فبالغ في إقبال كاهل الأمة بالضرائب الباهظة وأنواع الاختكار في التجارة ، إلا أنه لقوته وشدة بأسه لم تحدث في البلاد فتن في عهده . وكان لصوص البحر قد أكثروا الإغارة على مصر من جزيرة « قبرس » ، فأرسل « برسبای » أسطولاً لغزوها ، فاستولى عليها وأتى بملكها « جِمَس » أسيراً الى مصر ، وأتى كذلك بكثير من سكان الجزيرة ، فبيعوا في أسواق القاهرة ، وبقيت « قبرس » خاضعة لمصر الى أن اتهمت دولة الممالك سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) ، فكان الاستيلاء عليها من مميزات عصر « برسبای » على عهد غيره من الممالك الشراكسة . ومما امتاز به عصره أيضاً اهتمامه بالضرائب الخاصة بالتجارة وجعلها مورداً كبيراً لخزائنه . وعنى بأمر تجارة الهند حتى صارت السفن الواردة منها تفرغ بضائعها في « جُدّة » (وكانت تابعة لمصر) بعد أن كانت تفرغها في « عدن » ، فازداد بذلك مورد الحكومة . ثم احتكر تجارة كثير من المواد مثل السكر والفلفل والأخشاب وغيرها . وبالغ في الكسب حتى ضجّ التجار الأجانب بمصر وهمت حكومة « البندُقيّة » باستدعاء جميع تجارها من القطر ، فخاف على تجارة البلاد من الخسارة ونظر في مطالبهم ، وقد جمع من هذه الاحتكارات أموالاً طائلة . وحدث الطاعون بمصر في زمنه مرتين ، فهلك كثيرون . ومات برسبای سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ م) ، واختلط عقله قبل موته فأمر بقتل طبيبه

قايتباي

ثم ولى الملك بعده ابنه ثم عدة سلاطين لم يكن لهم كبير شأن ، حتى ولى الأشرف « قايتباي » (٨٧٣ - ٩٠٢ هـ : ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م) وهو أطول ملوك هذه الدولة حكماً ، كان في أول أمره مملوكاً اشتراه « برسبای » بخمسين ديناراً ، فما زال يرقى بجدّه ومواهبه حتى بلغ هذا المبلغ . وكان شجاعاً قوى الجسم والروح يحبه قوادّه ، فثبتت



جامع قزوینی
(رسم لکچیان)



داخل جامع القوری (رسم لکچیان)

بهم قدمه . إلا أن حروبه الكثيرة اضطرتة الى زيادة الضرائب زيادة كبيرة وإلى ابتزاز الأموال من أثرياء اليهود والنصارى

وكان أكبر شاغل له هو ازدياد قوة آل عثمان الذين صاروا بعد استيلائهم على القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) مصدر خطر لمن جاورهم من الأمم . وكثيراً ما تعدوا على حقوق مصر بالشام ، وأهمها منعهم تجارة الرقيق من الممالك الشراكسة وغيرهم عن مصر ، فسأت العلاقة بينهم وبين المصريين ، وتفاقم الأمر بين الفريقين بعد ما أجاز قايتباى أخا « بايزيد الثانى » وخصمه ، واکرم مشواه ، فحنق بايزيد على قايتباى ، ونشبت بين الفريقين عدة حروب لم تكن لها نتيجة تذكر ، واتفى الأمر بمهادنة الاثنین سنة ٨٩٦ هـ (١٤٩١ م)

وفى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) أصاب البلاد وباء شديد أعقبه قحط ، وقامت فتنة كبيرة بين طائفتين من الممالیک ، فحزن قايتباى ومرض مرض الموت ، فخلعه أرباب الدولة وبايعوا ابنه الناصر ، فمات قايتباى بعد ذلك بيوم واحد (سنة ٨٩٠١ : ١٤٩٦ م) وكان قايتباى محباً للعمارة : بنى ورمم كثيراً من المساجد والمدارس والحصون والطرق ، ولا يضارع عصره فى المباني وفرة وجمالاً سوى عصر « الناصر » بن قلاون . ومن أعجب بنائه تربته التى بناها فى الصحراء وتعرف الآن بجامع قايتباى

ثم تولى بعده عدة سلاطين كان من أشهرهم السلطان الأشرف قانصوه « الغورى » الغورى (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ : ١٥٠١ - ١٥١٦ م) . وكان داهياً شجاعاً عالماً محباً للعمارة ، على عسف وتجبر فيه . ومن بنائه جامع الغورى ومدرسته بالغورية

ولى الغورى الملك وعمره ٦٥ سنة ، فوجد خزائن الحكومة خالية بسبب الاضطراب الذى أعقب وفاة قايتباى ، فعمل على ملئها ، فشدّد على الرعية وجمع ضرائب عشرة شهور دفعة واحدة ، حتى عظم بؤس الناس . وسادت بالرغم من ذلك السكينة بالبلاد فى أوائل عهده

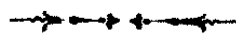
البرتقال والتجارة
المصرية

ولم يعكر صفوه سوى نزاع قام بينه وبين البرتقال ، بشأن تجارة الهند . وذلك أن

« فاسكودى جاما » لما كشف الطريق الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ م تحولت معظم التجارة الهندية عن طريق مصر وتقص بذلك وارد الحكومة تقصاً كبيراً . ولم يكتف البرنقال بانتقال معظم هذه التجارة الى أيديهم ، بل شرعت سفنهم بالبحر الأحمر ثقبض على كل سفينة مصرية تبغى التجارة فى تلك الجهات . ووقع بين الفريقين بعض مناوشات لم تكن لها نتيجة قاطعة ، اذ شغل المماليك بخطر آخر اكبر من ذلك وهو إغارة العثمانيين التى لم تذهب بما بقى من تجارتهم فقط بل انتهت بالقضاء على ملكهم

الفتح العثمانى

وذلك أنه فى سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) ولى ملك آل عثمان السلطان « سليم خان الأول » ، وكان مولعاً بالحروب شديد الرغبة فى توسيع نطاق الدولة العثمانية ، فعمل على محاربة المماليك لأقل سبب ، فاتهم « الغورى » بمالأة الفرس عليه (وهم يومئذ أعداؤه الأتداء) ، وبأن بلاد الغورى صارت مأوى للعصاة والعارين من وجه سليم : فأدرك « الغورى » نياتة ، وجرّد جيشاً خرج به الى الشام بالرغم من تأكيد سليم أنه لا يقصد بمصر سوءاً . والتقى الجيشان بميدان « مرّج دابق » شمالى حلب سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) ، وكانت مدافع العثمانيين قوية ، ففتكت بجيش المماليك وانهزموا ، وفلج « الغورى » لوقته فوقه تحت سنابك الخيل ، فلم يوقف له على أثر وملك سليم الشام بلا مقاومة وزحف على مصر ، فولى المماليك عليهم السلطان « طومان باى » فجمع من قدر عليه من الجنود والتقى مع سليم خان بالريدانية (العباسية الآن) ، فانهزم طومان باى ودخل سليم خان القاهرة ، وفرّ طومان باى ثم قبض عليه سليم وصلبه على باب زويلة . وبموته انقرضت دولة السراكسة سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) وصارت مصر ولاية عثمانية ، وتنازل الخليفة العباسى بمصر عن الخلافة لسلاطين آل عثمان



ملخص أهم الحوادث التاريخية منذ تأسيس الدولة الإسلامية

البلاد الأجنبية	التاريخ		مصر
	م	هـ	
مولد النبي صلى الله عليه وسلم	٥٧١		
تولية هرقل امبراطورا بالقسطنطينية	٦١٠		
تأثير البعثة و تأسيس مجد الدولة العربية	٦١٦		زحف الفرس على مصر
غزوة بدر	٦٢٤	٢	
د أحد	٦٢٥	٣	
د الخندق	٦٢٧	٥	
أرسل النبي كتبه الى الملوك والامراء	٦٢٨	٦	
فتح مكة	٦٣٠	٨	
غزوة تبوك	٦٣١	٩	
حجة الوداع	٦٣٢	١٠	
وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عصر الفتوح العربية	٦٣٢	١١	
خلافة أبي بكر — ابتداء فتح فارس والشام	٦٣٢ — ٦٣٤	١١ — ١٣	
خلافة عمر — اتساع عظيم في الدولة الإسلامية :	٦٣٤ — ٦٤٤	١٣ — ٢٣	
فتح فارس	٦٣٣ — ٦٤٢	١٢ — ٢١	وصول عمرو بن العاص الى الفرما : ١٨ هـ (٦٣٩ م)
فتح الشام	٦٣٣ — ٦٣٨	١٢ — ١٧	دخول الاسكندرية ومصر في قبضة العرب . المهزم سنة ٤١ هـ
فتح مصر	٦٣٩ — ٦٤١	١٨ — ٢١	(٦٤١ م)
	٦٤١ — ١٦٨	٢١ — ٢٥٤	مصر وهي ولاية اسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وبنى أمية وصدر بنى المباس (٢٢٧ سنة)

البلاد الأجنبية	التاريخ		مصر
	م	هـ	
	٦٦١ — ٦٤١	٤١ — ٢١	(١) في عهد الخلفاء الراشدين ولاية عمرو بن العاص — انشاء مدينة القسطنطينية — تنظيم الادارة ورسم الخطة في جباية الحراج — انشاء الاحواض والقناطر والجسور — كرى خليج أمير المؤمنين - اخضاع بلاد النوبة ولاية عبد الله ابن أبي السرح - صد غارة للروم عن الاسكندرية — فتح برقة وافريقية وغزو بلاد النوبة — كسر الروم بجزراً بالاسكندرية — تشدد في الحراج فكرهه الناس وطردوه
خلافة عثمان — مواصلة الفتوح العربية : فتح بلاد التركستان وبرقة وطرابلس الغرب والنوبة وجزيرة قبرس	٦٥٥ — ٦٤٤	٣٥ — ٢٤	
خلافة علي — وقوف الفتوح — اضطرام نار الفتن بسبب قتل عثمان والنزاع بين علي ومعاوية بشأن الخلافة	٦٦٠ — ٦٥٥	٤٠ — ٣٥	
دولة بني أمية ومقرها دمشق أهم خلفائها : معاوية (محاولة الاستيلاء على القسطنطينية وفتح بعض بلاد التركستان وافغانستان وشمال الهند والجزائر ومراكش وروودس) — عبد الملك بن مروان — الوليد بن عبد الملك (وصول الفتوح الى سمرقند ونهر السند وتثبيت ملك العرب ببلاد البربر الى المحيط — فتح الاندلس — كثرة العمارات) — سليمان بن عبد الملك (ابتداء التقهقر — صد الجيوش الاسلامية في موقعة تور)	٧٥٠ — ٦٦١	١٣٢ — ٤١	(٢) في عهد الدولة الاموية
	٦٦٣ — ٦٥٨	٤٤ — ٣٨	عودة عمرو بن العاص الى ولاية مصر — مواصلة فتح افريقية والمغرب الاقصى
	٧٠٥ — ٦٨٥	٨٦ — ٦٦	ولاية عبد العزيز بن مروان (٢١ سنة) —

البلاد الأجنبية	التاريخ		مصر
	م	هـ	
	٧٠٩ — ٧٠٥	٨٦ — ٩٠	حلوان قاعدة ثاية للديار المصرية ولاية عبد الله بن عبد الملك -- نسخ دواوين مصر بالعربية بدل القبطية
الدولة العباسية أهم خلفائها : السفاح (مؤسس الدولة — اتخذ مدينة الانبار داراً للخلافة) — المنصور (أعظم خلفاء العباسيين — بنى بغداد واتخذها مقراً للخلافة — أول عصور وضع العلوم الاسلامية العربية) — الرشيد والمأمون (أزهى عصور الحضارة الاسلامية بالشرق)	٧٥٠ — ١٢٥٨	١٣٢ — ٦٥٦	
	٧٥٠ — ٨٦٨	١٣٢ — ٢٥٤	(٣) في عهد الدولة العباسية ولاية صالح وأبي عون من قبل السفاح — بناء مدينة العسكر — انتقال مصر الى يد العباسيين بدون صعوبة كبيرة كثرة الفتن والقتال في مصر في عهد العباسيين بقيام العرب تارة والقبط أخرى والاشين أحياناً — أنزل عبيد الله بن الحجاج قبيلة من عرب قيس بالحواف الشرق ليساعدوا على انتشار الاسلام بمصر ابن ممدود أول وال من الاتراك زول طائفة من الاندلس بالاسكندرية وانضمهم الى العرب الخارجين قدوم عبد الله بن طاهر واخراجهم من الاسكندرية خروج أهل الحوف والقبط خروجاً عاماً قدوم المأمون واتحاد الثورة وابتداء الطور الحقيقي لانتشار الاسلام بمصر عبيدة آخر وال عربي تصيب احمد بن طولون والياً على القسطنطينية الدولة الطولونية — عصر همدو وسكينة تصيب احمد بن طولون والياً على جميع مصر — بناء مدينة
	٧٧٩	١٦٣	
	٨١٥	١٩٩	
	٨٢٦	٢١١	
	٨٣١	٢١٦	
	٨٣٢	٢١٧	
	٨٥٢ — ٨٥٦	٢٣٨ — ٢٤٢	
	٨٦٨	٢٥٤	
	٨٦٨ — ٩٠٥	٢٥٤ — ٢٩٣	
	٨٧٠	٢٥٧	

البلاد الأجنبية	التاريخ		مصر
	م	هـ	
			القطائع وجامع ابن طولون
	٨٧٨	٢٦٤	منع ارسال الحراج الى الموفق أخى الخليفة
	٨٧٨	٢٦٤	اخضاع معظم بلاد الشام
	٨٨٣	٢٦٩	حذف اسم الموفق من الخطبة
	٨٨٤	٢٧٠	وفاة ابن طولون
			تولية حمارويه (أكثر من الاتفاق في تشييد العمارات والبساتين)
	٨٨٥	٢٧١	إغارة أميرى الموصل والابار على الشام
			نودى بحمارويه حاكماً على الموصل والجزيرة
وفاة الموفق وبعده الخليفة المعتمد (٢٧٩ هـ)	٨٩١	٢٧١	
			تحسن العلائق بين مصر وبغداد وتزويج حمارويه ابنته
			قطر الندى للخليفة المعتمد
	٨٩٦	٢٨٢	قتل حمارويه
			اضمحلال الدولة الطولونية
	٩٠٥	٢٩٣	انقراضها
	٩٣٥ — ٩٠٥	٢٩٣ — ٢٢٤	مصر ولاية عباسية مرة أخرى — عصر فوضى
	٩٦٩ — ٩٣٥	٣٥٨ — ٣٢٤	الدولة الاخشيدية (٣٤ سنة) — ارجاع السكينة الى مصر
	٩٣٥	٣٢٣	تولى الاخشيد والياً على مصر
	٩٤٠	٣٢٨	استقلاله بالملك
	٩٤٣	٣٣٢	قلده الخليفة حكم الحرمين
	٩٤٦	٣٣٤	وفاة الاخشيد
			تولى ابنه أبى القاسم أونوجور ملكاً وحمل كاهن قيسياً عليه
	٩٤٦	٣٣٥	اصفر سنه
			وفاة أونوجور
	٩٦٥	٣٥٥	تولى كاهن وتقليد الخليفة له ولاية مصر والشام والحجاز
	٩٦٩	٣٥٨	قدوم جوهر الصقلى وانتزاعه مصر من الدولة الاخشيدية
ذهاب أبى عبد الله الشيبى الى بلاد البربر	٨٩٣	٢٨٠	
نودى بعبيد الله خليفة فاطميا بالمغرب	٩١٠	٢٩٧	
تولية المعز الخليفة	٩٥٣	٣٤١	
استيلاء جوهر قائد المعز على مصر	٩٦٩	٣٥٨	

البلاد الأجنبية	التاريخ		مصر
	م	هـ	
	١١٧١-٩٦٩	٣٥٨-٥٦٧	الدولة الفاطمية — مدة حكمها ٢٠٢ سنة ومقرها القاهرة (١) المزم — ٣٥٨ — ٣٦٥ هـ (٩٦٩-٩٧٥ م) بناء القاهرة — دانت له مكة والمدينة — تقدم البلاد على عهده — بناء الازهر (٣٦٠ هـ) (٩٧٠ م) (٢) العزيز — ٣٦٥ — ٣٨٦ هـ (٩٧٥-٩٩٦ م) البلاد في هدو وتقدم — اقامة كثير من المباني وحفر الترع وانشاء الجسور — بدأ جامع الحاكم (٣) الحاكم — ٣٨٦ — ٤١١ هـ (٩٩٦-١٠٢١ م) عصر اضطراب بسبب طيش الحاكم وتناقض أفعاله (٤) الظاهر ٤١١ — ٤٤٢ هـ (١٠٢١-١٠٣٦ م) لم يقدر على اصلاح ما أفسده والده وأخذ خلفاء القواطم في الاضمحلال — تحول السلطة الى الوزراء — أقصى ما بلت اليه أملاك القواطم في الشام (٥) المستنصر — ٤٢٧ من سنة ٦٠ — ٤٨٧ هـ (١٠٣٦-١٠٩٤ م) — عهد تدهور سريع — كثرة المشاحنات بين الوزراء — خروج الولايات السورية وانقسامها الى عدة ولايات — وفرة الثروة بمصر
	١٠٥١-١٠٥٠	٤٤٢ — ٤٥٠	عهد الوزير «اليازورى» — استقرت البلاد نحو ٨ سنوات
	١٠٧٢-١٠٦٥	٤٥٧ — ٤٦٥	استعداد الوزير ناصر الدولة — قحط عظيم مدة ٧ سنوات
	١٠٩٤-١٠٧٤	٤٦٧ — ٤٨٧	بدر الجالى وبناء الثلاثة الأبواب العظام — رجوع الهدو والسكينة
استيلاء الاتراك السلجوقيين على الشام	١٠٧٦	٤٦٩	(٦) المستعلى — ٤٨٧ — ٤٩٥ هـ (١٠٩٤-١١٠١ م) وزارة الامض
	١١٢١-١٠٩٤	٤٨٧ — ٥١٥	
خروج الصليبيين من أوروبا	١٠٩٦	٤٨٩	
استيلاؤهم على الرها وانطاكية	١٠٩٨-١٠٩٧	٤٩٠ — ٤٩١	
استيلاؤهم على بيت المقدس	١٠٩٩	٤٩١	
تولى زنكى حاكماً للموصل	١١٢٧	٥٢١	(٧) الأمر — ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ (١١٠١-١١٣١ م) (٨) المحافظ — ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ (١١٣١-١١٤٩ م)

البلاد الأجنبية	التاريخ		مصر
	م	هـ	
			أول وزير لقب نفسه بلقب « ملك »
مولد صلاح الدين الايوبي بمدينة تكريت	١١٣٧	٥٣٢	
استيلاء زنكي على بعلبك وتمينه ابوبا حاكماً عليها	١١٣٩	٥٣٤	
استيلاء زنكي على الرها	١١٤٤	٥٣٩	
وفاة زنكي وتولى نور الدين حكم حلب	١١٤٦	٥٤١	
فشل الحرب الصليبية الثانية أمام دمشق	١١٤٨	٥٤٣	
			(٩) الظاهر - ٥٤٤ - ٥٤٩ هـ (١١٤٩ - ١١٥٤)
سقوط عسقلان في يد الصليبيين	١١٥٣	٥٤٨	
استيلاء نور الدين على دمشق وتمين شيركوه حاكماً على حمص	١١٥٤	٥٤٩	
			(١٠) الفائز - ٥٤٩ - ٥٥٥ هـ (١١٥٤ - ١١٦٠ م) - وزارة الملك الصالح طلائع ابن رزيق
			(١١) العاضد - ٥٥٥ - ٥٦٧ هـ (١١٦٠ - ١١٧١ م)
	١١٦٣	٥٥٨	النزاع بين ضرغام وشاور
	١١٦٣	٥٥٨	هزم « مري » ضرغاماً ثم تحالفا
	١١٦٤	٥٥٩	دخول شيركوه مصر لأول مرة - قتل ضرغام دخوله ثاني مرة ودخول مري أيضاً ثم جلاء الجيوش السورية ومعظم جيوش مري رجوع مري لغزو البلاد - احراق شاور مدينة الفسطاط كي لا تأوي الصليبيين
	١١٦٧	٥٦٣	وصول شيركوه الى مصر لثالث مرة ورجوع مري الى الشام - تمين شيركوه وزيراً
	١١٦٩	٥٦٥	وفاة شيركوه وتمين صلاح الدين وزيراً
	١١٦٩	٥٦٥	النداء للخليفة العباسي قيسل وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين
	١١٧١	٥٦٧	
	١٢٥٠-١١٧١	٥٦٧ - ٦٤٨	الدولة الايوبية - مدة حكمها ٧٩ سنة ومقرها القاهرة (١) صلاح الدين مؤسس الدولة : تولى وزارة مصر
	١١٦٩	٥٦٥	

البلاد الأجنبية	التاريخ		مصر
	م	هـ	
	١١٧١	٥٦٧	خلع الخليفة الفاطمي والنداء للخليفة العباسي (١) تحصينه لمصر وتأييد ملكه فيها - بدء بناء سور حول القاهرة وضواحيها وانشاء قلعة الجبل - ارسال جيوش الى بلاد العرب وسواحل افريقية والسودان
	١١٧٤	٥٧٠	وفاة نور الدين خلاص صلاح الدين الجو وعمل على بسط نفوذه على جميع الممالك الاسلامية
	١١٧٦-١١٧٥	٥٧٢ - ٥٧١	(ب) توسيع نطاق دولته اخضاع الشام الاسلامية
	١١٨٢-١١٧٧	٥٧٨ - ٥٧٣	تنظيم أملاكه ومواصلة تحصين القاهرة انشاء المدارس لنشر مذهب الامام الشافعي ومحو مذهب الشيعة من مصر ثم بسط نفوذه على معظم ممالك الاسلام ووحيد كلمتهم
	١١٨٦	٥٨٢	(ج) صلاح الدين والصلبيون
	١١٩٢-١١٨٧	٥٨٨ - ٥٨٣	حروبه العظيمة بالشام : ٥ سنوات موقعة حطين الفاصلة وفتح عسقلان
	١١٨٧	٥٨٣	وبيت المقدس
	١١٨٨	٥٨٤	فتح انطاكية ومدن الساحل شمالي صور سقوط عكا في يد الصليبيين ومهم
	١١٩١	٥٨٧	ريكارد قلب الاسد ملك الانجليز عقد صلح بالرملة بين صلاح الدين وريكارد قلب الاسد وبه صار المسلمون يملكون جميع الشام ما عدا ساحل ضيق بين صور ويافا
	١١٩٢	٥٨٨	
	١١٩٣	٥٨٩	وفاة صلاح الدين بدمشق
			(٢) الدولة الابوية بعد صلاح الدين - تقسيم الدولة العظيمة الى عدة أقسام (أهمها مصر) - وقوع نزاع بين أولاد صلاح الدين
			المادل أخو صلاح الدين تولى على الملك بمهارته ودانت له معظم دولة صلاح الدين ■
	١٢٠٠	٥٩٦	

البلاد الأجنبية	التاريخ		مصر
	م	هـ	
جاءت للصليبيين أمداد جديدة وأرادوا انتهاز فرصة انقسام الدولة بعد وفاة صلاح الدين للاستيلاء على بيت المقدس ولكن العادل عقد معهم صلحا وتنازل لهم عن بعض الجهات	١١٩٧	٥٩٣	
نهضة جديدة للصليبيين	١٢٠٢-١٢٠١	٥٩٩ - ٥٩٧	وقوع تحط ووباء عظيمين أضعفا البلاد العادل لم يفتر عن توحيد كلمة المسلمين
	١٢١٨	٦١٥	بدا للصليبيين تحويل رحي القتال الى مصر وملكوا دمياط الكامل (٦١٥ - ٦٣٥ هـ : ١٢١٨ - ١٢٣٨ م)
	١٢٢١	٦١٨	طرد الصليبيين من دمياط وأجلاهم عن مصر الملك الصالح (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ : ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م)
	١٢٤٤	٦٤٢	أكثر من شراء المماليك وأنزلهم بحزيرة الروضة رجوع بيت المقدس للمسلمين نهائيا رجوع دمشق وعسقلان
	١٢٤٩	٦٤٧	نزول الصليبيين دمياط واستيلاؤهم عليها توران شاه : واصل قتالهم بعد وفاة والده - كسرهم
	١٢٥٠	٦٤٨	كسرة شنيعة بالمنصورة وأسر ملكهم لويس التاسع قتل المماليك توران شاه وانقراض الدولة الايوبية
	١٢٥٠-١٥١٧	٦٤٨ - ٩٢٢	المماليك عصر - ٢٦٧ سنة
سقوط بغداد في يد التتار	١٢٥٨	٦٥٦	عصر كثير الفتن والثورات واشتد فيه الظلم في الغالب أنشئ فيه بالرغم من ذلك كثير من المساجد والاثار
	١٣٨٢-١٢٥٠	٦٤٨ - ٧٨٤	دولة المماليك البحرية - حكمها ١٣٢ سنة ومقرها بالقاهرة بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ : ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م)
	١٢٧١-١٢٦١	٦٥٩ - ٦٧٠	قهر التتار (وكان أحد قواد قطز) وطاردهم حتى أخرجهم من دمشق - قتل قطز واختير مكانه - المؤسس الحقيقي لدولتي المماليك
	١٢٧٧	٦٧٦	حارب الصليبيين محاربة شديدة مدة ١٠ سنوات شنت شمل الصليبيين وهدم يافا وانطاكية (٦٦٧ هـ : ١٢٦٨ م)
			انتزع مملكة الروم السلجوقية من يد التتار ودان له أهلها

البلاد الأجنبية	التاريخ		مصر
	م	هـ	
			من آثاره مسجد الظاهر بالحسينية قلاون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ : ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) تولى الملك بعد نزاع فشق في بيته اكثر من ١٠٠ سنة — هادن الصليبيين ١٠ سنوات هزم التتار في موقعة فاصلة بحمص وكانوا يتأهبون للاغارة على مصر
	١٢٨٢	٦٨٠	على مصر حارب الصليبيين بالرغم من المهادنة
	١٢٨٩	٦٨٨	استولى على طرابلس
انتهاء الحروب الصليبية وانقراض دولة الصليبيين بالشام	١٢٩٢	٦٩١	ومن آثاره مستشفى قلاون ومجانبه مدرسته بالنحاسين الاشرف خليل — كان قاسياً سيئ السيرة — استولى على عكا آخر مدينة حصينة بالشام بقيت بأيدي الصليبيين الناصر (٦٩٣ - ٧٤٢ هـ : ١٢٩٣ - ١٣٤١ م)
	١٣٠٠	٦٩٩	أزهى عصور الحضارة الاسلامية بمصر هزم التتار المماليك واستولوا على دمشق
	١٣٠٣	٧٠٢	لكهم هزموا هزيمة شنيعة وصدوا لرابع مرة عن مصر زادت في عهد الناصر ثروة البلاد — اهتم بالشؤون الداخلية مثل الموازين والمقاييس الخ — وفي عهده بلغ من المباني والنقوش العربية أقصاه — اكثر الانوار العربية التي بدور تحف العالم من صنع هذا العصر — من آثاره قناطر المياه الموصلة بين النيل والقلمة السلطان حسن — من أولاد الناصر — شيد جامع السلطان حسن بجوار القلمة
	١٥١٧-١٣٨٢	٧٨٤ - ٩٢٢	دولة المماليك الشراكسة أو البرجية — مدة حكمها ١٣ سنة ومقرها القاهرة — زادت الفتن عن عهد الدولة السالفة برقوق : مؤسس دولة المماليك الشراكسة
	١٣٩٩-١٣٨٢	٧٨٤ - ٨٠١	
استيلاء تيمورلوك على بغداد	١٣٩٣	٧٩٥	
خضوع الجزيرة بأسرها له	١٣٩٤	٧٩٦	
	١٣٩٩	٨٠١	أرسل التتار كتابا يطلبون من مصر التسليم فأبى برقوق وشرع في اعداد جيش لمحاربتهم — وفاته ومن آثاره مدرسته بالنحاسين
	١٣٩٩	٨٠١	
	١٤٠١	٨٠٣	فرج : خرج لمحاربة التتار

البلاد الأجنبية	التاريخ		مصر
	م	هـ	
استيلاء الترك العثمانيين على القسطنطينية	١٤٥٣	٨٥٧	ومن آثاره المدفن ذو القبتين بالجبانة الشرقية المعروف بجامع برفوق <u>برسباى</u> : (٨٢٥ — ٨٨٤١ : ١٤٢٢ — ١٤٣٨ م) تشدد في سن الضرائب واحتكار التجارة استولى على جزيرة قبرص وآتى بملكها أسيراً الى مصر اهتمامه بضرائب التجارة الهندية
	١٤٩١ ١٤٩٢	٨٩٦ ٨٩٧	<u>قايتباى</u> (٨٧٣ — ٨٩٠٢ : ١٤٦٨ — ١٤٩٦ م) أطول حكم في ملوك هذه الدولة — زاد الضرائب لكثرة حروبه — اكبر شاغل له ازدياد قوة آل عثمان — نشبت حروب بينه وبين بايزيد انتهت بمهادنة الاثنيين وباه شديد اعقبه قحط ومن آثاره تربته في الصحراء وتعرف بجامع قايتباى
كشف فاسكو دى جاما طريق الهند	١٤٩٧	٩٠٣	
تولى السلطان سليم الاول عرش آل عثمان	١٥١٢	٩١٨	<u>النورى</u> : ٩٠٦ — ٩١٢ هـ (٢٥٠١ — ١٥١٦ م) وجد خزائن الحكومة خالية فتشدد في جمع الخراج — قل وارد الحكومة من تجارة الهند — مشاحنات مع البرتقال
	١٥١٦ ١٥١٧	٩٢٢ ٩٢٢	اتهم السلطان سليم النورى بمالأة اعدائه ونوى الاستيلاء على مصر — خرج النورى لمحاربتهم فالتقى الجيشان بمرج دايق شمالى حلب فقتل النورى وهزم جيشه ملك السلطان سليم الشام بلا مقاومة وزحف على مصر انهزام طومان باى بالريدانية واستيلاء سليم على مصر

